

يَا لُغَتَاهْ

للدكتور محمد جمال صقر

ربيع الأول ١٤٣٧=ديسمبر ٢٠١٥

بِسْمِ اللَّهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وَبِحَمْدِهِ وَصَلَاةً عَلَى

رَسُولِهِ وَسَلَامًا وَرِضوَانًا

عَلَى صَحَابَتِهِ وَتَابِعِيهِمْ

حَتَّى نَلْقَاهُمْ

الْفِهْرِسُ

ثَقَّفَهُ؛ فَتَثَقَّفَ، أَوْ أَبَى!

الكلمة الدالة هنا هي "التثقيف"، الـذي يعنـي إكسـاب الآخـر المتثقف ثقافة الأنا المثقـف، في سـبيل إنـارة بصـيرته، وإخصـاب حياتـه، وزيادة إنسانيته. ولما كانت ثقافة الأنا هذه هي كل ما أنتجه صـاحبها منـذ رسخت في نفسه عقائده الخاصـة وحركتـه إلى كـل قـول وفعـل وإقـرار، وجب أن يُسَرِّبَها عند تثقيف الآخر من منافذ كـالتي تسربـت إليـه منهـا؛ فيطلعه أولا على عقائده الخاصة في أصولها الناصعة الواضحة، ثم يطلعـه ثانيا على أفكاره المتولدة من إيمانه بتلك العقيدة، ثم يطلعه ثالثا على أفعاله المشتملة على تلك الأفكار، ثم يطلعه رابعا على ما تبنـاه مـن أفكـار غـيره وأفعاله التي لم تخالف أفكاره هو وأفعاله المتولدة من عقيدته؛ فربما اتفقت بـين البشرـ الأفكـار وأفعالهـا عـلى رغـم اخـتلاف العقائـد؛ فحسـن أن يستوعبوها جميعا .

إذا تأملنا تاريخ الدعوات التثقيفية، وجدناها فردية المبتدأ، جماعية المنتهى، من دون أن أعني أن جماعيتها هي مبتدأ نهايتها!

يخـرج عـلى الجماعـة فَـرْدٌ فَـذٌّ مُشَـيَّع، يسـفه أحلامهـم، ويهـدم أصنامهم، زمانا ما، ثم يتبعه الناس قليلا قليلا، حتى تكون به وله جماعـة متميزة من تلك الجماعة، يخرج عليها بعد حين فَرْدٌ آخَرُ فَذٌّ مُشَيَّعٌ، وجَماعَةٌ أُخْرى مُتَمَيِّزَةٌ !

تلك طبيعة العلاقة بين الفرد والجماعة.

مَكَانَةُ ثَقَافَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ[1]

مِنْ خِلَالِ "رِسَالَةٌ فِي الطَّرِيقِ إِلَى ثَقَافَتِنَا"،

لِلْأُسْتَاذِ مَحْمُودْ مُحَمَّدْ شَاكِرْ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

"لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا {٢١} وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا {٢٢} مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا {٢٣} لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا {٢٤}"، الأحزاب: ٢١-٢٤.

جيء بهذه الآيات لأجل الرجل الذي بدأ رسالته في الطريق إلى ثقافتنا بالحديث الذى رواه أحمد والترمذي بسنديهما عن أبي سعيد

[1] ندوة بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة في ٢٣-٤-٢٠٠٧م، أعدَّ لها وقدمها الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر، وشارك فيها الأساتذة الدكتور محمود الربيعي، والدكتور عبد المنعم تليمة والدكتور محمد حماسة عبد اللطيف والأستاذ عبد الرحمن شاكر والدكتور فهر محمود محمد شاكر، وسجلتها وفرغتها وضبطتها نهاد مجدي طالبة تمهيدية الماجستير بقسم النحو والصرف والعروض من كلية دار العلوم، بجامعة القاهرة.

الخدري- رضي الله عنه!- قال: سمعت النبي - صلى الله عليه، وسلم!- يقول: " ألا لا يَمْنَعَنَّ رجلا هَيْبَةُ الناسِ أن يقول بِحَقٍّ إذا عَلِمَهُ". فكان كذلك الأستاذ محمود شاكر في كتابه وفي رسالته إلى أن توفاه ربه . وجزيتم خيرا لحسن الاستماع.

الطالب أحمد أبو خليل (المقرر التنفيذي لأسرة فرسان النور):

عندما وُكِلَ إليَّ تقديم هذه الندوة-وأنا لست بذلك التوكيل جدير- حِرْتُ في أمري وأمرها، وما عساني أن أفعل في هذا المقام الصعب وفي هذا المقام المخيف، حيث تَعْصِفُ الرياح وتَبْطُل الأسمار، في حضرة أساتذتي الأجلاء، وأمام كتاب من أعظم الكتب، وبين يدي علامة العصر، فكيف للعبارات المُنَمَّقة و الكلمات المزخرفة أن توفي حق هذا أو ذاك! لا مجال لذلك .

لذا أود فقط و قبل أن أترك المكان لأهله الحقيقيين و ناسِه المَعْنِيين فعلا- أن أبعث بثلاث رسائل:

الرسالةُ الأولى : مِنّا إليكم ، منا نحن طلاب دار العلوم إليكم أنتم أيها الضيوف الكرام رسالة تحية وإجلال واحترام على ما منحتمونا إياه من شرف استضافة هذه الندوة، نقول لكم: لو ضاقت بكم أقطار السماوات والأرض ستجدون دائما دار العلوم ملاذا لكم، منبر يعلو من فوقه صوتكم .

الرسالةُ الثانية: مِنّي إليكم، رسالة شكر وتقدير لكل من لبّى الدعوة، وحضر هذه الندوة، وأيضا تحية خاصة إلى كل من ساهم بجهد أو بمال في سبيل إنجاح هذا العمل وخاصة من زملائي أعضاء أسرة "فرسان النور" التي تشرف بكون أستاذنا الدكتور محمد جمال صقر رائدا لها.

أما الرسالةُ **الثالثة**: فهي إليكم أيها الأساتذة وأيها الطلاب جميعا، ولكنها ليست مني إنما هي من صاحب هذا المقام، إنها رسالة إصلاح هذه الأمة التي نحن مَعْنِيّون في المقام الأول بثقافتها، فلنستمع إليه يقول، إن هذا الإصلاح الآن موقوف على ظهور الرجل الذي ينبعث من هذا الشعب المسكين الفقير المظلوم يحمل في رجولته سراجا وهاجا مشتعلا من كل نواحيه هو الرجل المصبوب في أجلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كلها، وألام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحي المتحرك على هذه الأرض الذي يسمى الإنسان، فلابد أن يكون من بينكم ذاك الرجل، وإلا فلا مفر لكم من أن تُخرجوا منا، من هذا الجيل ذلك الرجل .

أمتع الله بكم، وكان جاركم، وأترك التقديم الآن إلى أستاذي الدكتور محمد جمال صقر، فليتفضل مشكورا.

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

أستاذي الجليل الدكتور محمود الرَّبيعيّ، أستاذي الجليل الدكتور عبد المنعم تَلّيمة، أستاذي الجليل الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، أستاذي الجليل الكاتب الأديب الأستاذ عبد الرحمن شاكر، أخي الجليل الكبير الدكتور فهر (رائحة الأحباب!)، أيها الضيوف الكرام، سلام عليكم، طبتم وطاب مسعاكم إلينا، بسم الله- سبحانه، وتعالى !- وبحمده، وصلاة على رسوله، وسلاما، ورضوانا على صحابته وتابعيهم حتى نلقاهم!

إذا هجر المثقفون ثقافتهم جَهِلوها، فضاع إيمانهم بها، و زَهِدوا فيها، واختلفوا؛ فمِنْ متشاغل عنها بماديات حضارته وكأنها لُغْزٌ يُعَنِّتُهُ النظرُ فيه، ومن مُدْبِرٍ عنها إلى غيرها من الثقافات وكأنها عارٌ ينبغي أن يتبرأ منه، ومن مُقْبِل عليها بالتحريف وكأنها قَرْزَمَةٌ ينبغي أن يهذبها- حتى إذا ما تَيَسَّرَ لبعضهم أن يستوعبها حتى تملأ عليه أقطارَ نفسه؛ فيؤمن بها حتى يصير هو نفسُه مَظْهَرَ كُنْهِها، ويحرصَ عليها حتى يصيرَ هو نفسُه لسانَ حالها- أقبل يتأتى إلى تعليمها ويغري المثقفين بمراجعتها.

ويبدو لي أنَّ حيواتِ الثقافاتِ الكبيرةَ حيواتٌ مستديرة، تتوالى فيها من قديم إلى حديث، أحوال الوِصال والهِجران، والاستيعاب والجهل، والقوة والضعف؛ فقد ابْتُلِيَتِ الثَّقافةُ العربيةُ الإسلاميةُ في القرن الهجريِّ الرابعَ عَشَرَ الميلاديِّ العشرينَ بطوائفَ من أولئك الجاهلين

الشّاكّين الزاهـدين، تشـاغلوا، وأدبـروا، وحرفـوا، وتمكنـوا، حتـى نشـأ مصطفى صادق الرافعي، ثم تلميذه محمـود محمـد شـاكر- رحمهـما الله!- فلم يكونا إلا مُثَقَّفَيْنِ أوتِيا مِنَ اسْتيعابِ الثَّقافةِ العربيةِ الإسلاميةِ والإيمانِ بها والحرص عليها، ما أَقْبَلا يتأتيان به إلى تعليمها والإغـراء بمراجعتهـا، حتى استحدثا أساليب أدبية متعددة مختلفة أَثَّرَتْ في المتلقين تأثيرا شديدا.

تمنيت أن أسمعكم أستاذنا- رحمه الله!- ينشد ملحمته "اعصـفي يا رياح" ولكنني تكاثرت علي مقاطع مـن كلامـه في كتابـه هـذا المختـار "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" أَبَتْ إلا أن أُطلعكـم بهـا عـلى سـتةِ محـاورَ تدور عليها إحدى وعشرون ومائة فكرة هي مادة كتابه هذا المختار.

- **المحور الاول** - إذا استفدنا مما استظهره أسـتاذنا الـدكتور سـعد مصلوح- حد الثقافة.
- **المحور الثاني ،** مراحل الصراع بـين المسـيحية الأوروبيـة وبـين الإسلام.
- **والمحور الثالث،** تقويم الاستشراق.
- **والمحور الرابع،** النهضة الإسلامية.
- **والمحور الخامس،** تقويم الحملـة الفرنسـة وحكـم محمـد عـلي في مصر.
- **والمحور السادس،** فساد الحياة الأدبية ومرضها.

وفي المحور الأول برز قوله: "ورأس كل ثقافة هو الـدين بمعنـاه العام، والذي هـو فطـرة الإنسـان، أيَّ ديـن كـان -أو مـا كـان في معنـى الدين- وبقدر شمول هذا الدين لجميع ما يَكْبَحُ جُموح الـنفس الإنسـانية ويَحْجِزُها عن أن تَزيغَ عـن الفطـرة السَّـوية العادلـة- وبقـدر تَغَلْغُلِـهِ إلى أغوار النفس تغلغُلًا يجعل صـاحبها قـادرا عـلى ضـبط الأهـواء الجـائرة ومريدًا لهذا الضبط- بقدر هذا الشمول وهذا التغلغل في بُنيـان الإنسـان تكون قوة العواصم التي تعصم صاحبها من كل عيب قادح في مسيرة "ما قبل المنهج"، ثم في مسيرة "المنهج" الذي ينشعب من شطره الثاني، وهـو شطر التطبيق"، المتنبي: ٣١.

في المحور الثاني الذي هو مراحل الصراع، برز قوله: "وبغتةً-كـما كان اقتحامُ المسلمين قلبَ أوربةَ بغتةً- تَهاوَتِ الحَواجزُ التـي كانـت تمنـع حركـة اليقظـة والتَّنَبُّـه في أعقـاب الحـروب الصـليبية لأن تـؤتي ثمارهـا، وخرجت أوربة من أصـفاد "القـرون الوسـطى"، ودخلـت بعـد جهـاد طويل مرير في "القرون الحديثة" كما يُسمّونها. ومع تقوُّض هذه الحـواجز ظهرت براعيم الثمار الشهية، وبظهورهـا غَضَّـة نـاضرة، زادت الحماسـةُ، وتعالتِ الهِمَمُ، ومُهِّدَ الطريقُ الوَعْر، ودَبَّتِ النَّشوةُ في جماهير المجاهدين، وتحددت الأهداف والوسائل، وتَبَيَّن الطريقُ اللّاحِبُ. ومـن يومئـذٍ بـدأ الميزانُ يَشول، فارتفعت إحدى الكِفَّتَيْنِ شـيئا مـا، وانخفضـت الأخـرى شيئا ما. ارتفعت كِفَّةُ أوربة بهـذه اليقظـة الهائلـة الشـاملة التـي أحـدثتها

الهزائم القديمة والحديثة، وانخفضت كفة المسلمين بهذه الغفلة الهائلة الشاملة التي أحدثها الغرور بالنصر القديم وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية. وكذلك شال الميزان، وكانت فرحةٌ محسوسةٌ في جانب، وكانت غفلةٌ لا تُحَسُّ في جانب . تاريخٌ طويلٌ مضى وغاب، وتاريخٌ طويلٌ سوف يأتي، ثم لا يعلمُ إلا اللهُ متى يكون غيابُه"، المتنبي: ٤٣.

وفي المحور الثالث وهو تقويم الاستشراق، برز قوله: "كان جوهرُ هذه الصورةِ-المبثوثُ تحت المباحث كلِّها- هو أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قومٌ بُداةٌ جُهّالٌ لا علمَ لهم كانَ، جِياعٌ في صحراءَ مجدبةٍ، جاءهم رجل من أنفسهم فادَّعى أنه نبيٌّ مرسلٌ، ولَفَّق لهم دينا من اليهودية والنصرانية، فصدَّقوه بجهلهم واتبعوه، ولم يلبث هؤلاء الجياعُ أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم، حتى كان ما كان، و دان لهم من غَوْغاءِ الأُمم من دان، و قامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافةٌ وحضارةٌ جُلُّها مَسْلوبٌ من ثقافات الأمم السالفة كالفُرس والهند واليونان وغيرهم، حتّى لُغَتُهُمْ كُلُّها مسلوبةٌ وعالةٌ على العِبْرية والسُّريانية والآراميَّة والفارسيَّة والحَبَشِيَّة. ثم كان من تصاريف الأقدار أن يكون علماء هذه الأمة العربية من غير أبناء العرب - الموالي- وأن هؤلاء هم الذين جعلوا لهذه الحضارة الإسلامية كلِّها معنًى. هذا هو جوهر الصورة التي بثَّها المستشرقون في كُلِّ كُتُبهم عن دين الإسلامِ وعن عُلوم أهل الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتِهم، وأنّ هذه الحضارة إنّما هي إحدى

حضاراتِ" القرون الوسطى" المظلمة التي كان العالم يومئذٍ غارقًا فيها - يعنون عالَمَهُم هم- يجري عليها حُكْمُ قُرونهم الوسطى! بَثّوا تلك الصورة في كُلِّ كُتُبهم بمهارة وحِذْقٍ وخُبْثٍ مُعْرِقٍ، وبأسلوبٍ يُقنِع القارئ الأوربيّ المثقَّف الآن كُلّ الإقناع، وتنحطُّ في نَظَره حضارة الإسلام وثقافته انحطاطَ "القرون الوسطى"، ويزداد بذلك زَهْوًا بأنّ أسلافَهُ من اليونان والآريِّين كانوا هم رَكائز هذه الحضارة المزيَّفَةِ الملفَّقةِ دينًا ولُغَةً وعلمًا وثقافةً وأدبًا وشعرًا، ويزداد بذلك الأوربيُّ-أيًّا كان- غَطْرسةً وتعاليًا وجَبَرِيَّةً، ولا يَرى في الدُّنيا شيئًا لهُ قيمةٌ، إلا وهو مستمدٌّ من أسلافِه اليونان والآريين والهَمَج الهامج!

ومن خِلالِ الصراحَة العارية التي طرحتْ كُلَّ حجابٍ، أو الصراحة المتحجِّبة بالبراءة وخلوص النيَّة وحبِّ العلم، أو بالصراحة الحِييّة التي أمامَها الخَفَر إلى التبرُّج بحبِّ الإنصافِ- استطاع "الاستشراق" أن يجعل هذه الصورة حيّةً متحركة في جميع كتبه ومقالاته ودراساته ومباحثه على اختلافها، حتى الدراسات التي تستعصي على قبول هذه الصورة واضحةً لم تخلُ من غَمْزٍ خَبيءٍ ولَمْزٍ خفيٍّ يستدعي حُضور هذه الصورةِ بطريقةٍ مّا. وكذلك نجح "الاستشراق" في تحقيق هدفه كلَّ النجاح، واستطاعَ أنْ يُدْرِج الإسلامَ وشرائعه وثقافته وحضارته في مُسْتَنقع "القرون الوسطى" الذي طَمَرته "النهضةُ الحديثة" ووَطِئَهُ "عصر الإحياء والتنوير" بأقدامِه وَطْأةَ المُتَثاقل. وبذلك عَصَم

العقلَ الأوربيَّ المثقَّف من أن يزِلَّ زلَّةً، فيرى في دين الإسلام أو في ثقافته وحضارته ما يوجبُ انبهارَه كما انبهر أسلافٌ له من قَبْلُ تساقطوا في الإسلام وثقافته وحضارته طواعيةً، ثم صاروا -مع الأسف- من بُناة مجده على مدى اثني عشر قرنا على الأقل. واعلم أني على عَمْدٍ هنا أتناسى عمل "الاستشراق" في السَّطْو على الكنوز المخبوءَة كانتْ في علم دار الإسلام ، ثم ما بذلوه في نقله سِرًّا إلى علمائهم في زمنِ النَّأْنأة وما بعدها ليَبْنوا عليه حضارتهم العظيمة القائمة اليوم بيننا، وكيف أغلقوا الأبواب على ذِكْر ما سَطَوا عليه بالضَّبَّة والمفتاح؛ حتى لا يعلم خَبيئته أحد، حتى ولو كان أوربِّيا قُحًّا- وأتناسى على عَمْدٍ منّي أيضًا حديث السفاهةِ والبذاءةِ التي جرت على ألسنة دَهاقينهم من المطاعن في القرآن العظيم، و في رسول الله - صلى الله عليه، وسلم!- وصحابته، إمدادًا لهيئات "التبشير"، للقيام بعملها النبيل في دار الإسلام وفي توابعه التي كانت محجوبة عنهم، ثم انفسح لها الطريق مع الزحف الأكبر"، المتنبي: ٥٩.

وفي المحور الرابع النهضة الإسلامية، برز قوله: "يومئذٍ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قَرْنان، مئتا عامٍ... ويومئذٍ آنس قلبُ دار الإسلام رِكْزًا خفيًّا فأرهفَ لهُ سَمْعه. سمع نَقيضَ أركانِ دارِ الخلافة وهي تتقَوَّض؛ فتوجَّس توجُّسًا غامضًا لشرٍّ مستطير آتٍ لا يدري من أَيْن، فهبَّ من جوف الغَفْوةِ الغامرة أشتاتٌ من رجالٍ أيقظتْهم هَدَّةُ هذا التقوُّض، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة في غَفْوتها. رجالٌ

عظامٌ أحسّوا بالخَطر المُبْهَمِ المُحْدِق بأُمَّتهم، فهبّوا بلا تَواطُؤٍ بينهم. كـانوا رجـالًا أيقاظًـا مُفَـرَّقين في جَنَبـاتِ أرضٍ متراميـةِ الأطـراف، متباعـدةٌ أوطانُهم، لا يجمعهم إلا هذا الذى توجَّسوه في قرارةِ أنفسـهم مـبهمًا مـن خطرٍ مُحْدِقٍ. أحسّوا الخطـرَ فرامـوا إصـلاح الخَلَـل الواقـع في حيـاة دار الإسلام: خَلَـلِ "اللُّغـةِ"، و"خَلَـل العقيـدة"، و"خَلَـل علـوم الـدين"، و"خَلل علوم الحضارة". وبأناةٍ وصَبْر عَمِلوا وأَلَّفوا وعَلَّموا تلاميـذهم، وبهمـةٍ وجـدٍّ أرادوا أنْ يُـدْخِلوا الأمَّـة في "عصرـ النهضـة"، نهضـةِ دار الإسلام من الوَسَنِ والنومِ الجهالةِ والغفلة عـن إرث أسـلافهم العِظـام. من هؤلاء خمسةٌ من الأعلامِ أذكرهُم لكَ هنا مجرَّد ذِكْرٍ باختصار :

- البغدادي، صاحب "خزانة الأدب" المتوفى سـنة ثـلاث وثمانـين وستمئة وألف.
- الجَبَرْتي، الكبير المتوفى سـنة أربـع و سـبعين وسـبعمئة وألـف في مصر.
- ابن عبد الوهاب، المتوفى سنة اثنتين و تسعين و سبعمئة وألـف في جزيرة العرب.
- المُرْتَضى الزَّبيديّ، صاحب "تاج العروس" المتـوفى سـنة تسـعين وسبعمئة وألف في الهند.
- الشَّوْكانيّ، اليمني المتوفى سنة أربع وثلاثين وثمانمئة وألف.

وإذا أنعمت النظر في هذه التواريخ علمـت أنَّ "عصرـ النهضـة" عندنا واقعٌ بين منتصف القرن الحادي عشر الهجري إلى منتصـف القـرن الثاني عشر، و يقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادي إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، تذكَّرْ هذا ولا تنسَهُ أبدًا ؛ فهو الـذى يكشـف لـك اللِّثامَ عن التغريرِ الفاضـح الـذي طفَحـتْ بـه حياتُنـا الأدبيـةُ الفاسـدةُ المهلكةُ"، المتنبي: ٨١.

وفي المحور الخامس تقويم الحملة الفرنسية وحكم محمـد عـلي في مصر، برز قوله: "وقيّض الله لفرنسـا قائـدًا أوربيًّـا محنّكـا مظفَّـرًا شـديد البأس، خوّاضًا لغمراتِ الموتِ، ضَرَّسته الحـروبُ في أوربـة حتـى صـار اسمُه مثيرًا للرُّعب في القلوبِ بأنه قائدٌ لا يُقْهـر، هـو الصـليبيُّ المكيـافِلِّيُّ المغامر المفتون الفاجر: "نابليون" المتوفى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف للهجرة، فلمّا فرغ من حروبه في أوربَّة منصورًا نصرًا مؤزّرًا، أصاخ سمعَهُ لنذير "الاستشراق"، ولنُصْحه وإرشاده، فقدَّرَ أنّ الحين قد حـانَ ليكـونَ أوّلَ قائدٍ أوربيٍّ استطاعَ بقوَّته التي لا تُقْهر، أن يَخْترق قلـبَ دار الإسـلامِ من الشمال، وأنْ يُداهم "اليَقَظَة" التـي أرَّقَـت مَنـام" الاستشرـاق"، وأن يبطشَ بها في عُقْر دارها بَطْشة جبّارٍ عاتٍ لا يُبْقي على شيءٍ، وفـوق ذلـك كُلِّه: أن يرُدّ لفرنسا هيبتَها التي ضاعت يوم طردتها بريطانيـا طـردًا مخزيًـا من دار الإسلام في الهند القصيَّة البعيـدة، وبـذلك تنفـردُ فرنسـا وحـدها

بالمجدِ السنيِّ كُلِّـه ، وتكلِّلها المسحية الشمالية عندَئـذ بأكاليـل الغـار (ص٨٩من كتاب المتنبي).

ولما فرغ "محمد علي" من تحطيم "اليقظة" التي كانـت في جزيـرة العرب- سنة تسع عشر وثمانمائة وألـف الميلاديـة- وعـلا بـذلك شـأنُه، وأرسى قواعد ملكه في الديار المصرية- كـان في فرنسـا رجُـل كبـيرٌ ممَّـن شاركوا في الحملة الفرنسية، كان مهندسًا بارعًا، وكانت لـه منزلـة كبـيرة عند "نابليون" والمستشرق "فانتور" خليلِ نابليون ونَجِيِّه، وانتُخِب بعـد عودته إلى فرنسا عضوا بالمجمع العلمي الفرنسيّ، وكـان شـديد الاهـتمام بكل ما يخصُّ مصر، هو المسيو جومار المتوفى سنة اثنـين وسـتين وثمانمائـة وألف للميلاد. فلما رأى نجاح "القناصل" في إغراء "محمد علي" بإرسال البعثات إلى أوربة ما بين سنة إحدى عشر وثمانمائـة وألـف إلى سـنة تسـع عشرـة وثمانمائـة وألـف للمـيلاد- أسرع جومـار يحـثُّ "الاستشراق" الفرنسيّ وقناصله في مصر، على إغراء محمد علي بإرسال بعثات كبـيرة إلى فرنسا، ليجعلها تحت إشرافه، ولينفِّذ مشروع "نابليون" الذي بيَّنه لخليفته "كليبر" في رِسالته إليه"، المتنبي: ١٤٠.

وفي المحور الأخير فساد الحياة الأوربية ومرضها، برز قوله-وهو مهم جدا-: "باطل كل البطلان أن يكون في هذه الدنيا على ما هـي عليـه ثقافة يمكن أن ثقافة عالمية أي ثقافة واحدة يمتـزج فيهـا البشرـ جميعـا، و يمتزجون على اختلاف لغاتهم و مللهم ونحلهم وأجناسـهم و أوطـانهم،

هذا تدليس كبير، وإنما يُظن بشيوع هذه المقولة بين الناس و الأمم، هدف آخر يتعلق بفرض أمة غالبة على أمة مغلوبة؛ لتبقى تبعا لها، فالثقافات متعددة بتعدد الملل، ومتميزة بتميز الملل، ولكل ثقافة أسلوب في التفكير و النظر و الاستدلال منتزع من الدين الذي تدين به لا محالة، فالثقافات المتباينة تتحاور و تتناور وتتناقش ولكن لا تتداخل تداخلا يفضي إلى الامتزاج البتة، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئا إلا بعد عرضه على أسلوبها في التفكير و النظر و الاستدلال، فإن استجاب لأسلوبها أخذته و عدلته و خلصته من شوائبه، و إن استعصى نبذته و اطرحته، و هذا باب واسع جدا ليس هذا مكان بيانه، ولكني لا أفارقه حتى أنبهك لشيء مهم جدا هو أن تفصل فصلا حاسما بين ما يسمى الآن ثقافة وما يسمى علما- أعني العلوم البحتة- لأن لكل منها طبيعة مباينة للآخر؛ فالثقافة مقصورة على أمة واحدة تدين بدين واحد و العلم مشاع بين خلق الله جميعا يشتركون فيه اشتراكا واحدا مهما اختلفت الأديان والعقائد".

أحسب-رحم الله من قرأت كلامه!- أني قرأت الكتاب كله إلى حد ما، وعرضت ما يكفي لإثارة أساتذتنا إلى التعليق، والاستطراد، والاستنباط.

ومَن هؤلاء الذين أمامكم وأنتم بين أيديهم تنتظرون أن تنهلوا؟

أستاذنا الدكتور محمود الربيعي صديق و تلميذ كبير لأستاذنا محمود محمد شاكر، والدكتور عبد المنعم تليمة صديق وتلميذ كبير،

وأستاذنا الدكتور محمد حماسة منذ كان صغيرا في الثانوية أو في الإعدادية له علاقة وله إحساس وطلب وطرب خاص بهذه المدرسة، والأستاذ عبد الرحمن شاكر الصحفي الأديب من عجائب هذه المدرسة، يشرفنا حضوره، وأخونا العزيز الدكتور فهر رائحة هذا الحبيب وأستاذ بكلية الآداب بالقسم الذي كان فيه أستاذنا محمود محمد شاكر صغيرا وتركه، لأمر ما تركه، ولأمر ما جعل ابنه في هذه الكلية حتى صار من أساتذتها . هؤلاء صفوة من صفوة هذه المدرسة، كلنا آذان مُصْغِيَةٌ مُتَشَوِّقَةٌ لسماع تعليقاتهم، واستطراداتهم، واقتباساتهم، وتنبيهاتهم .

أستاذنا الدكتور محمود الربيعي، تفضل، لك كل الشكر، نحن نتمنى أن تكلمنا في هذا بما شئت من تعليقات واستنباطات واستطرادات تضيء لنا هذه الجوانب التي أثرتها بسماع نصوص، لم أستنبط منها، ولم أعلق عليها، تفضل.

الأستاذ الدكتور محمود الربيعي:

بسم الله الرحمن الرحيم، يرحم الله الأستاذ محمود محمد شاكر، عاش عزيزا، ورام أمرا عظيما!

أبدأ، فأوجه تحية إلى السيدة الكريمة العظيمة "أم فهر"، التي أعتبر وجودها بيننا اليوم شرفا عظيما لهذه الجلسة ، ولدار العلوم، وللجو الحميم الذي عشنا فيه نحن تلامذة الأستاذ ومحبّيه أجمل الأوقات في ظل

كرمها السابغ الذي يشهد بـه كـل مـن خطـا بقدمـه داخـل هـذا البيـت الكريم.

وأشعر بالحرج الشـديد؛ لأن الأخ العزيـز الـدكتور محمـد صـقر قدَّمني على الصديقين العزيزين الـدكتور تليمـة والأسـتاذ عبـد الـرحمن شاكر، فوضعني موضع الضيف، وكنت أحب أن أشعر أنني كلما دخلت دار العلوم دخلت بيتي، والإنسان لا يُقَدَّمُ أولا في بيته. أمـا وقـد أرادهـا كذلك، فأستميح أخوي الكريمين عذرا، وأعد بألا أطيل حتى أترك لهـما المنبر فسيحا وطويلا، إن شاء الله!

وإذا كان الكتاب دائـما يعـرَف مـن العنـوان، وكـان للعنـوان في مناهج الدرس الحديث مكان معتمد فإنني أدخـل مـن العنـوان، وأراهـا تلك الكلمات كلمات متلألئة توزن بالذهب، وليست مجرد عنوان يتوسـل به إلى ما بين دفتي الكتاب. وأول ما في هذه الكلمات كلمة "رسالة" وهي تضعنا على الفور في هذا الجو المقدس، وكل أنبياء الله وكل الرسل إنما هم أصحاب هذه الكلمة "رسالة"، وما توحيه من أن الرسول أمين ومؤتَمَن، وله في هذه الحياة هدف يتجاوز شخصه ويتجاوز فكره إلى الآخـرين فـما في أيدينا رسالة، ليست بحثا، ليست كتابا، ليست صفحات تقدم إنما هي رسالة وعلى كل من يتقبلها أن يتقبلها بهذه الروح. ورسالات السـماوات جاءت دائما على هذا النمط ، وعلى هـذا النسـق، أنهـا رسـالة وأن الـذين

يحملونها رسل، وكانت هذه الكلمـة موجـودة في اللغـة العربيـة قبـل أن تصبح كلمة اصطلاحية بزمن طويل.

ثم إنها رسالة "في الطريق"، والطريق دائما هو طريق إما الهداية أو الضلال، نحن دائما على طريق، ومن لم يسعده الحظ بأنه على طريـق فـإنما يعيش حياته هائما كالأنعام السائمة.

والطريق دائما هو طريق العارفين، والمعرفة هي أول ما يُطلب من صاحب الرسالة وصـاحب العقيـدة ، فهـذه رسـالة، وهـذه في الطريـق، وهذه في الطريق الموجَّه إلى المعرفة، إلي ثقافتنـا، والتثقيـف كلمـة شريفـة عزيزة عُنِيَ بها الأستاذ شاكر في حياته عناية كبرى، ومحَّصها، وعـاد إليهـا فكأنه بالفعل يقدم ثقافة. ونحن نعلم أنه حين نسج هذه الملحمة العظيمة على قصيدة "الشماخ"- إنما كانت قـوس "الشـماخ" قطعـة مـن الطبيعـة جَلاهـا وثقَّفهـا، فكـأن الثقافـة في الشـعر، في المعرفـة، وفي العلـم، وفي الشريعة، معنًى لم يفارق الأستاذ لحظة واحدة في حياته، فنحن نجـدها في نهاية الأمر متلألئة مضافة إلى ضمير الجماعة، هـذه رسـالة في الطريـق إلى ثقافتنا، نحن أمة، نحن جماعة، نحن نستمع ككتلة عظيمة واعية طموحـة عطشى إلى المعرفة، وإلى الثقافة.

فهذه هي المعاني التي تحملها كلمات العنوان- لي على الأقل- كلما عُدْتُ إليها أتأملها في ضوء ما عرفته من الحُمَيّا العظيمة التـي عـاش بهـا الأستاذ، ولها، يتأمل أحوال هذه الأمة المعرفية، ويقلبها، ويـتحمس لهـا،

ويعاني من أجلها، ويفتح بيته لطالب المعرفة، ويزيدهم بها علما... وهكذا كانت حياته ملخصة وجامعة لهذه الكلمات الخمسة الموحية (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا). ما هذا الجو شبه الصوفي الذي يضعنا فيه هذا العنوان!

هذه هي النقطة الأولى أو المقدمة الأولى التي أريد أن أتقدم بها إليكم. وقد أحسن الدكتور صقر صُنعا إذ قدم لنا محاور الرسالة؛ فوفَّر عليَّ أن أتحدث إليكم في فحوى الرسالة، إنما أتحدث في طريقة إيصال هذا الفحوى إلى القارئ، وكيف استوت نفقا جميلا حتى أصبحت هذا الفكر الجميل. هذه المحاور وهذه المعاني التي لخصها الدكتور صقر من الممكن أن نجدها في كتب كثيرة بأقلام كثيرين، ونتعلم منها، ونستفيد، ولكنها إذ طُرحت في هذه الرسالة طُرحت على نحو يجعلها شبيهة بالدنيا، يجعلها شبيهة بالعمل الفني المعماري الجميل، كيف تبدأ، وكيف تتطور الأفكار، وكيف تتفرع، وكيف تنمو، وكيف تصل إلى مداها في جو عربي أصيل سدًى ولحمةً، بلاغةً ومعرفةً- حتي تَصيرَ طريقةُ الكتابة أمرا مقصودا لذاته لا يمكن أن يتكرر مهما وضعنا هذه المحاور على أي لسان آخر، ومن أي ذهن آخر، وفي أية مناسبة أخرى، سنجد أن الأسلوب الفريد للأستاذ محمود شاكر- رحمه الله!- يتلألأ في السطور، وما بين السطور وكأنها ملحمة فيها الكر والفر، وفيها البرهنة والاستشهاد، وفيها المرجعية، وفيها المناقشة، وفيها الثوابت، وفيها المتغيِّرات، وفيها النفس

الطويـل المُـرْخَم المـريح الجميـل الـذي "يَحْسَـبُهُ الْجاهِـلُ مـا لَمْ يَعْلَـما"، استطرادا، وفيها هذه الفروسية التي نفتقدها الآن، وفيها هذه المائية التـي لا تتوفر لكثير من الكُتّاب، إننا نعاني من اليبوسـة و الجفـاف، والكسـاد، وفقدان الروح، وفقدان رحمة القلب في الكتابة، وفقدان النَّفَس الـرحيم، وفقدان العقل المتفتق... وكل هذه أشياء نستشـعرها في كـل كلمـة وكـل فكرة نجـد البلاغـة العربيـة التـي تعيـد لنـا أسـاليب الأقـدمين دون أن تفرغها، ونجد النـبرات، ونجـد المعنـى الكـائن في الفاصـلة وفي علامـة الاسـتفهام، وفي القوسـين، وفي التشـبيه الجميـل، وفي الإشـارات والمَرْجِعِيّات الحيَّة. كل هذا يشكل سدى ولحمـة "رسـالة في الطريـق إلى ثقافتنا"، حتى إننا لنخرج في نهاية المطاف ونحـن حيـارى: هـذا الكـلام الذي قد نكون قد قرأناه كحقائق مسلَّمٍ بها قبل ذلك، كيف أنه يَـرِدُ إلينـا على نحو جديد رشيد كأننا لم نسمع به من قبل، لا يوجد في هـذا الكتـاب شيء إلا وهو مُوَثَّقٌ، تاريخٌ مسلَّمٌ به، لكن انظر كيف وضـعه الأسـتاذ في هذا الإطار المعرفي النابض بالحيوية فكأنك تقرأ قصيدة جميلة، كأننـا نقـرأ ملحمة جميلة ، كأننا نعيش مرة أخرى في ضـوء (القـوس العـذراء) أو في ضوء (برنامج طبقـات فحـول الشـعراء) أو في ضـوء (المتنبـي)، يـتجلى الأستاذ واحدة واحدة، فكره واحد، وروحه واحـدة، ولسـانه واحـد، لم تبدِّ له الأيام ولا الليالي ولا المحن.

لا يُغَيِّرُهُ صَباحٌ عَنِ الْخُلُقِ الجَميلِ وَلا مَساء!

هل تحققت نبوءة الأستاذ؟

الذي يطالع الصحف اليومية ولا يُقِرُّ بأن نبوءة الأستاذ قد تحققت وبحذافيرها إنما يتنكر لعينيه وأذنيه، ما هذا الذى نعانيه من أمور الهيمنة بقوة السلاح وبفقدان العمق تحت مسميات تفرض علينا دون أن نشارك فيها بأدنى قدر من الاشتراك، ومع ذلك نجد من أبناء جلدتنا من يُزيِّن لنا هذا المستقبل ويغرينا بأن علينا أن نعيشه، ونحن لا نعلم من أين أتى، من الذي فرضه علينا، وقال لنا إن هذا هو شكل الحياة المستقبلة ونحن لم نشارك فيه بحرف واحد، والذنب ليس دائما ذنب الآخر، الآخر يريد مصلحته وأنا على استعداد لِتَقَبُّلِ وجهة نظره في أنه يريد أن يسود، سواء أكانت هذه السيادة مشروعة أو غير مشروعة، الآخر يريد أن يسود، لا تلمه، ولكن انظر إلى حالنا نحن! هذا الذي بثه الأستاذ شاكر في الرسالة بثا مُرًّا أليما واضحا جميلا. هل يعذر الناس في تقبل الهزيمة نفسيا وروحيا وفكريا وماديا، ويلقون بالعبء على الآخر؟ هذا أعجب ما في الرسالة، وأوضح ما في الرسالة، وأنا أعتقد أنها غضب على النفس يتزيا في بعض الأحيان بزي الغضب على الآخر. وقد تلبثني هذا في حياتي لدرجة أنني دائما أقول لطلابي ممن يغضبون على أساتذتهم أقول: نعم نعم، أنا ما جئت إلا لأُجَهِّل الناس وأعذب الطلاب، ما الذي فعله الطلاب ليقاوموني، ويعلموا أنفسهم؟ لقد استجابوا لضغوطي، وأوصلوني إلى تجهيلهم.

وإذن فأين يَكْمُن الذنب! قس الأمر على الشعوب وقد تسـلَّحت أوربة وبيتتْ بليل وعلى مدى طويل، وجـاءت بشيـء ظـاهره الرحمـة أو الخداع، وباطنه المصلحة الخاصة. ما الـذى فعلنـاه نحـن لنقـاوم- وأول سلاح المقاومة هو المعرفة- ما الذي فعلناه؟ دمَّرنا خيوط المعرفة، ووقفنا نلوم الآخر.

وأشهد أن هذه نبرة ترتفع باستمرار، ويقال لنا إن الفساد موجود في كل مكان وليس ببعيد ما قيل لنـا مـن أن الحـرب عـلى اللغـة العربيـة حرب خارجية ، وحرب داخليـة، وحـرب صـحفية، وحـرب صـليبية، وحرب ...، وحرب ... كل هذا قـد يكـون صـحيحا، ولكـن مـا الـذى فعلناه نحن لنقاوم هذه الحرب الشرسـة لخدمـة اللغـة العربيـة، لا شيء، وكل واحـد منـا يحـاول أن ينجـو مـن السـفينة الغارقـة و يُنْجـي أولاده ويعلمهم تعليم أجنبي وما أبرئ نفسيـ، لكـأن الأسـتاذ شـاكر يتحـدث اليوم!

هل ما نشهده صراع ثقافات أو حوار ثقافات ؟

أظن أن هذا الموضوع ينشأ بشكل طبيعي من (رسـالة في الطريـق إلى ثقافتنا)، أن تحاور لا بد أن يتوفر لـك الاسـتواء في المكانـة وفي المنـبر، المحاورة لا تكون إلا بين نِدَّين، مرحبا بالمحاورة، إن الثقافة العربية ثقافة متينة مبنية بناء متينا- ودعك مما فعلـه بهـا أبناؤهـا في العصرـ الحـديث- وهي جديرة بأن تُحاوَر، فأنـا لا أجـد أبـدا أي غضاضـة أن أنـاقش، وأن

أتحدث، وأن أشارك، وأن أتعاون، تحت مسـمّى حـوار الثقافـات، لكـن حوار الثقافات ما هو إلا شعار مرفوع، والحقيقـة أن الموجـود هـو صراع الثقافات، وأكثر من هذا، المفـروض هيمنـة الثقافـة الواحـدة عـلى بقيـة الثقافات، إن لم تكن بتسريب مـا يسـمى بـالمنهج- كـما أشـار الأسـتاذ- وجهود المستشرقين، فإنها بالحديد والنار، وليهلِك إذن مَن هلَك عن بيِّنة، ويحيا من حَيَّ عن بينة، والرحمة والغفران لمحمود شاكر!

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

كذلك يا أستاذنا، كلامك هذا ينبغي أن يُكتَـب بـالتبر لا بـالحبر، هذا كلام مهم جدا من أهم ما سمعناه لأستاذنا، هذه مصارحات تأتي في وقتها، عسى أن ننتفع كما قال الأستاذ "لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَـنْ بَيِّنَـةٍ وَيَحْيَـا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ".

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكولًا...!

وأُحب أن أستمع كذلك إلى شهادة أستاذنا الـدكتور عبـد المـنعم تليمة، واستنباطاته وتعليقاته، وهو مَنْ هو، وعلاقتـه معلومـة، وخبرتـه مطلوبة، ونحن جميعا الآن في حضرته، نتمنى أن نصغي إليـه، تفضـل يـا دكتور.

الأستاذ الدكتور عبد المنعم تليمة:

الأخوات والإخوة، كان شيخنا محمود شاكر إماما من أئمة هـذه الأمة في عصرها الحديث، و كان رائدا مكاسرا من رواد نهضـتها الراهنـة المتعثرة.

شكرا للدكتور صقر الذي وقع بالفعل على المحاور الأساسـية في هذه الرسالة الخالدة الباقية التي نشرـها الأسـتاذ في كُتيِّـب منـذ سـنوات طويلة، ثم أضاف إليها إضافات مضبوطة ووضعها في صدر هذه الطبعـة من كتاب "المتنبي"، فيما يقرب من مائة وخمسين صفحة، وهذا عمل قائم بنفسه، الرسالة عمل قائم بنفسه.

وسبقنا الأستاذ الجليل الدكتور الربيعي لشكر الأستاذة الكريمـة أم فهر على وجودها بيننا، وأُضـيف إلى شـكره شـكرا خاصـا للـزميلتين الكـريمتين الأسـتاذة الـدكتورة "زينـب صـالح" أسـتاذ علـم اللغـة، والأستاذة الدكتورة "ثريا الحسيني" أستاذ علم النقد الأدبي.

وبعد؛

فسأقف عند ثلاثة أمور أساسية يقـرب منهـا الراصـد والقـارئ المدقق والمحقق لهذه الرسالة:

الأمر الأول، مفهوم التراث.. مفهوم الثقافة، لو سألنا واحدا من الجيل المبكر، الجيل الأول للنهضة العربية الحديثة في القرنين التاسع عشر والعشرين- ما التراث يا أسـتاذنا؟ لَـرَدَّ علينـا بـأن الـتراث هـو الـتراث

الديني، تراثنا الفقهي الشرعي وتفاسير القرآن الكريم وعلوم الحديث... وما إلي ذلك، و لو رُحنا إلى جيل تلا مباشرة، وسألنا واحدا من جيل العقاد وطه حسين والحكيم... ومن إليهم من هذا الجيل التالي: ما التراث يا أستاذنا؟ لَثَبّتَ عيناه على التراث الأدبي، ووقف طويلا عند أصحاب المعلقات ما قبل الإسلام، ثم الثلاثة الكبار في القرن الأول الهجري الأخطل وجرير والفرزدق، ثم الثلاثة الكبار في القرن الثالث الهجري البحتري وأبو تمام وابن الرومي، ثم وقف في القرن الرابع عند المتنبي وحده، وفي القرن الخامس عند أبي العلاء وحده، وعرف عباس العقاد بابن الرومي، وعرف المازني ببشار... وهكذا. ولو سألنا جيلا ثالثا: ما التراث؟ لثبت عيناه على التراث الفلسفي ، نسأل زكي نجيب محمود: ما التراث يا أستاذنا؟ فيقول: فلاسفة الإسلام ، الكندي والفارابي والغزالي وابن سينا وابن رشد.

ولو سألنا شيخنا الراحل الجليل محمود شاكر: ما التراث يا مولانا؟ لوجدنا أنه يَضُمُّ العناصر الثلاثة التي سبقت، ثم يضم إليها بدائع العلماء العرب في علوم الجبر والهندسة والطبيعة... إلى آخره. تفتحت عينا شيخنا الراحل على التراث بمفهوم يشمل كل ما سقط إلينا وفي واعيتنا وحافظتنا من الإبداع العربي، وهو عندما يقول نتحدث عن ثقافتنا فإنها بهذا المفهوم الكبير، هذا الأمر الأول أو الخلاصة الأولى.

الخلاصة الثانية عن ثقافتنا الجديدة في العصر الحديث، الثقافة العربية في العصر الحديث في عصر ما نسميه النهضة، القرنين التاسع عشر والعشرين، القرنين الماضيين هو رائد من روادها، والرائد لا يكذب أهله، النهضة لديه القديم متجددا، فلا نقف عند القديم إلا بموقف نقدي تقويمي، فهو لا يسلم بالقديم دون إعمال العقل في هذا القديم ، ولا يسلم بالقديم تسليما نقليا ، وإنما يعمل موازاة رشيدة بين النقل والعقل. فماذا عن ثقافتنا الحالية؟ يقول: لا تثريب على أحد أن يتصل بأي ثقافة أو نهضة ، ولكن إذا كانت النهضة هي التجديد فإن النهضة في نفس الوقت هي اليقظة ، وَلْيَكُنِ الناهض يَقِظًا في ما تصنعه دوائر سياسية طامعة، ولديها إرادة الهيمنة والمحاصرة والمصادرة ، فلتكن النهضة يقظة أي أن تأخذ وتعطي ، أن تحمي وتصون في نقس الوقت و كنا نجلس في مجلسه فيقول: نعم، تفضل، لا مانع أبدا أن تقول أنا و الآخر مقولة فاسدة، لماذا؟ لأن من دواعي الأشياء أن أكون في الآخر و الآخر فيَّ، وأن أكون مع الآخر والآخر معي، لكن كما يقول شعبنا ببساطة في العامية" حَرَّصْ مِنُّه وَلَا تْخَوِّنْشْ".

ماذا يقول عن الموقف التاريخي اليوم؟ يقال في علم البديع الموقف اليوم يعني الموقف التاريخي، الذي يرصد ويؤرخ يجد أن العسكريين العرب في العصر الحديث عجزوا عن تحقيق نصر ملموس، يجد أن الاقتصاديين العرب عجزوا عن إقامة السوق العربية المشتركة،

يجد أن الساسة عجزوا عن إقامة الوحدة، لكنّ المثقفين من بين هذه الطوائف الطبيعية للأمة لم يعجزوا، وإنما تعثروا، وعُوقّوا، الكادر الثقافي موجود، الأعضاء موجودة لكنها مشلولة مقيَّدة ومحاصرة، احتكرت الحكومات إدارة الكادر الثقافي، والثقافة لا تنتجها أجهزة الثقافة وإنما ينتجها المثقفون، والكتابة لا تنتجها المكاتب وإنما ينتجها الكتّاب، فأين هؤلاء المثقفون والكتاب ، إنهم محاصَرون، معوَّقون، مصادَرون، ومَصارِعُ الطَّلائعِ العربيةِ في العصر الحديث في جملتها و في أغلبيتها من المثقفين، نادرا نجد خارج الدائرة الثقافية من أُعْدِمَ، أو فُصِلَ من عمله، أو هُجِّر، أو نُفي... إلى آخره ، كل هذه المصائب في ساحة الثقافة، هي بالفعل العين التي تكشف، وهي العقل الذي يقوِّم، وهي اليد التي تبطش.

وسأذكر لكم بسرعة موجزا، منذ ثلاثين عام، بالتحديد سنة ٧٦ تَنادى المثقفون المصريون إلى تأسيس أول اتحاد للكتاب في مصر، و أجريت الانتخابات في يناير سنة ٧٦ ، دخلت إلى مقر لجان الانتخاب ، ولمحت في زاوية من الحديقة خمسة من روادنا الكبار: الشيخ محمود شاكر ويحيى حقي ونجيب محفوظ وحسين فوزي وتوفيق الحكيم ، تجرأت على أن أذهب إليهم ، وأحييهم ، فناداني الشيخ شاكر، قال: جئت لأنتخبك. فقلت: يا أستاذ! أنا لا أصدق، قال لي: الخلاف الفكري معك واسع جدا وشاسع، لكننا بصدد تأسيس نقابة لكل الكتّاب المصريين والمثقفين

المصريين، للجميع بجميع أفكارهم وبكل تياراتهم ، وبكل مدارسهم ، هذا الأمر الجلل فيه شرطان يتفقان فيك أنت شاب نشط و هذا العمل يحتاج إلى نشط ، ثم الأمر الثاني أنك فعلا بيننا ترفع راية -وبصدق- الراية التوحيدية أو العمل مع الآخر مهما تكن الخلافات شاسعة بيننا، ولذلك أنا تحدثت مع توفيق بك ويحيى بك ونجيب بك أن نأتي حريصين على انتخابات أول مجلس لأول اتحاد للكتاب المصريين يكون اتحادا اتحاديا محاورا شابا يقظا مدافعا. فكان شيخنا مع العمل المحاور، العمل العقلي وضد احتكار السلطات بشأن الثقافة، لأن الثقافة للمثقفين والكتاب للكتاب وليس للأجهزة.

رحم الله شيخنا الجليل، علمنا الكثير ومضينا على دربه، ونرجو للجميع من الأجيال الجديدة أن تلمح ما هو مضيء في تراثنا الجديد والقديم. شكرا.

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

شكر الله لك يا أستاذنا ، وقد حاول أستاذنا أن يضيء الجانب الآخر.. كلمة الآخر، قيمة الآخر، بعد أن تمسك أستاذنا الدكتور محمود الربيعي بإضاءة جانبنا، جانب الأنا ، هذا الذي كاد يتهاوى ، وبلا ريب لا نرى الآخر حتى نرى أنفسنا ، ربما قال أستاذنا الدكتور عبد المنعم لا نرى أنفسنا حتى نرى الآخر، فتُرى كيف سيقول أستاذنا الدكتور محمد حماسة في هذا الأمر؟

أعرف أن بين أيدينا عائلة أستاذنا الكريم ، هذه أصلا نحـن بـين أيديها ، نحن سنفضي إليها ، سنترك لها الأمر كما تشاء لتختم ، لتقـول لنـا حقيقة ما كان ، نحن نتكلم عن أستاذنا بالظن، والظن كما تعلم!

الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف:

بسم الله الرحمن الرحيم ، في الحقيقة لا أريد أن أكرر التحية- وإن كانت واجبة-لأسرة راحلنا العظيم محمود شاكر، لأنهم منا و نحن منهم، ليسوا بعيدين عنا ولسنا بعيدين عنهم، وإنما أريد أن أقول إننـي شخصـيا عندما يُتوفى أحد ممن أحب أو أعرف أجد أن عقلي تلقائيا بعد فترة زمنيـة معينة يقوم بنقل هذا الحبيب أو هذا الشخص- أيـا مـا كـان- مـن خانـة الأحياء إلى خانة الأموات في داخلي ، ولكـن مـع الأسـتاذ محمـود شـاكر أجده لم ينتقل قط حتى هذه اللحظة من خانة الأحياء ، فهو ما يزال حيا في عقلي وما يزال ماثلا أمام عيني ، فإذا اشتقت إليه وأردت أن أتحدث معـه ما علي إلا أن أَمُدَّ يدي إلى أحد الكتب التي تركها لنا، فعنـدما تقـرأ شـيئا من كلامه تُحِسُّ حقيقة أنه يكلمك ويخاطبك وجها لوجه، ولا تحس أنـك تقرأ كلاما لراحل من الراحلين أو غائب من الغائبين.

ولهذا فإن كلامه المكتوب دائما لا يغني الحديث عنه، وإنـما لا بـد أن تقرأه، ولا بد أن تعيش معه، لأنه قد كوَّن لنفسـه منهجـا خاصـا وقـد وصف هذا المنهم في سرعة في الكتاب الذي بين أيدينا "رسالة في الطريـق إلى ثقافتنا"- وصف منهجه بأنه منهج التذوق، ولكنه قال ضمن ما قـال:

ليست هذه كلمة عابرة يتشدق بها بعض المتشدقين، أو يقولها من لا يدركها، ولكنه شرح هذا المنهج، لأن ما بدأه من خلال الشعر، بدأ يقرأ الشعر القديم كلمة كلمة، ويعالج كل كلمة من الكلمات، ويحاول أن يتعرفها، وأن يدرك أبعادها؛ حتى يكون له منهج خاص في تذوق الشعر، وقال بعد ذلك إنه عمم هذا المنهج بعد ذلك على غير الشعر، فأصبحت هذه طريقته، وأصبح هذا أسلوبه، وهو في هذا ينسج دائما بين ذاته والموضوع الذي يتحدث فيه فلا ينفك عنه، ولا يخرج منه.

كنت رتبت فيما بيني وبين نفسي أن أتحدث عن عنوان الكتاب الذى بين أيدينا، ولكن الأستاذ الدكتور محمود الربيعي سبقني إلى الحديث عن العنوان نفسه، ولكنه مع هذا يحتاج إلى فضل بيان وإلى زاوية أخرى من الزوايا التي تضيء هذا الجانب المهم، فأنا أرى أن هذا العنوان على وجازته وقصره يحمل فكر محمود شاكر كاملا غير منقوص، فيه الاعتداد بالنفس، الاعتداد بالذات إلى حد بعيد جدا، فيه الأنا والثقة بالمستقبل، فيه الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع، ولذلك إذا نظرنا في هذا العنوان نفسه (رسالة) – وقد أفاض الدكتور محمود الربيعي في هذه الكلمة، وفي دلالتها الروحية – الرسالة تقتضي مرسِلا ومرسَلا إليه وجسم الرسالة، المرسِل والرسول هو محمود شاكر نفسه، فهو المرسل، وتجد أنه هو الذي سيطر على المجال الذي يتحدث عنه سيطرة كاملة، فتراث العربية وثقافة الأمة – وهذه الكلمة حبيبة إلى نفسه جدا "الأمة"

– ثقافة الأمة وتراثها شيء امتزج بـه، وعايشـه، وأحسـه، وآمـن بـه كـل الإيمان، كان الرسول – صلى الله عليه وسلم!– في بعض المواقـف يقـول: أشهد أني رسول الله، فلا بد من الإيمان القاطع الذي لا يتزعزع بالرسالة، ولقد كان محمود شاكر– رحمـه الله !– مـن أشـد المـؤمنين بالأمـة العربيـة وبثقافتها وبتراثها، ولذلك نذر حياته كلها للـدفاع عنهـا وللتبشـير بهـا، وللعمل من أجلها.

هذه الرسالة في الطريق نجد كلمة (رسالة) منكَّرة، فهي لا تعـدو أن تكون رسالة من الرسائل الكثيرة التي يحملها، وكلها تتعلق بهذه الأمة وبتراث هذه الأمة، وهذه الرسائل تعددت في كل ما كتـب، ولكـن هـذه الرسالة في (الطريق) بالتعريف، فالطريق واضح مُتْلَئِبٌّ لا اعوجـاج فيـه ولا التواء، فهو طريق معروف،(الطريق) الذي لا طريق سواه، ومن هنـا جاءت كلمة (الطريق) بالتعريف، فهو طريق واحد، ليسـت هنـاك طـرق أخرى، هذا الطريق هو الذي يؤدي إلى ثقافتنا، أنا يعجبني جدا أن يقـول (في الطريق إلي ثقافتنا)؛ عندما جاءت كلمـة (ثقافتنـا) كـما قـال الـدكتور محمود أضافها إلى ضمير المتكلمين، فهو مؤمن بالأمة، ثقافتنا جميعا، نحن هذه الأمة، وهذه الرسالة في الطريق إلى ثقافتنا توحي أيضا بأننـا لابـد أن نصل، وسوف نصل في يوم ما إذا أخذنا بالأسباب التي دعا إليها في هـذه الرسالة "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" هذا العنوان يلخص الأستاذ محمود شاكر تلخيصا كاملا، إيمانٌ لا يتزعزع، عقيدةٌ راسخةٌ لا تحيد، أمـلٌ كبـيرٌ

في المستقبل مع رغبةٍ أكيدةٍ في التغيير، وهو يؤمن بهذا كلـه، ويـدعو إليـه، ويعمل من أجله.

عندما نقرأ هذا الكتـاب الصـغير الحجـم الكبـير القـدر تسـتثير نفوسنا، ونقف على أشياء لم نكن نتبينها بوضوح شديد، هو يدرك إدراكـا كاملا، ويقدم الدليل على كـل مـا يقـول عـلى أن هـذه الأمـة الإسـلامية تعرضت لمؤامرات من زمن بعيد، وهو يكشف لنا بكـل الوثـائق المتاحـة والمقنعة في الوقت نفسه هـذه المـؤامرة، وكيـف تآلَبَـتْ خيوطهـا وكيـف تجمعت من أجل أن تؤدي غايتها المنشودة لـديهم، ولقـد أشـار الـدكتور محمود الربيعي إلي أن هذه النبوءة تحققـت عنـدما أخـذوا سـبيل الثقافـة، والعدوان على هـذه الثقافـة، والنخـر في بنائهـا وبنيانهـا، لم يسـتطيعوا أن يحققوا غرضهم، فاسـتطاعوا بعـد ذلـك أن يحققـوه بقـوة السـلاح، لأن الإيمان بهذه الثقافة هو الذي يعصمها وهو الذي يحميها، وعلينـا دائـما أن نؤمن بهـا وأن نجعلهـا هـدفنا مـن أجـل تقويتهـا، ومـن أجـل إضـاءتها والتمسك بها، لأن هذا هو – في الواقـع – الـذي سـيحمينا مـن عـدوان المعتدين، علينا أن نستفيد بهذه الدعوة، وأن نؤمن بهذه الرسالة.

قلت إن لغةَ رسالة محمـود شـاكر لغـةٌ تمتـزج بـذات نفسـه، ولا يمكن أن نقرأ كلمة له إلا إذا كان عارفـا معرفـة كاملـة بكـل أبعـاد هـذه الكلمة، أحيانا يضع كلمة غريبة على المتلقي ويحرص على أن يشرـح هـذه الكلمة، فإذا سألت: لماذا لم يضع هذه الكلمة الواضـحة التـي يشرـح بهـا

مكان الكلمة التي يختارها؟ لغرض في نفسه، هو يريد أن يحيي هذه اللغة، يريد أن يحيي كل ما يتعلق بهذه اللغة، كلمات هذه اللغة هي التي تحمل فكر هذه الأمة وفكر هذه اللغة، ولذلك يريد أن يحيي هذه الكلمات وأن يجعلها دائما أمام المتلقين، يضع الكلمة الغريبة ليشرحها، لكي يضع الكلمتين معا في سياق واحد وفي مجال واحد، من أجل أن يحيي هذه الكلمات، فعندما كنت أشاغبه أحيانا: لماذا لا تضع هذه الكلمة؟ فيقول: لماذا نتركها، أليست هذه الكلمة من تراثنا، أليست من لغتنا، فإذا تركناها مدة طويلة سوف تموت، هل تريد أن تموت لغتنا! ويغضب غضبته الشهيرة المعروفة التي كانت محببة إلينا دائما.

أنا لا أوصي بأن نظل نتحدث عن محمود شاكر، أوصي بأن نقرأ محمود شاكر، لابد أن نقرأ محمود شاكر، لأن قراءته سوف تثيرنا وسوف ترسم أمامنا الطريق ، وسوف تضعنا على المنهج القويم الذي يمكن أن يؤدي بنا إلى الغاية التي يرجوها.

وأنا في هذه الحالة، وليسمح لي الأخ العزيز الدكتور فهر، أريد أن أحمله أمانة هذا التراث العظيم الذي تركه الوالد الكريم؛ لأنه في الحقيقة من الصلب، ولكن هناك أبناء كثيرين للأستاذ محمود شاكر، وكلهم يتعاون من أجل هذه الغاية، ولكن على فهر وحده أن يراعي تراث أبيه؛ لأن هناك آباء ماتوا منذ أكثر من خمسين سنة ومازال أبناؤهم يحرصون على أن يجلوا تراث آبائهم، ويقدموه في كل فترة وفي كل مناسبة، أنا أوصي

الدكتور فهر أن يحرص على هذا التراث العظيم، وسوف يظل هذا التراث باقيا خالدا، لأنه – كما قلت – هناك أبناء كثيرون للأستاذ الراحل العظيم محمود شاكر، وهم يتعاونون مع فهر في هذه المهمة، ونحن جميعا ينبغي أن نتعاون من أجل هذا، لأن هذا هو مستقبلنا، ومستقبل أمتنا، وسوف يظل بيننا دائما محمود شاكر بشموخه العظيم وبرسالته الخالدة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

ربما بدتْ سقطة أن لم نحي أُمَّنا أَمَّ فهر في أول اللقاء، لكنها ربما كانت قدرية مقصودة؛ لتدل على ملامح عقوقنا المستمر لها، ولحمُ أكتافنا من خيرها، وتكره من يقول آمين!

فنحن الآن بين أيدي هذه العائلة الطيبة المباركة، بينها، لها أن تحدثنا بما ترى من حقائق تناسب هذا المقام، أمامها ونحن بين أيدي أستاذنا عبد الرحمن شاكر الأديب الخطيب السياسي البارع العجيب الشأن الكثير الصمت نتمنى أن يكلمنا، وألا يبخل علينا بتعليقاته ، والأمر بينه وبين فهر كما يشاء ، يقول له: يا فهر –مثلا– أنت لم تكن قد ولدت عندما فعل هذا ، فيقول له: لا لا، أنا شهدت هذا، وكنت جالسا في...،فالأمر بينهما، تفضل يا أستاذنا.

الأستاذ عبد الرحمن شاكر:

بسم الله الرحمن الرحيم ، أيها السادة ، كنت أتمنى أن أستجيب لما يطلبه مني الدكتور صقر من الكلام عن بعض شؤون الأستاذ محمود وصلته بالآخرين، ولكنّ أمرًا أَجَلَّ من هذا بكثير، حذر منه الأستاذ بما كتب، وبما فعل، وبما علم، حذر من أن تصل الأمة العربية الإسلامية إلى حالة الاستئصال على يد العدو الغادر.

أيها السادة لقد دخلنا هذه المرحلة بالفعل، والذي يدور الآن في العالم العربي والإسلامي من الشرق من أول أفغانستان، إلى العراق، إلى إيران المهددة بالسقوط في ذات الهاوية، إلى فلسطين، إلى سوريا، إلى لبنان، إلي دارفور، إلى مجموع السودان، إلى الصومال، إلى المذابح التي حدثت من جديد، إلى المغرب الأقصى، إلى الجزائر، هذه الفتن الدائرة كلها.. إلى ما يحدث في أرض مصر، نجد أنفسنا أمام خطر لم تواجهه الأمة من قبل، وما تزال عاجزة عن مواجهته، المهاجمون: الحضارة الغربية المسحية اليهودية في عصرها الأمريكي الصهيوني، جاءت لتبدل هذه الأرض، وتخرج منها أهلها، أو تقتلهم، أو تقضي على هويتهم؛ لكي تزرع بدلا منها شيئا جديدا، لكي لا يكون هناك ما يسمي بالعالم العربي، ولا بالعالم الإسلامي، ولا بالعروبة، ولا بالإسلام، لكي يكون البديل في هذه المنطقة شيء اسمه (إسرائيل) حيث ينضوي تحت هذا الاسم الذي هو اسم مقدس عندنا؛ هو اسم أحد أنبياء الله، ولكن من الذين يحملونه الآن !

شذاذ الآفاق الذين أقاموا دولة في فلسطين منذ خمسين عاما أو يزيد تحت هذا الاسم، من هم؟ عباد فارس، وفارس عندهم- ولا مؤاخذة- تعني عضو التذكير، لماذا كانوا يعبدون هذا العضو؟ لأنه مصدر وجودهم في صورته البدائية الذي ينتج الجنس الأبيض الذي يتكاثر كالنمل الأبيض، يأكل الأخضر واليابس، وفريسته الكبرى هي منطقتنا العربية.

كل من يريد الآن من شذاذ الآفاق أن يقول أنه إسرائيلي، ومستعد أن يهاجر إلى إسرائيل، وأن يعمل في جيشها؛ ليستأصل العرب والمسلمين- هم يقبلونه، ويرحبون به هنديا كان أم زنجيا، فضلا عن أجناسهم البيضاء، جيش من المرتزقة، جيش له دولة، وليست دولة بالمعنى الحقيقي لشعب حقيقي، ولكنها العصابة الكبرى في العالم، ووراءها من؟ الذروة الكبرى للحضارة الغربية التي قامت بالولايات المتحدة أكبر قوة ضاربة في التاريخ من جميع النواحي، من النواحي العسكرية والاقتصادية والعلمية، غزاة القمر والمريخ، ومبيدي اليابانيين بالقنبلة النووية، هذا الكيان الفظيع الذي يغتصب العالم الآن، يغتصبه في كل مكان، أسقَطوا أكبر إمبراطورية تحدَّتهم وهي الإمبراطورية الروسية، وبقوا وحدهم كما تبقى الكارثة، الكارثة التي تهدد .. ليست بلادنا وحدها؛ لحسن الحظ أن الخطر لا يشملنا وحدنا، وإنما هناك المسألة الكونية التي تهدد العالم، الكرة الأرضية في الضياع لسوء استخدامهم للطاقة التي يسرقونها من بلادنا، ما تقرؤون عنه من التلوث البيئي وثقب

الأوزون والأخطار الكونية. ولكن دعونا نعـود إلى حـديث السياسـة مـا الذي يجري فى منطقتنا، فلسطين، فلسطين، تعلمون فلسطين! أوصلوا الفلسطينيين إلى حالة التقاتل فيما بينهم، فضـلا عـن التجويـع، فضـلا عـن المهجـرين الذين يُنكِرون عليهم حق العودة، أجبروا حكوماتنا العربية العاجزة عـلى أن تركع جميعا تحت أقـدامهم، تتسـول مـنهم السـلام، تتسـول مـنهم أن يجلسوا معها للتفاوض، بعد أن كنا نحن الذين نرفض التفاوض في بدايـة معاركنا في الزمن الذي غَبَر، عندما بدأ قيام دولتهم لا أقول دولتهم هـذه تقف من ورائها الولايات المتحدة الأمريكية بكـل جبروتهـا وقسـم كبـير جدا من أوربا يريدون أن يستأصلوا شعوب هـذه المنطقـة، يمحوهـا مـن على وجه الأرض إذا استطاعوا بالإبادة الجماعية، كـما يحـدث في العـراق، العراق الآن يذبحُ بعضه بعضا ويذبحـه معهـم الأمريكـان والأسـتراليين والكنديين والهولنديين وكل من جاء في ركاب قـوات التحـالف الـدولي، وكـذلك الحـال في أفغانسـان، وكـذلك الحـال في الصـومال، وقيـل إن الصومال مقصود بالذات لأنه طليعة الأَسْلَمَة في القارة الأفريقية، جنوب الصحراء مدخل الإسلام، وما يزال العلماء الذين يعَلِّمون الأفارقة الذين اختاروا أن يكونوا مسلمين معظمهم يكونون من الصومال.

ونقرأ خبرا في الصحف يقول: اللغة العربية مَقْضيٌّ عليها بالفنـاء بعد خمسين عاما ، نقرأ هذا الكلام في صحيفة الأهرام، لأن الذين يَلْهـون بمستقبل بلادهم هنا يفرحون بأن أبناءهم ترطن الإنجليزية أو الفرنسية،

وقد كثرت مدارس كل هذه الأمم لدينا، جامعة فرنسية، وجامعة أمريكية، وجامعة روسية، وجامعة ألمانية، والبقية تأتي، وهم يفرحون بأن أبناءهم يرطنون الكلمات الإنجليزية.

مرة سألت طالبا: كم عمرك؟ قال: كذا، كم عمر أخيك؟ قال: كذا- هذا بالعربية- قلت له: ما الفرق بينكما في السن؟ فقال: لا أعلم، لأني لم أتعلم هذا!

هذا مثال بسيط أذكره لكن الأمر أن المسئولين في أجهزة الدولة في جميع الدول في الواقع يقبلون المستشارين القادمين من أمريكا وأوروبا لكي ينفذوا المخططات الخاصة بهم فيما يتعلق بتعليم لغتنا، وهذا ما حذر منه الأستاذ محمود شاكر.

أيها السادة من أساتذة اللغة العربية وطلبة العلوم العربية في الجامعات المصرية وأساتذة أجيال المستقبل ، أنتم الكتيبة الضاربة الأولى في جيش الدفاع عن هذه الأمة!

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

مدام سامية ابنة أخت الأستاذ عبد الرحمن تريد أن تكمل رأيه في هذا بتعقيب مهم.

الأستاذة سامية:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا لي تعقيب صغير على كلمة الأستاذ عبد الرحمن شاكر؛ جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر التي

عكف عليها تلميذه المخلص الدكتور عادل سليمان، وجمعها في كتاب واحد- حذر فيها مما يحدث الآن من أطماع أمريكا في بترول الخليج، وخطتها في التعاون مع إسرائيل على تقسيم السودان، حذر من هذا الكلام في مقال بعنوان "هذه بلادنا" مكتوب عام ١٩٣٩ فلنا أن ندرك بصيرة هذا الرجل – رحمه الله!- شكرا.

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

تقدم أستاذنا الأستاذ الأديب عبد الرحمن شاكر، أو قدم لكلمته بأنها بعيدة قليلا عما تمنيناه منه، لا، هذا الذي كنا نتمناه أصلا، وقد حصلنا عليه، بارك الله فيكم.

وندعوكم إلى قراءة كتب أستاذنا الأستاذ عبد الرحمن شاكر المختلفة، فهو من هذه العائلة من هذه الشجرة الكريمة.

وأنا أفتح الكلام لأخي الدكتور فهر بسؤال عن آخر ترتيباته بخصوص أعمال أبيه مثلا، تفضل دكتور فهر محمود محمد شاكر.

الأستاذ الدكتور فهر محمود محمد شاكر:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أولا – أشكر دار العلوم وهي بيتي الأول والثاني، والدكتور محمود الربيعي و إن كان له عتاب على الدكتور صقر، وطبعا الدكتور محمد حماسة.

ثانيا – آخر ما ننشره -إن شاء الله- الرسالة، طُبعت طبعة جديدة في مكتبة الخانجي كاملة ، كما هي ، كما نشرها بنشرة دار الهلال، والآن نُعِدُّ الجزء الثالث من أشعار الأستاذ محمود شاكر التي كتبها في عام ١٩٢٨ وهي كانت مخطوطة، ولم تنشر قبل ذاك، كتبت ما بين عامي ٢٨و ٢٩ تصل إلى حوالي مائتين أو مائتين وخمسين صفحة .

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

وديوان البغضاء؟

الأستاذ الدكتور فهر محمود محمد شاكر:

ديوان البغضاء غير موجود أو لم يكتبه الأستاذ...، لا أعرف، أو اسأل الأستاذ عبد الرحمن؛ لأنه أعلم مني بذلك.

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

ألم أقل لك!

الأستاذ عبد الرحمن شاكر:

يبدو أنه كتب هذا العنوان في حالة انفعال ما ثم ذهبت هذه الحالة، وبالتالي لم يصدر ديوان كامل بعنوان ديوان البغضاء، ليس أخلق بالأستاذ محمود أن يكون له ديوان بهذا العنوان؛ فقد أحب هذه الأمة.

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

نحن لا نكتفي بأن نرحب بالدكتور كشك عميدنا الكريم الكبير، و الدكتور درويش أستاذنا و وكيلنا، لا نكتفي بهذا، نحن نريد أن

نسمع تعليقا و تعقيبا كما عودنا الدكتور كشك، و أنتم لا تعرفون علاقتـه بهذه الأسرة..

الأستاذ الدكتور محمد حماسة:

لأجل هذا فقط قدمت الدكتور فهر، ليقول كلمة ويمشي!

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

أنا وصلت إلى ما أريد من الخلافات التي تشير إلى الزمان الأول، إلى ما قبل ميلاده، فرجعنا إلى مـا قبـل مـيلاده، أكمـل، يـا دكتـور فهـر، سامحني!

الدكتور فهر محمود محمد شاكر:

طبعا أشكر أستاذي الكريمين الدكتور حماسة والدكتور الربيعـي لما قالا في تفصيل الرسالة ، لكن أيضا أردت أن أعقب تعقيبا صـغيرا: أن هذه الرسالة كُتبت كما قال هو في أولها أنها مقدمة لكتاب "المتنبي" ، وأنـه عندما كتب "المتنبي" في عام ١٩٣٦ ثم غاب عنه أو غيَّـب هـذا الكتـاب نفسه وطبعه في عام ١٩٦٧ طبعة أولى- كتب مقدمة أسماها لمحة من فساد حياتنا وأظن أنه بعد في الثمانينيات عندما طبع الكتاب طبعة ثالثة- لم يجـد أن هذه لمحة قد تجاوزت الحد، والمقدمة الأولى التي كتب فيها قصـة هـذا الكتاب وكيف نُشر هذا الكتـاب، وعنـدما جـاء في الثمانينيـات وجـد أن الأمر تجاوز الحد، وأن هذه اللمحة لا تكفي فوجَّـه رسـالة سـبقت هـذه

اللمحة، ليكتمل الطرفان اللمحة والرسالة، والرسالة في بيان حـال هـذه الثقافة أو حال هذه الأمة.

وأظن أن هـذه الرسـالة جاءتـه بفكـرة عنـدما كتـب مقـالتين في "الهلال" عندما كان الأستاذ مصطفى أمين رئيسـا لـدار الهـلال في ذلـك الوقت، وهي عن الشيخ الجبرتي الكبـير وعـن بـدايات حركـة النهضـة، فاستوحى من هاتين المقالتين بعد أن رأى ما رأى من حـال هـذه الأمـة – كلمته في هذه الرسالة، وأعاد تهذيبها وتقديمها، وألمح سريعا إلى الخمسـة الكبار على الرغم من أنه قدم هؤلاء الخمسة في هاتين المقالتين المشار إليهما

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

دكتور فهر اقتصرـ في كلامـه وتفصـيله عـلى شـؤون "رسـالة في الطريق إلى ثقافتنا"، لكن الكلام كثير والمشكلات تتوالى كل يوم .

لن نستغني عن تعليق أستاذنا الدكتور أحمد كشـك، ولـه علاقـة قديمة كذلك بأستاذ المدرسة وبتلامذتها، نعرفها، ولكن نترك له أن يتكلم عنها.

الأستاذ الدكتور أحمد كشك:

أنا سعيد جدا بإدخالي في حَوْمَةِ الْوَغى كما يقال، لأنني كنت أريد أن أقدّم عذرا خاصا، كان من المفروض أن أكون موجودا قبل وجود هذه المكرمة القائمة لدينا الآن، لكـن لظـروف مـا يعلـم أمرهـا المـولى -عـز، وجل!- ضاق بي الوقت أن آتي في بداية هذا اللقاء، فلـتكن هـذه الكلمـة

تَقْدِمَةَ اعتذار لهذه المِنَصَّة الكريمة التي أفـدتُ منهـا وسـوف أفيـد، أولا لأنها تعيش حول رسالة كبرى لعلم كبير، أنا فعلا اكتُشـفت أواصر هـذه الرسالة الغيبية من الداخل من خلال هذه الأحاديث المركزة الكامنة لدي الآن.

الشيخ شـاكر وأسـميه الشـيخ شـاكر وأسـمي أمـره "رسـالة في الطريق إلى ثقافتنا" بالمتنبي، يكاد يكون العَلَـم متفـق مـع العِلْـم، الوعـاء واحد، إذا ما قرأنا هذه الرسالة بوجهة قد تكون من الثقافـة العامـة لكـن فيها من البث الأكاديمي ما فيها، إذا قرأها صاحب منهج يريد أن يصـوغ منها شيئا ليرجع إليه ففيها من البـث المنهجـي مـا فيهـا، فيهـا مـن البـث الإبداعي إذا أراد قارئ أن يستمتع بإبداع مكتوب فهذه الرسالة وكل مـا كتب الأستاذ الكبير المرحوم الشيخ محمود شاكر فيه هذا الأمر الإبداعي، كذلك فيها من البث الاستنهاضي، وهذا هو الدور الذي أرى أن الشـيخ شاكر وعى أمره وهو يعالج صورة شعرية عند المتنبي، وهو يحقـق أواصر مخطوط من المخطوطات، هدفه الاسـتنهاض والحـرص عـلى ثقافـة أمـة تتمايل الآن وتنكسر أعوادها، وهو حزين يريد أن يستنهضها في يـوم مـن الأيام، وسوف تُستنهَض هذه الأمة بإذن الله-سبحانه، وتعـالى!- مـا دام الشيخ الكبير الحي كما قال الدكتور حماسة، دائما أمامنا، مـا دام دوره قـائما موجودا، وما دامـت الرسـالة موصـولة بعنقـه، رحمـه الله رحمـة واسـعة،

وأجزل الثواب والعطاء لأسرته الكريمة، ولكل من يحيي أمرا مـن أمـور هذا العَلَم المُفْرَد الكبير الشيخ محمود شاكر. شكرا لكم، والسلام عليكم.

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

أسـتاذنا الـدكتور درويـش، لا نسـتغني كـذلك عـن تعلـيقكم وتوجيهكم واستنباطاتكم، فليتفضل.

الأستاذ الدكتور أحمد درويش:

في الواقع أنني جئت متأخرا، لأنني كنت أشترك في الظروف التي قال الدكتور كشك إن المولى يعلمها، وأنـا أعلـم جـزءا منهـا، اجتماعـات اضطرتنا أن لا نحضر، وكان لدي محاضرة انتهت الآن. ومـن ثـم ، ففـي الوقت الذي أحرص فيه على أن أشترك في الترحيب بهذه القيمـة الثقافيـة الكبرى أعتذر عن كلمة جاءت متأخرة.

لكنني فقط أستطيع في هذا الموقف أن أتحدث عن مفهـوم الرمـز الحي للشخصية، وأقول: إنه منذ أكثر من خمسة وأربعين عاما حدث هذا، الدكتور حماسة وأنا والدكتور حامد طاهر تلاميذ للشيخ السيد أحمد صقر في الأزهر، في بداية المرحلة الثانوية، والشيخ صقر يعد تلاميذه الذين يظن فيهم خيرا بأن أفضل مكافأة تُقَدَّم لهم، إن هم واصلوا العمل عاما كـاملا في قراءاتهم الثقافية – أن يحج بهم إلى بيت الشيخ شاكر عصر يوم جمعة قد يجيء بعد شهور طويلة، ونستعد طـوال العـام لـذلك الحفـل الـذي بـدأ

صباحا بزيارة العقاد ومساء بزيارة الشيخ شاكر، لم يكن الدكتور صقر قد وصل إلى عالمنا من قبل، كان الحديث عنه مشروعا مستقبليا!

وعندما سعينا نحن الصبية الصغار في ذلك الوقت، إلى هذه المكتبة الواسعة وهذا المكان العظيم، ونحن نكاد نرى أنفسنا ننظر إلى الأهرامات الشوامخ، فلا تكاد عيوننا تصل إلى القمة، نرى الشيخ شاكر في مجلسه وحوله من أعلام العصر الذين أتذكرهم الآن، الذى يكفي أن تنبهر به انبهارا عظيما، وماتزال مخيلة الصبية الصغار تحتفظ بشيء مذهل، وكأن السيد صقر- رحمه الله!- أراد أن يُطلعنا على النماذج الحية الباقية، كيف يكون العلم حيا، يسألُ الناسُ عن أمر من الأمور، ويدخل الشيخ شاكر- رحمه الله!- في الحوار ثم يقول: أظن أن هذه الأمر أشار له أبو الفرج.. ربما في الجزء الثاني عشر.. إذا لم تخني الذاكرة في نحو صفحة مائة وعشرين وما حولها، وإذا به يسحب كتابا، فيكون له كما قال! ويستمر هذا ونحن قبل عصر الإنترنت والاستدعاءات ننبهر من ذاكرة حية، لكن نفهم من هذا أن يكون التراث حيا، وان يكون التراث رجلاً، وأن يظل هذا المفهوم الذي أعطانا نموذجا للطموح، وأعطانا ربما من انفتاح الآمال ما تُقَصِّر عن إعطائه خمسون كتابا ومائة كتاب.

هذه الزيارة وحدها تفتح الباب لكيف ترى تراثا حيا، والتراث لا يحيا إلا في نفوس الرجال، وفي مثل هذه الحالة ليس العدد مهما أن

يكون المتحمسون لقضية ثلاثة أو أربعة لكن فيهم هذا النمط من الحياة خيراً من أن يكون المتحمسون ألفا يختارون شيئا، ويتحدثون عنه .

ظل شاكر يمثل في نفوسنا هذا الرمز؛ أن تؤمن بالقضية إلى آخر مدى، وأن تحولها ما استطعت إلى شيء حي في نفس قارئك ومتلقيك وتابعك ومحاورك، جاءتنا هذه الصدمة أيضاً وذلك الانبهار الذي رأيته وأنا أقرأ مقدمة تحقيق طبقات فحول الشعراء، وأقول ما الذي ينقصنا نحن في المواد النظرية عندما نتقاعس ونظن أن معرفتنا لا تتصل بالمناهج الحديثة، ماذا يفعل عالم الآثار عندما يعيد بناء مدينة لم يبق من علائمها إلا شيء واحد، وماذا يصنع عالم الجيولوجيا عندما يتابع حفرياته لكي يستدل بالقليل الموجود على الغائب الكثير، ذلك الذي يصنعه شاكر وهو يقرأ مخطوطة جاءت من تركيا، وتمزقت، وضاعت، ووجدت، وكشفت بالمصادفة، أبان العلائم، وقرأ التوقيع، ما الذي يبعثه من مفهوم المنهج الحي في نفوس آلاف الطلاب الذين يجعلون هذ التراث حيا بينهم، حتى في الإبداع وحتى في المعارك الحادة كان مفهوم الحدة معناه – فيما أظن– أن هناك إيمانا قويا بالقضية، وذلك الذي يهز أركان صحافة بأكملها بأشياء تستدعي أن تلغى صحف اليمين حينا، وأن تضج الناس بهذه الصحف أحياناً أخرى، هو الذى يحمل هذا اليقين، لأن الذي يدافع عنه صدق وأن ما يتحدث به حياة، وإن الإيمان العميق بالثقافة حية

والشخصية حية حتى وإن قل الأشياع، وقل عدد الأشياع- كفيل عندما يحل هذا النمط الذي كان عبور شاكر تجديدا لمفهومه.

ليس العلم كتبا يواصل بعضها بعضا فحسب، وليس تحمسا ظاهرياً وإنما هو إيمان، فإذا وجد ذلك الإيمان حول رسالة معينة فلا خوف عليها من الفناء، رحم الله ذلك الرجل بل أقول أمد في عمره، فالعمر بهذا المعنى لا ينتهي بإعلان الوفاة الظاهرية، شكرا لكم .

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر:

أوشكنا، ولكن ينوب عن ضيوفنا الحاضرين المستمعين أخونا الدكتور محمد أخ عزيز يريد أن يعلق بكلمة، فليتفضل .

الدكتور محمد صادق:

محمد صادق مدرس بكلية اللغات الشرقية بروسيا، والآن طالب علم في هذه الكلية العريقة، وهذا شرف كبير لي .

أولا- لي مقولة أدخل بها : إذا كان العرب قديما يئدون البنات في الحُفَر، فإن منا الآن من يئد بنيات الفكر ! هذا حال الثقافة اليوم، وأقدم أيضا ببيت عكف على شرحه أستاذنا وأستاذ الجيل الشيخ محمود شاكر، في قصيدة خُفاف بن نَضلة ابن اخت تأبط شرا:

خبرٌ ما نابَنا مُصْمَئِلُّ جَلَّ حتّى دقَّ فيهِ الأجلُّ

للأسف الشديد أقلب في جريدة "القاهرة" أمس، قرأت مقالا لأحد الأساتذة يعتب فيه على الشيخ شاكر ولكل رأيه، ولماذا إذا ما كان للإنسان رأي أن يعارضه الآخر بوَصْفيّات لا تليق!

أولاً، الشيخ شاكر في مقدمته التي كتبها لكتاب مالك ندي "الظاهرة القرآنية" حينما بين أن الذي ينكر أن العرب في الجاهلية وصلوا بشعرهم إلى الذروة هذا يدل على أن القرآن لا يكن في ميدان التحدي صحيحا، وهذا موضوع طويل .

الشيء الثاني، كنت أطمع وأطمح من العرض الجميل ومحاورات اليوم- وعلى رغم استفادتي الكبيرة- إلا أنني أشعر أن الحساسية ما زالت كامنة لدى المصريين ؛ أي أن هناك موضوعات كثيرة في داخل هذا الكتاب؛ في ثناياه؛ "رفاعة الطهطاوي" لماذا لم يتطرق أحد إلى الكلام عنه، القضايا الأدبية التي كانت بين "طه حسين" وبين "مندور"، وحتى يُقال إن الشيخ شاكر سجن سنة بسبب إحدى هذه القضايا الأدبية، وإذا كنت مخطئا فأهله الكرام يصوبونني، أين الكلام عن هذه القضايا الأدبية! أيضا التفعيلات التي سماها الشيخ شاكر في كتاب " نمط صعب، ونمط مخيف" الأجزاء وهذه التسمية دقيقة، لأنها تضرب عرض الحائط كل شعر غير الشعر الذى كان على العمود العربي المعروف، أيضا عندما تعرض في كتابه لطه حسين وأثبت علميا أن طه حسين أخذ منه، وأنا لا أريد حساسية، فليس من الحكمة إثارة ما يغضب الآخرين ولكننا في

مجلس علم يجب أن تظهر فيه الحقـائق العلميـة جليـة ، وإذا كنـت مخطئـا صوبوني .

الشيء الثالث، هو أن النثر الذي قال من قال فيه- وكلنـا يعـرف من تكلم عنه- قال إن العرب في نثرهم : كان نثر العرب ضعيفا، لماذا كان النثر ضعيفا! فلنقرأ الوصايا، ولنقرأ الأمثـال العربيـة ونـرى الدراسـات البلاغية فيها جلية، وهناك كتاب صدر في السـعودية يـتكلم عـن وصـية واحدة وهي "وصية أُمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها دراسة تاريخيـة تحليلية"، فلماذا لا نتعرض لهذه القضايا ونحن بصدد الكلام عن" رسـالة في الطريق إلى ثقافتنا " .

أيضا هناك بعض الشخصيات يجب أن نعيد القراءة فـيما كتبـت، وبلا حساسية، وبكل سكينة وهدوء، وبكل الحـب؛ طـه حسـين ، محمـد مندور، لويس عوض، جورجي زيدان الذي ذكر أستاذنا الـدكتور طـاهر مكي - وأنا لا أعلن مفاجأة فهو قد أعلنها - أنه في هذه القاعة، وعلى هذا المقعد الذي يجلس عليه أستاذنا الحبيب الدكتور محمود الربيعي- ذكـر أن جورجي زيدان كان جاسوسا للإنجليز، وهذه حقيقة علمية. إذن أقصـد من هذا كله أن نعيد النظر في الأصول وبلا حساسية، نحن أمة مستهدفة، ونحن أمة تحاصر، والحصار من هنا ومن هناك على هذه الثقافة.

آخر شيء، أنصح بقراءة "القوس العذراء" للطلاب، ودور هـذه القصيدة ترسيخ الانتماء العربي، قضية القصيدة لم تكن قوسا، عندما ذهب

عامر للحج وكان معه قوسه- تعجب القوم: لم هذا العربي يحمل قوسه معه ! القوس هي الذات العربية. شكرا لكم لاتساع صدوركم .

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر :

على رغم أن أخانا استطرد إلى أمور كثيرة- يكفيني أنه زادكم على وجه ما، شوقا إلى قراءة "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا"، وهو مرادي من هذا اللقاء .

لقد التقى قريبا طالبان من طلاب علوم العربية وفنونها عراقي ومصري، فسأل العراقي المصري وكأنما يُعنِّته:

ما أهم المشكلات النقدية التي يعاني منها النقد العربي؟

فأجابه المصري:

ضعف الإيمان بالعروبة أس المشكلات الثقافية كلها؛ فالناقد الواقف عند مقالات غيره احتقارا لتراث أمته، والناقد المخالف عن المصطلحات حرصا على خصوصية خادعة، والناقد المطَّرح من يده يد قارئه في سعيه إلى المنقود، والناقد اللاهج بالتنظير كبرا على النصوص ... كل أولئك أمراض نقدية مشكلة، علاجها الإيمان بالعروبة والثقة فيها والانطلاق منها والإخلاص لها.

فسأله: وهل تبلورت ملامح نظرية نقدية عربية؟

فأجابه:

أدعوك إلى قراءة كتابين للكاتب الأديب الفذ محمود محمد شاكر: "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا"، و"نمط صعب، ونمط مخيف"؛ إنك إن قرأتهما، وصبرت عليهما- وقفت على نظرية نقدية عربية أصيلة متروكة مهملة، لم يخترعها الرجل، ولكنه بذل في تعلمها من عمره ونفسه، ثم أقبل يعلمها أمته؛ فأنشأها نشأة أخرى. ولا تقل لي كتاباه أنفسهما نمط صعب مخيف؛ فإنه كلام أشبه بالذنب منه بالعذر!

وأخشى ما يجب أن نخشى ، ريحٌ بئستْ ريحًا ، تهبُّ من تلقاءِ مغربٍ بئسَ مغربًا:

وَهَبَّتْ صَبًا غَرَّتْهُمَا ثُمَّ أَعْقَبَتْ دَبُورًا...

-والصبا ريح عربية ، والدبور ريح غربية-

وهبَّتْ صَبًا غَرَّتْهُمَا ثم أعْقَبَتْ دَبورًا وكَمْ غَرَّتْ بِنَفْحَتِها الصَّبا

أو كما قال ابن نُباتة السعدي !

شكر الله لكم ، والسلام عليكم .

تَارِيخُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ[2]

يعرض الباحثون المسلمون العرب عن تاريخ القرآن الكريم، رهبة أحيانا، وعجزا أحيانا؛ فتنفرد في الساحة مقالات المخالفين الهدامة.

لقد صحت لدينا أخبار بنزول القرآن الكريم على سبعة أحرف، في ثلاث هيئات من المواقف النبوية: إقرار مختلفين، حوار ملائكي نبوي، توجيه المسلمين.

من العلماء من فهم تلك السَّبْعِيَّة على أنها وجوه عامة متفرقة في القرآن الكريم (ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن)، ومنهم من فهمها على أنها وجوه خاصة متكررة في الموضع الواحد (الطبري في تفسيره)، ومنهم من فهمها وأنا منهم على أنها كناية تَوْسيعيَّة تَيْسيرية (شاهين في تاريخ القرآن)، وكلهم مجمع على وقوع الاختلاف في قراءة القرآن الكريم، على هذه الأنحاء السبعة الآتية التي ذكرها ابن قتيبة:

١ الاختلاف في إعراب الكلمة أو حركة بنائها بما لا يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها، كقوله -تعالى!-: "هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ"، وقرئت بالنصب.

---

[2] تلخيص كتاب الدكتور عبد الصبور شاهين، وزيادة.

٢ الاختلاف في إعراب الكلمة أو حركة بنائها بما يغير معناها ولا يغير صورتها في الكتاب، كقوله -تعالى!-: "رَبَّنَاْ بَاْعِدْ بَيْنَ أَسْفَاْرِنَاْ"، وقراءةِ "بَاْعَدَ".

٣ الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يغير صورتها، كقوله -تعالى!-: "كَيْفَ نُنْشِزُهَاْ"، وقراءةِ "نُنْشِرُهَاْ".

٤ الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها، كقوله -تعالى!-: "إِنْ كَاْنَتْ إِلَّاْ صَيْحَةً وَاْحِدَةً"، وقراءةِ "زَقْيَةً".

٥ الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها ومعناها، نحو قوله -تعالى!-: "وَطَلْحٍ مَنْضُوْدٍ"، وقراءةِ "وَطَلْعٍ".

٦ الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو قوله -تعالى!-: "وَجَاْءَتْ سَكْرَةُ الْمُوْتِ بِالْحَقِّ"، وقراءةِ "وَجَاْءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمُوْتِ".

٧ الاختلاف بالزيادة والنقصان، نحو قوله -تعالى!: "لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُوْنَ نَعْجَةً"، وقراءةِ "نَعْجَةً أُنْثَىْ".

كان المراد بتلك السبعية تمكين كل مسلم من أن يقرأ على ما لَقَّنَه مُعَلِّمُه الرسولُ -صلى الله عليه، وسلم!- أو الصحابيُّ -رضي الله عنه!- من غير أن يقلد قراءة غيره، ولا أن يكره غيره على قراءته.

وقد خلت المرحلة المكية من حدوث تلك الاختلافات أصلا فلم ينشأ داع إلى تلك السبعية التوسيعية التيسيرية، ثم لما انفتحت المرحلة المدنية على العالم ودخل الناس في دين الله أفواجا واصطخبت الوفود، ظهرت تلك الاختلافات، ونشأ داعي السبعية، حتى إذا ما تمكنت المرحلة المدنية في عهد عثمان بن عفان، انتهت الرخصة، وانحسمت الاختلافات.

لم تكن القراءة والكتابة شائعتين في العرب؛ فلم يتيسر لرسول الله -صلى الله علي، وسلم!- أن يتعلمهما، ولكنهم وهو منهم كانوا حداد الذواكر، لا يفلتون حرفا مما يسمعون، فلما نزل القرآن مُنَجَّمًا حفظوه ، وحفظه من قبلهم رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- وأعانه دائما جبريل أمين الوحي -عليه السلام!- ولا سيما في عامه الأخير، ففهم من الإعادة قرب الأجل!

وعلى قلة القراءة والكتابة في العرب، كان من صحابة رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- من يعرفهما، وحرص هو على أن يتعلمهما سائر صحابته، حتى بلغ كتاب الوحي ثلاثة وأربعين كاتبا، منهم الخلفاء الأربعة والزبير بن العوام وأبي بن كعب وزيد بن ثابت. ولا يمتنع أن تتميز على الزمان الطويل لرسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- معالم من خصائص الكتابة، ولكن بعد فوات السن ووجود العَوْن!

ثبت تسجيل القرآن الكريم حفظا وكتابة إذن على عهد رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- ولكن على حين أجازت المشافهة من وجوه تلك السبعية ما اتُّسِع فيه وتَيَسَّر، لم تثبت الكتابة غير وجه واحد كُتِبَ به القرآن الكريم على كل ما يمكن الكتابة عليه من الأدوات الطبيعية، بخط عربي معجم (منقوط نقط تمييز الحروف المشتبهة).

ثم لما كثر الموت في القُرّاء انقطع لجمعه من تلك الأدوات ومن صدور الرجال زيد بن ثابت بدعوة أبي بكر وأعانه عليه عمر بن الخطاب وسالم بن معقل وأبي بن كعب -رضي الله عنهم أجمعين!- ثم ظل عند أبي بكر ثم عمر، ثم حفصة بنت عمر، رضي الله عنهم أجمعين!

ثم لما خيفت فتنة المفاضلة بين الاختلافات في عهد عثمان بن عفان استن بسنة من قبله، وأمر بنسخ المصحف الإمام بخط عربي مُجَرَّد (غير منقوط نقط الإعجام السابق جَمْعًا بين الوجوه الصحيحة)، قام له زيد بن ثابت نفسه وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وانتسخت منه النسخ، وأرسلت إلى الآفاق.

ثم لما خيفت في زمان الأمويين فتنة أخطاء المستعربين والموالي، أضاف أبو الأسود الدؤلي إلى رسم المصحف الإمام نقط الضبط (التشكيل)، وأعاد نصر بن عاصم ثم يحيى بن يعمر نقط الإعجام (تمييز الحروف المشتبهة)، ثم لما التبس النَّقْطان مُيِّزَ بينهما بتغيير اللون، ثم غَيَّرَ

الخليل بن أحمد نَقْط الضبط (التشكيل)، إلى ما نحن عليه الآن من علامات، وبقي نقط الإعجام على حاله.

وقد فهم عثمان بن عفان -رضي الله عنه!- أنه لم يعد يجوز لأحد بعد المصحف الإمام أن يستعمل تلك الرخصة السبعية القديمة؛ فأحرق ما كان في أيدي الناس من مصاحف، وأقره الصحابة على ما فعل. وبتأمل ما بقي من آثار تلك المصاحف يتبين أنها لا تخرج عن تلك الاختلافات السبعية التوسيعية التيسيرية، وأن الصحابي إنما كان عندئذ يَسْتَنُّ فيها لغيره بما استنه له رسول الله -صلى الله عيه، وسلم!- في تلك الأحوال القديمة.

ولقد بلغ من قبول رسم المصحف الإمام الذي انتدب له عثمان بن عفان -رضي الله عنه!- ومن أثره كذلك، أن صار شرطا في صحة القراءات القرآنية، ومِصْفاة تُصَفّى بها؛ فما وافقته نُظِرَ في سندها، فإذا صَحَّ سندها نُظِرَ في موافقتها للغة العربية، فإذا وافقتها كانت عندئذ قراءة صحيحة، هذا هو موضع الرسم الحقيقيُّ من مقاييس القراءة.

لقد كانت نسخ المصحف الإمام الأولى ستا، أرسلت إلى البصرة والكوفة والشام ومكة أربع، وبقيت في المدينة نسخة، واختص عثمان بن عفان بنسخة، وحُقَّ له، رضي الله عنه! واليوم يقوم بالمدينة المنورة نفسها على السُّنَّة نفسها، "مُجَمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف"، صرحا

عظيما جليلا مهيبا مترامي الأرجاء منتشر الأرواح، لا تنقضي لرجاله في خدمة القرآن الكريم أعمال، ولا تفتر هممم.

نِظَامُ الْإِيقَاعِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ[٣]

أ.د.محمد جمال صقر:

سلام عليكم، طبتم مساء يا أبناء، ويا إخوان، وطاب مسعاكم إلينا، بسم الله -سبحانه، وتعالى!- وبحمده، وصلاة على رسوله وسلاما، ورضوانا على صحابته وتابعيهم، حتى نلقاهم!

هذا هو المستوى الأول من مقرر قاعة بحث الذي نتحرك فيه معا خطوة خطوة، في سبيل وعي منهج البحث العلمي الذي ادعينا فيه أنه لا يمكن فيه أن نتعلم إلا ما يصح في تقاليد البحث العلمي، فأما ما يُدهش ويَروع فلا مقياس له، وقد اتفقنا على أن منهج البحث العلمي الصحيح لا الرائع أصول وفروع وعلامات محسوبة، تكون بالتقليد، وتُستوعب بالتعلم، وأحسسنا أن شَرْحنا لكل خطوة يحتاج إلى تطبيق، إلى بحث نلتقي عليه، نتحرك فيه خطوة خطوة، وُفقنا معا، أخفقنا معا، أنجزنا معا، كَسِلنا، نَشِطنا، نعمل هذا معا، نعيش معا، ونظل معا.

---

[٣] ندوة أعدّ لها وشارك فيها وأدارها الدكتور محمد جمال صقر، وسجلتها وفرغتها وهذبتها الأستاذة نهاد مجدي طالبة الماجستير بقسم النحو والصرف والعروض، من كلية دار العلوم، بجامعة القاهرة

وقد كنت أعرف أن المسألة التي تُختار للبحث ينبغي أن تَتَّصِف بالجِدَّة أو النقص؛ أن تكون جديدة لم تبحث من قبل، أو أن تكون ناقصة البحث؛ بحثت، ولم يتم بحثها.

ولا أنكر أن ميلي إلى بعض علوم العربية وآدابها هو الذي أغراني بأن أحدد لكم، وأفرض عليكم مسألة استثارتكم، واستفزت بعضكم، وقلقوا لها حتى خف قلقهم، ولم يستقروا لها على حال بعد، وهي مسألة "التراكيب العروضية بين القرآن الكريم والحديث الشريف"، بل قد زدنا العنوان فأضفنا "جمع وتحقيق ودراسة" مما زادكم عجبا.

وتوالت الأيام والمحاضرات ولا تزدادون لها إلا قلقا وحيرة، منكم من يمر على القرآن الكريم يتخطف الأمثلة، يمر على الحديث ينسى بالحديث القرآن، بالقرآن الحديث، لا يدري ما يفعل.

حتى فاجأنا الأستاذ محمود في لقاء سابق بأنه في خلال حديثه لأستاذه أخينا العزيز الدكتور خالد حسان - استدل على وجود أستاذ متخصص بهذه المسألة بجامعة عين شمس سلخ فيها عمرا مديدا، وهو الدكتور سالم عياد - بارك الله فيه، وأحسن إليه! - فوجدنا هذا فتحا من الفتوح، معقول! هذا موجود في الدنيا! فأعطاني الأستاذ محمود رقمه، ولم يكن يظن أن الذي يحدث الآن سيحدث.

في المساء كلمت الدكتور سالم، وقلت له: أقل ما يمكننا أن نقدمه لك أن ندعوك إلى أن تحاضر أنت المحاضرة، ولاسيما أنك لم تطبع عملك

هذا بحيث يكون مستندا ملموسا يرجع إليه، فلكي ينسب الفضل إلى أهله، ومن بركة العلم نسبته إلى أهله، ونحن أمة النسبة، أمة السند، نسند الأشياء إلى أصحابها، وهذه مشكلة عالمية؛ فالذين كتبوا في التفكير العلمي كشفوا لنا أن الأمم الآن تتنازع العلوم؛ كل أمة تدعي لنفسها أنها التي اخترعت، والتي فعلت: الروس يقولون مخترع هذا روسي، والألمان مخترعه ألماني، والإنجليز مخترعه إنجليزي، وتاهت الأسانيد! ونحن نفتخر بأن من بركة العلم نسبته إلى أهله.

لم يكن في الإمكان أفضل من أن نفعل الذي نفعله اليوم لكي نسند الفضل إلى أهله، فدعونا الدكتور سالم، وهذا عبء في الحقيقة، نحن كلفناه عبئا، ولكنه لأنه من أهل العلم يعرف تقاليد طلب العلم، وتقاليد تعليمه، وتقاليد ترويجه بين الناس، وأن هذا من أفضل ما يكون، خيركم من تعلم العلم وعلمه من تعلم القرآن وعلمه، والقرآن نص أصل في هذه المسألة، فقبل، وتفضل علينا بسماحته، بل حضر اليوم بهداياه من الكتب، وتفاصيل بحثه، بل قد أحضر لنا نسخته من مصحفه التي خطط عليها من سنين طويلة معلوماته!

الدكتور سالم عياد خريج آداب عين شمس سنة ثلاث وستين، حصل على الماجستير في "أشعار النساء للمرزباني" سنة ثلاث وسبعين من آداب عين شمس، وحصل على الدكتوراه في "أشعار النساء في العصر الإسلامي" من كليتنا هذه دار العلوم سنة اثنتين وثمانين، عمل بآداب بنها

إلى سنة تسعين، ثم بتربية عين شمس إلى الآن. له كتب كثيرة، أهداني منها مثلا ما هو نص في مجالنا على وجه العموم، هذا "فن الرجز في عصر بني أمية، دراسة تاريخية موضوعية نقدية"، وأنتم تجدون الرجز ظاهر النغم في الآيات المكية مثلا، هذا كتاب في "الأدب الجاهلي ونصوصه"، هذا كتاب "الشعر في صدر الإسلام"، وله كتب صريحة في العروض "البنية الإيقاعية في قراءة الشعر العربي"، بل أخرج ديوان فضل جارية المتوكل المشهورة، وله كتاب في "الأدب الأموي ونصوصه"، وله كتاب في "موسيقى الشعر العربي والعروض التعليمي". له إسهامات صريحة في هذا، فهو أهل لأن يحاضر هذه المحاضرة، ولأن يستمع إليه، وأنا وأنتم سنستمع، وسنعتمد كلامه هذا أصلا في المقرر يرجع إليه، يعني كل ما سيقوله الدكتور سالم الآن أصل في مقررنا يعتمد عليه، ويرجع إليه، ويختبر فيه، يعني سنعود إليه لنؤسس بحثنا عليه، وسنعود إليه في اختباراتنا لنسأل فيه.

هذا اللقاء - إن شاء الله - يسجل، وينزل أو كما تقولون يرفع على النت، ثم يفرغ، ويطبع، يعني بكل وسيلة سنروجه، وقد طلبت هذه المحاضرة منا من أكثر من جهة، طلبت من إخواننا من أكثر من جهة لخطورتها.

فهذه المحاضرة "التراكيب العروضية بين القرآن الكريم والحديث الشريف" التي استثارتكم هذه محاضرة مهمة، تأتي أهميتها من

أصل نزول الوحي، منذ نزل الوحي حينما اختلف العرب في القرآن الكريم هذا شعر هذا، هذا كأنه شعر هذا، هذا كأنه شاعر، يصفون الرسول - عليه الصلاة والسلام! - بأنه شاعر، ويحكمون على القرآن بأنه شعر، وقد نفى ربنا – سبحانه! - عن القرآن أنه شعر، وعن الرسول أنه شاعر، لكنْ هذا لم يلغ أصل الفكرة، ما الذي جعل العرب تفكر أصلا في أن يكون هذا شعرا، وفي أن يكون هذا شاعرا؟ ما التلاقي الذي جعلهم يفكرون في هذا؟ لا بد من وجود تلاق ما، فأصل مسألتنا أصل عويص، وأصل مثير، ولا يكفي فيه أن تأخذه على العموم، وترتاح؛ فهناك ناس يعملون في هذا، ويروجون لأفكارهم، شئت أم أبيت، وقد ادعيت لكم دعوى لا أملك لها دليلا أن الصهاينة الآن ربما كانوا قد بحثوا المسألة، وأسسوا فيها أصولا، وأصلوا أصولا وفرعوا فروعا، وهم يُدرِّسونها الآن في جامعاتهم ونحن نتحرج من أن نبحث المسألة! لا، هذه أمور لا يكفي فيها أن نعرض عنها، لا يجوز، ينبغي أن يَنتدِب لها المجاهدون من الباحثين، ومنهم الدكتور سالم. كل هذا من أجل وضع المسألة في موضعها الصحيح لكي تحسنوا الفهم عن أستاذنا الدكتور سالم.

يسرنا أن نقدم لكم أستاذنا، وقد اجتهد لكم اجتهادا فوق ما كنت أتخيل؛ يعني أنا كنت أظن أنه سيعلق نقطا يتكلم فيها، فإذا هو قد نظم لكم محاضرة كاملة، بل جاء بكل ما جمعه من أوراق على مدار السنين

لكي لا يفتقد الشيء إذا أراد مثالا، فكل الصيد في جوف الفرا، تعرفون هذا المثل القديم؟ كل الصيد في جوف الفرا!

فلتتفضل أستاذنا الكريم!

أ.د.سالم عياد:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد،

فلا أستطيع أن أقدم الثناء والشكر لأخي الكريم الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر على هذه التقدمة الضافية التي ألبسني فيها ثوبا فضفاضا لا أسمو إليه أو لا أتطلع إليه!

أما عن دار العلوم فاسمحوا لي أن أخرج جانبا من المخزون النفسي في علاقتي بها، كنت وأنا صبي صغير أتمنى أن أكون طالبا في هذه الدار العريقة الأصيلة قلعة العلم والأدب واللغة والإسلام التي خرجت أساطين في علوم العربية في كل أرجاء الدنيا بعد الأزهر الشريف، لكن لم يشأ الله ليَ ذلك، فكانت آداب عين شمس قسم اللغة العربية، وعشت فيها أتلظى، كما يقولون، وأتحرق شوقا إلى دار العلوم حتى إذا كانت، ولكن الله – سبحانه، وتعالى! – أطفأ شيئا من غُلَّتي هذه؛ فقد هيأ لنا الله أن يدرس لنا كثير أو لفيف من أساتذة دار العلوم الأجلاء، أذكر أن أستاذي الكريم الأستاذ الدكتور محمد مهدي علام درس لي هذه المادة التي يدرسها أخي الكريم الآن (قاعة البحث) سنين عددا، وهو أستاذ

الأجيال كلها، هذا درعمي، كما درس لي الأدب المقارن سيده ومنشؤه وصاحبه الأول الأستاذ الدكتور المرحوم محمد غنيمي هلال[٤]، كما درس لي النحو العربي شيخ نحاة مصر وهو الأستاذ المرحوم عبد الحميد حسن ابن هذه الدار وشيخها أيضا، كما درس لي علم البلاغة القديمة البلاغة العربية في مباحثها الثلاثة البيان والمعاني والبديع المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي وكيل هذه الدار في الستينيات، أعتقد هذا، كما صاحبت عالما حبرا من علمائها طيلة عمري، منذ سنة اثنتين وستين إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى – يرحمه الله! – الأستاذ العلامة المحقق الكبير العالم الفاضل الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب –رحمه الله!– فقد كان مشرفي الأول، وعضوا في لجنة المناقشة الثاني.

هذا عن دار العلوم، فحينما أجيء اليوم بدعوة كريمة من أخي الكريم لكي أتحدث بين بعض أبنائها – أكون كما قال المثل العربي القديم كحامل التمر إلى هجر أو كجالب التمر إلى هجر، فأنتم أصل الخير والعلم والتمر والبركة كلها؛ فسامحوني إذا تطاولت، وتحدثت معكم عن موضوع يملأ علي نفسي، وهذا ما دفعني إلى المجيء اليوم.

الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر اقترح "التراكيب العروضية في القرآن الكريم والحديث الشريف"؛ فقلت في التو واللحظة لا، لا أقوى على هذا! الموضوع التراكيب العروضية في القرآن الكريم وحسب، لأن

[٤] علّق أستاذنا الكريم: الحبر الجليل!

الحديث الشريف كما تعلمون له وضعه العلمي الخاص؛ فهو يُروى روايات متعددة، وقديما قالوا عن الشعر (وما آفة الأشعار إلا رواتها)، والحديث النبوي الشريف قد يروى بالمعنى، فلا تكون الدراسة العروضية فيه دراسة متأصلة، لكن القرآن الكريم كتاب الله – تعالى!– لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن كان بحرا لا سواحل له، لكن نستطيع أن نقف أمامه خاشعين خاضعين، ونقرأ، ونتفهم، وروايته واحدة، ليس فيها عوج ولا أمت، كما أني أقترح أيضا حذف كلمة العروض، لأنها حساسة مرتبطة بالشعر العربي، فأخاف أن يأكله الذئب! أخاف من كلمة العروض والقرآن الكريم، الموضوع في غاية الحساسية، وكثير من الناس يرفضون الحديث فيه أصلا؛ فأقترح أن يكون "نظام الإيقاع في القرآن الكريم"، يعني نبتعد كثيرا عن كلمة عروض وشعر، حتى لا نعتدي على مشاعر أحد أو لا نقترب من مشاعر أحد.

الموضوع إذن "نظام الإيقاع في القرآن الكريم"، وسأستعرض معكم سريعا مسألة الإيقاع هذه من مبتداها في علم العروض حتى نصل إلى كتاب الله، تعالى!

تعلمون طبعا جميعا درستم عروضا أو علم العروض، وتعرفون، يسامحني أخي إذا قلت كلاما من نافلة القول سريعا.

مم تتكون الأوزان العروضية؟

تقوم على لقاء الساكن بالمتحرك - كما تعلمون - حرف متحرك ثم يليه ساكن، وطبعا المتحرك ثقيل والساكن أخف، لقاء الأضداد كما يقولون.

تنتظم هذه الفكرة من أوليات المقاطع الصوتية، أعني الأسباب والأوتاد والفواصل، الأسباب - كما تعلمون - نوعان: سبب خفيف وسبب ثقيل، الخفيف متحرك فساكن، عكسه الثقيل متحرك فمتحرك، أيضا الوتد المجموع متحركان فساكن، الوتد المفروق متحرك فساكن فمتحرك، الفاصلة الصغرى ثلاث متحركات فساكن، الكبرى أربع متحركات فساكن، وبالمناسبة أربع متحركات فساكن لا تجتمع إلا في تفعيلة (مُسْتَفْعِلُنْ) تفعيلة الرجز الذي وضعتُ فيه كتابا، لا توجد - وحَضْرَتُكَ سيِّدُ العارِفين* - لا توجد (مُتَعِلُنْ) إلا في تفعيلة (مستفعلن). من هذه الأسباب المتضادة والأوتاد والفواصل تتكون التفاعيل الثمانية، وهنا يبدو التضاد والعكس واضحا؛ (**فاعِلُن**) عكس (**فَعولُنْ**) كلتاهما خماسية، لكن كلا منهما عكس الأخرى، الاثنتان خماسيتان، الأولى سبب خفيف ثم وتد مجموع، الثانية العكس وتد مجموع ثم سبب خفيف، (**مُتَفاعِلُنْ**) تفعيلة الكامل فاصلة صغرى ثم وتد مجموع، عكسها (**مُفاعَلَتُنْ**) تفعيلة الوافر وتد مجموع ثم فاصلة صغرى، (**مستفعلن**) الرجز سببان خفيفان ثم وتد مجموع، عكسها (**مَفاعيلُنْ**) وتد مجموع ثم

---

* قيلت بالعامية.

سببان خفيفان، (**فاعِلاتُنْ**) تفعيلة الخفيف والمديد والرمل سببان خفيفان يقع بينهما وتد مجموع عكس (**مَفْعولاتُ**) تفعيلة المجتث والمنسرح والأوزان المخيفة هذه[٦].

من هذه التفاعيل الثمانية تتكون الأبحر الخليلية الستة عشر، فمنها ما هو صاف يعني تفعيلة واحدة متكررة عدة مرات، أربعة، أو ستة، أو ثمانية، مثل الكامل والرجز والوافر والهزج والمتدارَك والمتقارب، سيقول لي أحدكم: الوافر مفاعلتن مفاعلتن فعولن، تقول عنه إنه صافٍ؟ أقول لك: نعم، أصله كان مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن، وهذا أصل في الدائرة العروضية، ثم دخل التفعيلة الثالثة والسادسة القطف، فصارت العروض[٧]. الأنواع الأخرى التراكيب المزدوجة أو المركبة مثل ماذا؟ الطويل والبسيط والخفيف والمديد والسريع والمنسرح والمقتضب والمجتث والمضارع[٨].

---

[٦] قيلت: "لكن الاتنين عكس بعض (...) بتاعة المجتث والمنسرح والأوزان المخيفة دي ".

[٧] (...) واحد يقول لي الوافر مفاعلتن مفاعلتن فعولن تقول لي صافي! أقول لك: أيوه، أصله كان مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن أصل في الدائرة العروضية (...) فبقت العروض.

[٨] الأنواع التانية (...) زي إيه؟

هذا هو ملخص الأدوات التي سندخل بها على القرآن الكريم كتاب الله، لنرى مدى موسيقية هذا النص، وما يحتويه من إيقاعات تندرج تحت هذا النظام.

إذا ما دخلنا بهذا الرصيد الضخم إلى كتاب الله – تعالى! – القرآن الكريم سنجد أمامنا سدا منيعا، انتبهوا[9]، حتى لا نُتَّهَمَ بشيء، نحن نعرف الله، تعالى!، وعلى قدر يعلمه الله فينا – سنجد سدا منيعا أمامنا من النصوص القرآنية التي تنأى به بالقرآن أو بها بالآيات القرآنية عن فن الشعر.

إذن انتبهوا، سَلَفَ أن القرآن مهما استخرجنا منه من تراكيب و إيقاعات موسيقية تتفق وإيقاعات الشعر، القرآن ليس شعرا. لم؟ لأنه ليس كل من قال بيتا أو شطرا قال شعرا، عندنا القصيدة لا تقل عن سبعة أبيات، هذا الكلام غير موجود في القرآن الكريم ولا في أي كتاب سماوي مثلا، ولا تكاد تجد بيتا كاملا، نحن نجهد أنفسنا لنكون بيتا[10]، ويَفسُد الإيقاع بإرادة الله – سبحانه، وتعالى!– لأن الله يريد أن يقول لنا سلفا قبل أن نبدأ الحديث لو كنت أردت أن أنزل القرآن شعرا لفعلت، ولكن لم تسبق مشيئتي ذلك، لا، أنا لا أريده شعرا، ولا نثرا فنيا، قديما تعلمون أن

---

[9] قيلت: خدوا بالكو! (ستتكرر كثيرا فسأكتفي بذكرها هذه المرة).

[10] يه؟ لأن ليس كل من قال بيتا أو شطر يبقى قال شعرا (...) الكلام ده مش موجود، ولا حتى بيت كامل ده بنجهد أنفسنا على ما نكون بيت.

طه حسين كان يقول لنا: البيان ثلاثة أنواع: شعر، ونثر فني، وقرآن كريم، فالقرآن الكريم متفرد بجلاله وكماله عن الفنين الآخرين.

ماذا يضيرنا لو بحثنا في القرآن الكريم عن بعض إيقاعات الشعر، لنثبت شيئا مهما، وهو أن القرآن الكريم الذي احتوى علوم العربية بل هو أصل علوم العربية كما يقول العلماء، ولم يحتو علوم العربية فقط، وإنما هو أصل العلوم العربية نحوا وصرفا وبلاغة وأدبا، وكل علوم العربية، فلم لا يحتوي العروض، أو لم لا يشير ولو من بعيد إلى علم العروض؟ أليس هذا إعجازا بيانيا يتجلى في القرآن الكريم، يضاف إلى الإعجازات الأخرى؟

أحد الطلاب: بلى.

أ.د.سالم عياد: الحمد لله، اتفقنا.

إذا ما دخلنا بهذا الرصيد إلى القرآن سنجد سدا منيعا من النصوص القرآنية التي تنأى به عن الشعر، مع أنه فن العربية الأول! رغم مكانة الشعر كما يعده العلماء فن العربية الأول، والقرآن كرم هذه اللغة فنزل بها - إلا أن القرآن يرفض في آيات كثيرة ادعاء الكفار له بأنه شعر.

نستعرض بسرعة ما قاله القرآن الكريم عن فن الشعر، ذكرت كلمة الشعر والشعراء في القرآن الكريم ست مرات:

١ **في سورة الشعراء** كما تعلمون قوله – تعالى! –: بسم الله الرحمن الرحيم {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلى

كُلِّ أَفّاكٍ أَثيمٍ (٢٢٢) يُلْقونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبونَ (٢٢٣) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يَهيمونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقولونَ ما لا يَفْعَلونَ(٢٢٦) إِلّا الّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ وَذَكَروا اللهَ كَثيرًا وَانْتَصَروا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا وَسَيَعْلَمُ الّذينَ ظَلَموا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبونَ (٢٢٧)} الشعراء ٢٢١-٢٢٧ صدق الله العظيم.

٢ <u>**في سورة الأنبياء**</u> {بَلْ قالوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلونَ} الأنبياء ٥.

٣ <u>**في سورة الصافات**</u> بسم الله الرحمن الرحيم {إِنَّهُمْ كانوا إِذا قيلَ لَهُمْ لا إِله إِلّا اللهُ يَسْتَكْبِرونَ(٣٥) وَيَقولونَ أَإِنّا لَتارِكو آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنونٍ(٣٦) بَلْجاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلينَ(٣٧)} الصافات ٣٥-٣٧.

٤ <u>**في سورة الطور**</u> {فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنونٍ (٢٩) أَمْ يَقولونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصوا فَإِنّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصينَ (٣١)} الطور ٢٩-٣١.

٥ <u>**في سورة الحاقة**</u> {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسولٍ كَريمٍ (٤٠) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَليلًا ما تُؤْمِنونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَليلًا ما تَذَكَّرونَ (٤٢) تَنْزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمينَ (٤٣)} الحاقة ٤٠- ٤٣.

٦ <u>في يس</u> {وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغي لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلى الْكافِرينَ (٧٠)} يس ٦٩- ٧٠. صدق الله العظيم.

نناقش هذه الآيات بسرعة سريعة، إن هذه الآيات قد وردت في القرآن الكريم بلفظ (شاعر) أربع مرات، للدلالة على المبدع الشاعر نفسه، الذي ينشئ الشعر، مثل الأستاذ الدكتور محمد جمال صقر شاعر، فهو مبدع. وردت بنص الجمع (الشعراء) مرة واحدة في سورة الشعراء، كما وردت كلمة (الشعر) وهو اسم لنتاج الشاعر مرة واحدة في يس، كما نلاحظ أن ورود كلمة (الشعر) و(الشاعر) يجمع بينهما اتهام المشركين للرسول – صلى الله عليه، وسلم! – بعدم الرسالة ونفيها عنه، والآيات تَرُدُّ على ذلك بنفي من الله لمقالة المشركين؛ تثبيتا للرسول – صلى الله عليه، وسلم!– وللرسالة، وتصديقا له فيما بلغ عن ربه، كما نفى الله عن رسوله الكهانة والجنون والسحر والشعر، وأثبت له النبوة والوحي والرسالة {بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلينَ} الصافات٣٧.

أما الآيات الأخيرة في سورة الشعراء، وهي أشهر ما يردده المتشددون برفض الإسلام للشعر أو المتشدقون برفض الإسلام للشعر، وهي قوله- تعالى!- {وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوونَ} الشعراء ٢٢٤،

والحقيقة أن هذه الآيات تتناول قضية نقدية كيف؟ حول فنية الشعر، فهي مكونة من خمس نقاط، انتبهوا إليها جدا، فهي مهمة جدا[11].

الأولى: ما كان شائعا وقتها عن مسألة استيحاء الشعر من الشياطين، حتى إن كل شاعر فحل في الجاهلية اعتقد أن له شيطانا يوحي إليه شعره، وهذه فرية وأكذوبة كما تعلمون، فأكثر الشعراء في هذه الطائفة كاذبون.

الثانية: من اتبع الشعراء وصدَّقهم فيما يذهبون إليه من خيالات وأكاذيب فهو طاغ واهم.

الثالثة: أن الشعراء يَهيمون على وجوههم في الأودية، كانوا كذلك قديما يتخيلون، ويصورون ما يعتقدون شعرا؛ قيل إنهم وجدوا مجنون ليلى ميتا بين جبلين هائما على وجهه في الصحاري {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يَهيمونَ (٢٢٥)} صدق الله العظيم. الشعراء ٢٢٤- ٢٢٥.

الرابعة: أنهم يقولون ما لا يفعلون، وهذه هي الخطورة[12]، كيف؟ يعني هنا مسألة الكذب الفني لا الكذب الأخلاقي في رأي النقاد؛ ألم يقل النقاد إن أعذب الشعر أكذبه! {يَقولونَ ما لا يَفْعَلونَ} الشعراء: ٢٢٦.

[11] خدوا بالكو معايا قوي، مهمة قوي!

[12] أهي دي بقى الخطورة.

الخامسة: استثناء الفئة المؤمنة الملتزمة، وأولهم شعراء الرسول – صلى الله عليه، وسلم!– الثلاثة: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، ومما يؤيد ذلك ما ورد في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني – كما تعلمون – أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وصاحباه إلى النبي – صلى الله عليه، وسلم!– وهم يبكون، قالوا: يا رسول الله، قد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا شعراء![13] فقال النبي – صلى الله عليه، وسلم!–: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات"، ثم قال: أنتم، "وذكروا الله كثيرا"، أنتم، "وانتقموا من بعد ما ظلموا"، أنتم، ثم قال لهم: انتصروا، ولا تقولوا إلا حقا، ولا تذكروا الآباء والأمهات، يعني تحروا الحق في مدائحكم؛ فلا تسبوا الأمهات ولا الآباء في أهاجيكم، يعني ولا تنابزوا بالألقاب.

أما الآية الأخيرة التي وردت في سورة يس {وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغي لَهُ}يس: ٦٩ أي ما علمه ربه فن الشعر، هذا يجمع عليه المفسرون، وما ينبغي لمحمد – صلى الله عليه، وسلم!– أن يكون شاعرا، أو معنى آخر مختلف، اسمحوا لي أن أعلنه: ما علمناه ما ينبغي للشعر من أدوات فنية ليقول شعرا، الشاعر يلزمه أن يمتلك أدوات الفن الشعري، فربنا – سبحانه، وتعالى! – قال: إن النبي ليس شاعرا، وما علمناه أيضا

[13] قال ضيفنا الكريم موضحا: يعني إحنا كده!

فن الشعر، وما أعطيناه فنية الشعر، وما وهبناه صنعة الشعر، فصنعة الشعر فن، صنعة الشعر نحت القوافي، ورصفها، وجنوح التصوير، وغيرها، وإن كان النبي - صلى الله عليه، وسلم!- قد أوتي مجامع الكلم ليس معنى هذا أنه..، أستغفر الله العظيم، لا! أفصح الناس، وأعلم الناس باللغة، لكنه لم يهيئه الله لفن الشعر، نفى عنه وعن كتابه فنية الشعر[١٤].

خلاصة القول أن القرآن الكريم كله لم يحظر قول الشعر، أو لم يحرم قرضه، هل فيما عرضناه الآن من الآيات الستة أو المواضع الستة شيء يقول إياكم أن تقولوا شعرا، كما حرم شرب الخمر، أو حرم كل المحرمات صراحة في القرآن الكريم؟ لم يقل ذلك، إن القرآن لم يحظر قول الشعر، ولم يحرم قرضه، مادام الشعر ملتزما بقواعد الإسلام ومنهجه، بل إنه يحفل بالجيد منه، ويقبله، ويحترمه، وللنبي - صلى الله عليه، وسلم!- مواقف تحتاج إلى محاضرة مستقلة، مواقف من الشعر، وللصحابة أيضا مواقف من الشعر تحتاج إلى محاضرة أخرى، فلا غرو إذن أن نعرض ما نعرفه من إيقاعات شعرية أو إيقاع الشعر العربي على القرآن الكريم، فإذا كان القرآن الكريم يعد أصلا لكل علوم العربية والإسلام من نحو

[١٤] الشاعر لازم يمتلك أدوات الفن الشعري (...) وما علمناه كمان فن الشعر (...) يعني مش معنى كده ان هو... أستغفر الله العظيم، لا!

وصرف وبلاغة وأدب وغير ذلك فلم لا يحتوي علم العروض، مادامت مقاصد النصوص القرآنية لا تتعارض مع ذلك، ولا ترفضه!

ولعل أقدم من تعرض لهذه القضية من علمائنا القدامى هو أبو بكر بن محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني، الذي عاش ما بين ٣٣٨ و٤٠٤ هجرية، ٩٥٠ و١٠١٣ ميلادية، أحد علماء القرن الرابع الهجري المشهورين في كتابه المشهور "إعجاز القرآن" في فصل (نفي الشعر عن القرآن) ماذا قال الباقلاني؟ قال: [فإن زعم زاعم أنه وجد في القرآن شعرا كثيرا، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام، أو أبيات تامة، ومنه ما يزعمون أنه مصراع] يعني شطر، المصراع شطر البيت [كقول القائل:

قد قلتُ لما حاولوا سَلْوتي هيهاتَ هيهاتَ لما توعَدونْ].

مصراع! شطر! في سورة المؤمنون.

أيضا ["وجفان كالجواب وقدور راسيات"] رمل، من مجزوء الرمل، فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن[15]، طبعا (جفان كالجواب) تعرفون (جفان) جمع (جفنة) وهي القدر الكبير، (كالجواب) مثل الحوض الكبير الممتلئ ماء[16]، وقدور ثابتة راسية على المواقد لثقلها

[15] لما قرئت الآية أسرع بعض الطلاب ناسبا اللحن إلى بحره الرمل، فقال ضيفنا الكريم: أيوه كده عاوز الشعراء!

[16] كالجواب يعني زي الحوض الكبير اللي ملان ماء.

وكبرها، هذا معنى {وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدورٍ راسِياتٍ} سبأ: ١٣.

[وكقوله] – تعالى!-: ["من تزكى فإنما يتزكى لنفسه"]١٨ فاعلاتن متفعلن فعلاتن متفعلن، سقطت الألف، خبن، من مجزوء الخفيف.

[وكقوله] – تعالى! – انتبهوا معي هذا الكلام في إعجاز القرآن! يقول – تعالى!-: "ومن يتق الله يجعل له (مخرجا) ويرزقه من حيث لا يحتسب" [١٧].

الفرق بيننا وبين الباقلاني أو الفرق بيننا وبين أي قارئ عاد أننا نستحضر في أذهاننا الأداء الشعري، الشاعر حينما يلقي شعره ليس كأي إنسان عندما يقرأ شعر شاعر، الشاعر حينما يلقي شعره ينغمه، وهو الإيقاع، وهو النبر، هو الموسيقي، هو نَظَمَ – بتعبير عامي- عبأ الكلمات في الموسيقى التي في ذهنه، فالموسيقى مستحضرة في الذهن، فحينما يلقي علينا قصيدته يلقيها بموسيقاها، فهذا الشاعر الذي يتقن علم العروض، ويحفظ أوزان الشعر العربي إذا قرأ القرآن الكريم وهو مستحضر أنغام الشعر وإيقاع الشعر كله في ذهنه وهو يقرأ ألا يجد شيئا؟ فهل هذا قبل كل اعتبار يعيب القرآن الكريم أم يُجَوِّدُه، ويُحَسِّنُه؟ بل أنا أزعم أن هذه المَوْسَقَةَ في القرآن الكريم تساعد الناشئ أو المسلم بعامة على الحفظ، تيسر له قضية الحفظ؛ فأنا أحفظ الشعر بسهولة جيدة حينما أجد دواعي الحفظ

[١٧] خدوا بالكو معايا ده كلام الباقلاني في إعجاز القرآن (...)، (ومن يتق الله) وبعدين يحط مخرجا بين قوسين وبعدين (ويرزقه من حيث لا يحتسب).

في الشعر هي هي موجودة في القرآن الكريم، يسهل علي حفظ القرآن، فلا غبار إطلاقا على القرآن حينما يحتوي على تفاعيل، لا قصيدة، ولا قطعة، شطر، مصراع، جملة، جزء. وسيقول الباقلاني الآن إنها ليست إلا مقطعات قصار، لتبث موسيقى الشعر التي كان العرب يتقنونها، ويحفلون بها، كما يحتفلون بميلاد الشاعر، فحينما يجدون هذه الموسقة في القرآن الكريم يزداد تعلقهم به، يحفظونه[١٨].

{ومن يتق الله يجعل له} ثم (مخرجا) في الوسط ثم {ويرزقه من حيث لا يحتسب}، لو قطعنا {ومن يتق الله}، لو موسقنا {ومن يتق الله يجعل له}، نعم؟

أحد الطلاب: المتقارب.[١٩]

ومَنْ يَتْ/ تَقِ الّلا/ هَ يَجْعَلْ/ لَهُ

فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعو،

ويَرْزُقْ/ هُ مِنْ حَيْ/ ثُ لا يَحْ/ تَسِبْ

فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعو،

---

[١٨] (...) الشاعر حينما يلقي شعره غير أي إنسان يقرأ شعر شاعر (...) اللي هو الإيقاع اللي هو النبر (...) مش قصيدة مش قطعة (...) وهيقول الباقلاني دلوقتي انها ليست إلا مقطعات قصار.

[١٩] علق أستاذنا الكريم على إجابة الطالب فخورا: مع حضرتك!

لكن جاءت (مخرجا) في الوسط، خرجت البيت عن كونه شعرا؛ اختلف الوزن، أو انكسر الوزن، وهذه مشيئة الله – تعالى! – كان الله – سبحانه، وتعالى! – في وسعه وهو خالق الكون، وخالق الشعر، وخالق الشعراء – كان بوسعه أن يصوغه صياغة أخرى، لكن إرادة الله لئلا يعتقد أحد أن القرآن شعر. ومَنْ يَتْ/ تَقِ الّلا/ هَ يَجْعَلْ/ لَهُ/ .. وَيَرْزُقْ/ هُ مِنْ حَيْ/ ثُ لا يَحْ/ تَسِبْ!

وفي قوله – تعالى! -: ["أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم"]، (ذلك) كسرت الوزن، تعرفون لو قال – سبحانه، وتعالى! – في غير القرآن: (أرأيت الذي يكذب بالدين فذاك الذي يدع اليتيم) لصارت ماذا؟ فعلاتن متفعلن فعلاتن فعلاتن متفعلن فاعلاتن، لولا الحرف – هناك في السابق كانت كلمة وهنا حرف – لولا هذا الحرف لاستقام الوزن، لكن الله لم يشأ ذلك؛ ليس شعرا[٢٠].

وقد جاء على وزن بيت تام من الخفيف لولا أن إرادة الله – ذا كلامي – شاءت أن تزيد لاما بين ذا الإشارية وكاف الخطاب، فلولاها لاستقام الوزن التام. وقد [ضَمَّن أبو نواس] – سامحه الله!– انظروا أبا نواس، ماذا فعل! ضمن أبو نواس هذا [في شعره ففصَّل وقال] قال بيتين في ديوانه:

[وَقَرا مُعْلِنًا ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد السقيما

[٢٠] (...) ذلك راحت كاسرة الوزن، بالكو لو قال سبحانه وتعالى في غير القرآن.

أرأيت الذي يكذب بالدين فذاك الذي يدع اليتيما][21].

انتبهوا، فكرة أبي نواس هذه ستظل عبر الدهور إلى يومنا هذا، وسأختم بها كلامي معكم؛ شخص عمل هذا العمل نفسه في القرآن كله، من أوله لآخره، شيخ، لما يزل على قيد الحياة[22].

فوجدوا من فكرة الباقلاني أن ما جاء في القرآن على وزن الشعر فهو بضع شَطَرات، كلام جميل، أو جاء بيتا فهو من مجزوئه، نعم، وليس من تامه، انتبهوا إلى النتيجة المهمة هذه! ما جاء في القرآن الكريم من الشعر بضع شَطَرات، وإذا جاء بيت فهو من المجزوء، ما معنى هذا؟ يعني من الشطر، مصراع، والرجز كله مجزوء، بعد أن قُصِّدَ بفترة طويلة، كان قصيدا على منوال القصيدة، انتقل إلى أن الشطر بيت، فأصبحت القافية واحدة في كل الشطرات، يعني أصبح الراجز مطالبا بضعف

---

[21] نص كلام الباقلاني هو:(وكقوله –عز، وجل- "..." ضمنه أبو نواس في شعره، ففصله، وقال فذاك الذي، وشعره(...). وكل ما خططت تحته خطا فهو كلام الباقلاني في إعجاز القرآن.

[22] خدو بالكو فكرة أبي نواس دي ستظل عبر الدهور إلى يومنا هذا، وهختم بيها الكلام بتاعي معاكم، واحد عمل نفس الكلام ده في القرآن كله بقى.

القوافي بعدما كان مطالبا بنصفها، فأصبح العروض هو الضرب، والضرب هو العروض[٢٣].

إحدى الطالبات: هل يُعَدُّ هذا شعرا، هذا البيت؟

أ.د. سالم عياد: لا، لا يكون السؤال هكذا[٢٤]، لكنْ قولي:

متى نعد النص شعرا؟

النقاد اجتمعوا منذ زمن بعيد على أن تكون المقطعة لا تقل عن سبعة أبيات، لكن شخصا – كما قال أحد العلماء – قال: من يشتري باذنجان، مستفعلن فاعلان يكون قد قال شعرا! شخص ينادي على باذنجان يكون قال شعرا! أيكون شاعرا![٢٥]

النبي – عليه الصلاة والسلام! – ارتجز مرتين، ارتجز يعني قال بيتا من الرجز مرتين، مثلا:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب.

---

[٢٣] والبيت كمان مجزوء، بعد أن قُصِّد، رؤبة والعجاج والكلام ده في الكتاب بتاعي هنا يعني بقى الرجز مطالب بضعف القوافي بعدما كان نُص القوافي (...) بقى العروض هو الضرب والضرب هو العروض.

[٢٤] لأ، مش البيت شعر، ما تقوليش كده، قولي متى نعد النص شعرا؟

[٢٥] (...) تبقى قصيدة، تبقى شعر! لكن واحد زي ما قال أحد العلماء بيقول: من يشتري باذنجان مستفعلن فاعلان، يبقى قال شعر، واحد بينادي على بدنجان يبقى قال شعر، هذا شاعر! لأ! ورد أستاذنا الكريم بدعابته الحاضرة: خُضَري!

فهل يعد النبي- صلى الله عليه، وسلم!- شاعرا مادام قال في حالة انفعال شديد، وفي موقف حاسم تتراءى فيه المنايا؟

أحد الطلاب: لكنه لم يقصده.

أ.د. سالم عياد: لم يقصده، وحتى لو أنه قصده فليس شعرا، ومن هنا كانت قضية نفي الشعر عن الرجز أيضا، ليس عن القرآن فحسب، لأن النبي قد ارتجز، من الأسباب التي دعت العلماء إلى نفي الشاعرية عن الرجز لأن النبي قد ارتجز مرة أو مرتين فقالوا: لا، الرجز كله ليس شعرا، لا إله إلا الله! [٢٦]

إحدى الطالبات: هو أحيانا كان يردد شعر بعض الشعراء، فهل كان يغيره؟

أ.د. سالم عياد: نعم، كان يتمثل ببعض الأبيات، لكنه كان يكسرها عمدا، عليه الصلاة والسلام؛ حتى لا يقال إنه راوية للشعر أيضا؛ فهو ليس شاعرا، وليس راوية للشعر، صلى الله عليه، وسلم! [٢٧]

ولكي نثبت صحة نظرية الباقلاني فإن أحد العروضيين، وأعتقد أنه صفي الدين الحِلِّيّ [٢٨]، عمل لنا مفاتيح للأبحر كما تُسَمّى، نظم بيتا من

---

[٢٦] (...) ولذلك من هنا قامت قضية نفي الشعر عن الرجز كمان، مش القرآن بس(...) فقالوا لا يبقى الرجز كله ليس شعرا(...) مين قال كده؟ هم.

[٢٧] لما خشي أستاذنا الكريم زيادة المقاطعات لكلام الضيف الكريم نبهنا على أدب من آداب المحاضرات قائلا: علقوا أسئلتكو لو ليكو أسئلة وأفكاركم عشان ما تضيعش.

الشعر، ثم جاء في البيت التالي بتفاعيل البحر، وفي الشطر الأخير آية من كتاب الله- تعالى!- على نفس الوزن، وصدَّر البيت الأول باسم البحر، حفظنا إياها أستاذنا - الله يرحمه!- الدكتور مهدي علام منذ أكثر من نصف قرن - رحمه الله!-، أقرأها عليكم بسرعة ستة عشر بحرا[٢٩]:

١ أَطالَ عَذولي فيكَ كُفْرانَهُ الهوى[٣٠] وآمنتَ يا ذا الظَّبْي فَأْنَسْ ولا تَنْفِرْ

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفرْ}

---

[٢٨] الهاشمي "ميزان الذهب": ١٢١؛ فقد ذكر أنها للشهاب، وعلق محققه علاء الدين عطية: "الشهاب أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، قاضي القضاة، وصاحب التصانيف، نسبة إلى قبيلة خفاجة، ولد ٩٧٧هـ، ونشأ بمصر، تنقل في البلاد الإسلامية قاضيا ومعلما، متصلا بالأمراء والملوك إلى أن استقر به الأمر في مصر، فعاش بها حتى توفي ١٠٦٩هـ، وله تصانيف كثيرة منها: ريحانة الألبا، حاشية على تفسير البيضاوي، قلائد النحور في جواهر البحور في العروض. الأعلام: ١/ ٢٣٨.

[٢٩] حفظها لنا أستاذنا –الله يرحمه!- الدكتور مهدي علام (...) هاقراها عليكم بسرعة ١٦ بحر.

[٣٠] في هذه الأبيات حوار متكرر بيننا وبين ضيفنا الكريم يسأل فيه عن اسم البحر فنجيب، مثل: أطال يبقى إيه؟ طويل.

في سورة الكهف {إِنّا أَعْتَدْنا لِلظّالِمِينَ نارًا أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها}
الكهف: ٢٩ إلى آخره.

٢ إني بسطتُ يدي أدعو على فئةٍ لاموا عليكَ عسى تخلو أماكنُهُمْ
مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن {فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهُمْ}

الأحقاف.

٣ يا مديدَ الهجرِ هل من تلاقٍ فيهِ آياتُ الشفا للسقيمِ[٣١]
فاعلاتن فاعلن فاعلاتن {تلك آياتُ الكتابِ الحكيمِ}

في لقمان.

٤ خفَّ حَمْلُ الهوى علينا ولكنْ ثقلتْهُ عواذلٌ تترنمْ
فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن {ربنا اصرفْ عنا عذابَ جهنمْ}

في الفرقان.

٥ كَمُلَتْ صفاتُكَ يا رشا وأولو الهوى قد بايعوكَ وحظُّهمْ بكَ قدْ نما
متفاعلن متفاعلن متفاعلن {إنَّ الذينَ يُبايعونكَ إنَّما}

---

[٣١] شوفوا انا بقراها ازاي: "فيه آيات الشفا للسقيم". البنية الإيقاعية يُعَوَّل عليها في قراءة الشعر العربي.

في الفتح.

٦ **يا راجزًا باللومِ في موسى الذي ألقى العصا قدْ أسكتتْ منْ قدْ بَغى**

مستفعلن مستفعلن مستفعلن {اذهبْ إلى فرعونَ إنهُ طَغى}[٣٢]

٧ **إنْ رَمَلْتُمْ نحوَ ظبيٍ نافرٍ فَاسْتَميلوهُ بِداعي أُنْسِهِ**

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن {ولقدْ راوَدْتُهُ عن نفسهِ}

يوسف.

٨ **سارعْ إلى غزلانِ وادي الحمى وقلْ أيا غيدُ ارْحَموا صبكُمْ**

مستفعلن مستفعلن فاعلن {يا أيها الناسُ اتَّقوا ربَّكُمْ}

في الحج وفي الإنسان.

٩ **تنسرِحُ العينُ في خُديدِ رشًا رمى بسهمٍ وقالَ خُذْهُ بفي**

مستفعلن مفعُلاتُ مستعلن {هو الذي أنزلَ السكينةَ في}[٣٣]

---

[٣٢] عقب على البيتين بقوله: غير قراءة العالم أو قراءة القارئ للقرآن، الأداء مش في دماغه، إنما هو يخضع النص القرآني لعلم التجويد، ومالوش دعوة بعلم العروض فما يكتشفش حاجة.

[٣٣] أكمل الآية "في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا"، ثم عقب على البيتين بقوله: خدو بالكو عَمّال يِقَصْقَص ان شا الله حرف!

١٠ لئن تَهْزَجْ بعشاقٍ فهم في عشقِهِمْ تاهوا

مفاعيلن مفاعيلن {وقالوا حسبُنا الله}

في آل عمران وفي التوبة.

١١ غرامي بالأحبةِ وَفَّرَتْهُ وشاةٌ في الأَزِقَّةِ راكزونَا

مفاعلتن مفاعلتن فعولن {إذا مروا بهم يتغامزونَا}

١٢ اقْتَضِبْ وشاةَ هوًى في هواكَ جادَلَهُمْ

فاعلاتُ مُسْتَعِلُنْ {كلما أضاءَ لَهُمْ}[٣٤]

البقرة: ٢٠

١٣ أُجْتُثَّ مَنْ عابَ ثَغْرًا فيهِ الجُمانُ النَّظيمُ

مستفعلن فاعلاتن {وهْو الغفورُ الرحيمُ}

يونس.

١٤ تَقارَبْ وهاتِ اسْقِني كأسَ ماءٍ وباعِدْ وُشاتَكَ بُعْدَ السماءِ

فعولن فعولن فعولن فعولن {وإنْ يستغيثوا يُغاثوا بماء}

الكهف: ٢٩.

١٥ إلى كمْ تُضارِعونا فتًى وجهُهُ مُنيرُ

---

[٣٤] مقتضب، متعب قوي! وكان ضيفنا الكريم يكمل الآيات الوارد بعضها ناقص المعنى في الأبيات المذكورة؛ كأن يقول في مثل "كلما أضاء لهم" مكملا "مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا".

مفاعيلن فاعلاتن {هوَ اللطيفُ الخبيرُ}

آخر بحر هو المستدرك أو المتدارك الذي يدعي بعض العلماء أنه ليس من وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولكنَّه من وضع تلميذه، فالحق أنه من وضع تلميذه سعيد بن مسعدة الأخفش الأصغر، اسمه المتدارك، استدركه تلميذه عليه.

١٦ دارِكْ قلبي يلثم ثَغْرًا في مَبْسِمِهِ نَظْمُ الجَوْهَرْ

فعْلن فعْلن فعْلن فعْلن {إنا أعطيناكَ الكوثرْ}

سورة الكوثر.

إنما مخلع البسيط لم ينسه صفي الدين الحلي[٣٥]، قال:

١٧ خلَّعتَ قلبي بنارِ عشق تصلى به مهجتي الحرارهْ.

مستفعلن فاعلن فعولن {وقودها الناس والحجارة}.

في البقرة وفي التحريم.

وفي غير هذه المتون العروضية نقف قدام القرآن الكريم خاشعين نستخرج منه أمثلة، لا نستطيع طبعا أن نخرج كل النصوص القرآنية التي تخضع لهذه الأوزان، أو- أستغفر الله في التعبير!- الأوزان أو الإيقاعات التي تتواءم مع آيات القرآن الكريم، فالقرآن أصل، والإيقاعات فرع، وأنا من سنين منذ أن كنت في مثل سنكم وأنا معني بهذا الموضوع، لأني

[٣٥] فيه كمان اسمه مخلع البسيط، برضه مانسيهاش الراجل.

كنت قديما أقول شعرا، فكنت حافظا أوزان – وما زلت، والحمد لله – حافظا أوزان الشعر العربي الستة عشر؛ فعندما أقرأ القرآن أضع – وربنا يسامحني – تحت الجملة أو التركيب العروضي كما قال أستاذكم خطا، فتجد مصحفي كله مخططا من أول البقرة إلى آخر الناس، كل صفحة فيها ثلاثة خطوط أو أربعة، ومرة بالأحمر، ومرة بالأزرق، وقد أحضرته معي[٣٦].

أ.د. محمد جمال صقر: هذه هي البقرة التي تزعمون أن لا شيء فيها!

أ.د. سالم عياد: البقرة مليئة.

أ.د. محمد جمال صقر: يقولون إنهم لا يجدون فيها شيئا!

أ.د. سالم عياد: لا![٣٧]

لنر سريعا لكي لا نضيع وقتكم.[٣٨]

---

[٣٦] (...) وانا من سنين منذ كنت في سنكو وأنا معني بهذا الموضوع، لأني كنت زمان وانا عيل صغير بقول شعر، فكنت حافظ(...) فلما اقرا القرآن أحط –وربنا يسامحني– تحت الجملة أو التركيب (...) خط؛ فتلاقي المصحف بتاعي مخطط. فكأن طالبا قال مداعبا الضيف الكريم: ناخد المصحف، أو ناخد البقرة، فرد ضاحكا: لا، تاخدوا إيه! دا انتو تاخدوني، وما تاخدوش البقرة! فقال أستاذنا الكريم مشاركا: إن البقر تشابه علينا! وحاول أن يرينا بعض صفحات المصحف.

[٣٧] قال أستاذنا الكريم: أهي البقرة اللي بتقولوا مافيهاش حاجة، فرد ضيفنا الكريم: لا ده البقرة مليئة، فقال أستاذنا الكريم: بيقولوا مش لاقيين حاجة في البقرة! فنفى ضيفنا الكريم: لا.

في **الوافر** مثلا، وهو من أشهر الأبحر المنتشرة في القرآن، اسمعوا مني سريعا أمثلة لا نستطيع أن نحصيها طبعا، حتى في الآية التي فيها نفي الشعر عن القرآن[39]:

- {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ} الشعراء: ٢٢٥، مفاعلتن مفاعلتن فعولن.

حتى في الآية التي تنفي الشعر عن القرآن فيها، سبحان الله**!**

إحدى الطالبات: حتى عبارة (والشعراء يتبعهم الغاوون).

أ.د. سالم عياد: نعم، حتى هذه الآية فيها كلام، فيها موسيقية.

- {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ} الشعراء: ٢٢٥.
- {وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} البقرة: ٦٨.
- {إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبوهُ} البقرة: ٢٨٢.
- {فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانوا مُهْتَدينَ} البقرة: ١٦، وقف عند (كا) فقط؛ اكتملت التفعيلة.[40]
- {وَأَنَّ اللهَ مُخْزي الْكافِرينَ} التوبة: ٢.

---

[38] نشوف كده بسرعة سريعة عشان ما نضيعش وقتكو.

[39] اسمعوا مني سريعا أمثلة ما نقدرش نحصيها طبعا، حتى في الآية اللي فيها نفي الشعر عن القرآن.

[40] قرأها ضيفنا الكريم: "فما ربحت تجارتهم وما كا/ نوا مهتدين" موضحا الوزن. أقف عند (كا)، اكتملت التفعيلة، أقف عندها، خلاص.

- {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذينَ} آل عمران: ١٤٢ ، وقف عند (الذين).
- {وَيَأْبى اللهُ إِلّا أَنْ يُتِمَّ} التوبة: ٣٢ .
- {وَأَنَّ اللهَ عَلّامُ الْغُيوبِ} التوبة: ٧٨

وفي التوبة أيضا جاء جزء من آية على وزن الوافر التام، انتبهوا، لكي لا أكون مخطئا الوافر ليس تاما، الوافر يعد مجزوءا كما قلت الآن، الأصل أن لدينا من النصوص الشعرية القديمة ما جاء على وزن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن أصل دائرته العروضية، فعندما يدخل القطف في تفعيلتي العروض والضرب تُحَوَّل (مفاعلتن) إلى (فعولن)، يعد إذن مجزوءا وليس تاما، وصدق الباقلاني، وصدق كل المخلصين لله ولرسوله وللقرآن الكريم وللمؤمنين.

انتبهوا، فهناك فروق، في سورة التوبة:

{قاتِلوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْديكُمْ} التوبة: ١٤ انتبهوا معي! كيف يقرأ القارئ هذه الآية {وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدورَ قَوْمٍ مُؤْمِنينَ}، كيف أقرأها أنا؟ (ويخزهمو/ وينصركم/ عليهم) بإشباع الميم وهذا جائز في الشعر العربي، كل شعرنا العربي هكذا، (ويخزهمو/ وينصركم/ عليهم/ ويشف صدو/ ر قوم مؤ/ منينا).

فهذا ليس بيتا، لم؟ لأنه من الوافر، و الوافر لو تم تمامه لا يعد بيتا.[41]

---

[41] (...) خدو بالكو بقى عشان ماكونش مخطئ (...) أصل الدائرة العروضية بتاعته فلما يبقى يدخل القطف التفعيلة بتاعة العروض والضرب

- {أولئِكَ لَمْ يَكونوا مُعْجِزينَ} هود: ٢٠.
- {أَحَلّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ} إبراهيم: ٢٨.
- {وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذينَ} البقرة: ٢١٤.
- {وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الْجَلالِ} الرحمن: ٢٧.
- {بِسيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصي} الرحمن: ٤١.
- {كَلامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفونَهُ} البقرة: ٧٥.
- {أولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبيلٍ} الشورى: ٤١

هناك بيت يعجبني، ويخوفني كذلك، ولا أستطيع أن أقوله:

{فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ} البقرة: ٣٨، نقرأها مرات ومرات، مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن، والوافر مفاعلتن مفاعلتن فعولن، كأنه حذف من الوافر تفعيلتيه الأوليين، من الشطر الأول تفعيلة ومن الشطر الثاني تفعيلة، هذا في المجتث نراها الآن.[٤٢]

- {تَعالى اللهُ عَمّا يُشْرِكونَ} النمل: ٦٣

إذن لكي يستقيم الوزن قد يزيد الله في النص القرآني حرفا، وقد يحذف – سبحانه، وتعالى!- حرفا، طبعا عمدا، ليس هناك شيء في القرآن سهوا، أستغفر الله ألف مرة، كل ما جاء في القرآن وفي غير القرآن عن الله – تعالى!- عمد وكان بوسع الله – سبحانه، وتعالى!- أن يحذف ما شاء،

[٤٢] طب فيه بيت عاجبني قوي ومخوفني ومش قادر أقوله (...) الحكاية دي في المجتث، هنشوفها دلوقتي.

وأن يضيف ما يشاء، لكن بما أنه عمد إلى زيادة حرف قصد أن لا يكون بيتا تاما، أو أنقص حرفا، أو زاد حرفا، أو أنقص كلمة، أو زاد كلمة، قاصدا أن يقرأ المسلم النص فيشعر بموسيقية يطرب لها ولا يعرف لها مصدرا إلا الشعراء.

أما إذا انتقلنا إلى **وزن الرجز** – هذا بعد الوافر بسرعة – نجده أكثر انتشارا في القرآن الكريم من غيره، حتى لفت ذلك نظر أحد العلماء الأجلاء تصوروا من يكون؟ هو فضيلة الشيخ محمود محمد خطاب السبكي، شيخ الجمعية الشرعية الأول، لفت نظره هذا، فراح يتتبع إيقاعات الرجز في كتاب الله – تعالى!– وأنا تعرضت لهذا وأنا أكتب كتابي عن الرجز، سبحان الله! له كتاب رائع جدا اسمه "المقامات العلية"، فجمع فيه سبعا وأربعين آية جاءت على هذا الوزن، وقد راجعت ذلك على فضيلته، لا أخفي عليكم، فوجدته صدقا وحقا، لكن أنا لو أني الذي بدأت كنت أخرجت عشرين أو ثلاثين، لكنه أخرج سبعة وأربعين، ويمكن أن يخرج أحدكم أكثر، الله أعلم، لأن المسألة تحتاج لفيفا من الشعراء أو من المهتمين بالموضوع، لفيف من الشعراء يضعون الفكرة في أذهانهم، ويقرؤون أداء شعريا، وأنتم تعرفون الفرق بين الأداء الشعري والأداء القرآني.

انظروا هذه الأمثلة السريعة[3]:

- {يُثَبِّتُ اللهُ الّذينَ آمَنوا} إبراهيم: ٢٧.
- {حَتّى يَخوضوا في حَديثٍ غَيْرِهِ} النساء: ١٤٠، في النساء والأنعام.
- {تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ} البقرة: ٢٥٦.
- {في لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَما أَدْراكَ ما} القدر: ١، مستفعلن مستفعلن مستفعلن.
- {يُريدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ} الأعراف: ١١٠.
- {وَرَبُّكَ الْغَفورُ ذو الرَّحْمَةِ لَوْ} الكهف: ٥٨.
- {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكًا} الحج: ٦٧.
- {يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا اصْبِروا} آل عمران: ٢٠٠.
- {إِنْ يَنْتَهوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قدْ سَلَفَ} الأنفال: ٣٨.

كثير جدا، سبعة وأربعين، وتفعيلة مستفعلن يا أولادي، معروف انتشار فن الرجز في العصور الأدبية القديمة، وهذا قلته في كتابي، فهو

[3] تصوروا مين قبلنا واحنا نايمين! (...) وانا اتعرضت لهذا وانا بعمل كتابي بتاع الرجز (...) لكن انا لو انا اللي بدأت كنت طلعت عشرين تلاتين، لكن هو طلع سبعة واربعين، يمكن واحد هنا يطلع اكتر، الله أعلم، لأن المسألة مش عايزة واحد، عايزة لفيف من الشعراء، شوفوا بقى الأمثلة سريعا، وهي هنا في الدفتر كاملة.

أصل الشعر ومبتداه؛ أولا كان الشعر سجع كهان، ثم رجز، ثم تطور، فأصبح شعرا، هذا الكلام في كتابي بالتفصيل[44].

تفعيلة (مستفعلن) سببين خفيفين ووتد مجموع، ما سر انتشارها في الشعر وفي القرآن كله؟ لأن تفعيلة (مستفعلن) التي يبنى عليها وزن الرجز اشتركت في التشكيل الموسيقي لسبعة أبحر، مثل البسيط والسريع والخفيف والمنسرح والمقتَضَب والمُجْتَث والكامل. الكامل! الكامل (متفاعلن)، إذا أُضمِر يعني دخله زحاف الإضمار تسكين الحرف الثاني (متَفاعِلُن) تصبح (مُتْفاعِلُن)- فتساوي (مُسْتَفْعِلُن)، وانتبهوا، ظاهرة موسيقية في قراءة الشعر بعامة أتحدى لو أن شاعرا كتب قصيدة في بحر الكامل فلم يُضْمِرْ فيها، بل يمكن – أستغفر الله إن قلت – في كل بيت، بل أستغفر الله إن قلت في كل بيت أكثر من تفعيلة، ولا يُثبت أن هذا البيت أو أن هذه القصيدة من الكامل إلا ورود (متَفاعِلُن) مرة واحدة، يعني ورود فاصلة صغرى مرة واحدة ثلاث متحركات فساكن فمتحرك فساكن، لم؟ لأنه في البيت يجوز تسكين المتحرك، ولا يجوز تحريك الساكن، نحن اتفقنا أن الحركة ثقيلة والسكون خفيف، فكلما أراد الشاعر أن يخفف زاد النص جمالا في الجرس، في الموسيقى، في الإيقاع في الأذن، فهو يسكِّن دائما، يُضْمِر، يسكن المتحرك ولا يحرك الساكن؛ لو حرك

---

[44] (...) وده اللي انا قايله في كتابي بالتفصيل (...) الأول كان الشعر سجع كهان وبعدين بقى رجز وبعدين تطور وبقى شعر، الكلام ده في كتابي بالتفصيل.

الساكن لانكسر الوزن، لأجل ذلك لا توجد قصيدة – أعتقد – قصيدة كاملة من الكامل تخلو من الإضمار، بل يمكن في كل بيت، والشاعر لا يقصد، وإنما يأتي الإضمار عفويا.[45]

أما إذا انتقلنا من الرجز إلى **الكامل** فهو أقل انتشارا من سابقيه، من الوافر ومن الرجز، لا يوجد منه إلا ثلاث أو أربع شَطَرات، أو هكذا ما أعرفه، لو قرأتم أنتم بتأنٍّ ربما تستخرجون نصوصا أخرى.

- {وَكَفى بِرَبِّكَ هادِيًا وَنَصيرًا} الفرقان: ٣١.
- {أَمّا ثَمودُ فَأُهْلِكوا بِالطّاغِيَةِ} الحاقة: ٥.
- {إِنَّ الّذينَ يُبايِعونَكَ إِنَّما} الفتح: ١٠.
- {وَاللهُ يَهْدي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ} البقرة: ٢١٣.

نقول عنه مجزوء، تعرفون أن التام ست تفعيلات، إذا بني على أربع صار مجزوءا، وعلى ثلاث صار مشطورا، وعلى اثنتين صار منهوكا[46].

مما بُني على اثنتين:

- {فَيَقولُ رَبّي أَكْرَمَنِ} الفجر: ١٥ ، متَفاعلن متْفاعلن.

---

[45] (...) سر انتشارها في الشعر وفي القرآن كله ليه؟ (...) البسيط مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن، كل الأبحر اللي هقولها دلوقتي فيها التفعيلة دي (...) متَفاعلن، متْفاعلن، مستفعلن (...) وخدو بالكو ظاهرة موسيقية بقى (...) احنا اتفقنا (...) عشان كده ما فيش قصيدة (...) بتيجي كده عفوية.

[46] علق: (...) كم تفعيلة؟ واحد اتنين تلاتة أربعة ونص، انتو عارفين (...) إذا بني على أربعة يبقى مجزوء، على تلاتة يبقى مشطور، على اتنين يبقى منهوك.

- {وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَديدٍ} الحج: ٢١، مُتَفاعِلُن مُتَفاعِلُن أو مُتَفاعِلاتُنْ وهذا تَرْفيل، الترفيل زيادة حرفين.

- {مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجيلَ} آل عمران: ٣، هذه قراءة القارئ العادي، أما القارئ الشاعر فيقرأ: مصدقا لما بين يدي/ هِ وَأَنْزَلَ التَّوراةَ والإنْجيلَ، متفاعلن متْفاعلن متْفاعلن، ثلاث تفعيلات، الأولى فيهن متفاعلن، والاثنتين الأخريين فيهما إضمار.[٤٧]
- {وَلِيَعْلَمَ اللهُ الّذينَ آمَنوا} آل عمران: ١٤٠، لام التعليل وليست لام الأمر، لتعطيني فاصلة صغرى، لو (وَلْيَعْلَمَ) لصارت من الرجز.
- {وَلِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ} النحل: ١٤.
- {وَأُتوا بِهِ مُتَشابِهًا} البقرة: ٢٥ .
- {يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ} البقرة: ٢٢٥، اثنتين أيضا[٤٨].

لو انتقلنا إلى الأبحر الطويلة مثل **المتقارب** ذي التفاعيل الثمانية الصافية، ولكنه لم يرد في القرآن إلا مصراعا، أربع تفعيلات على الأكثر.

---

[٤٧] "هِ وأنزل التوراة والإنجيلا" عملت لنا متفاعلن متفاعلن متفاعلن، ثلاث تفعيلات والأولى منها متفاعلن والاتنين التانيين فيهم إضمار.

[٤٨] لكنهما اثنتان من وزن الوافر لا الكامل: يُؤَاخِذُكُمْ=مفاعلتن، بِمَا كَسَبَتْ=مفاعلتن!

- {أَقيموا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكاةَ} البقرة: ٨٣ ، في البقرة ٨٣ و٤٣ و ١١٠، وفي الحج ٨٨.
- {فَذوقوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرونَ} آل عمران: ١٠٦ ، في آل عمران[٤٩].

وما يكون مصراعا ورد كثيرا، مصراع يعني شطرا:

- {وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ وَالْأَرْضِ} الرعد: ١٥، يقف عند واو السماوات، لكي تكمل التفعيلة.
- {وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ} البقرة: ٣.[٥٠]

وقد يرد على هيئة بيت تام، لولا أن لفظ الجلالة في وسطه قد أخرجه من هذا الوزن، وهو قوله تعالى، انتبهوا، المسألة فصل وعمد من المولى – عز، وجل! –، انتبهوا، كيف سيستقيم! لذلك نريد شاعرا يقرأ النص، انظروا معي:

- {وَللهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ} فسد الشطر الثاني تعرفون لو أن لفظ الجلالة هذا استبدل - أستغفر الله - في غير القرآن الكريم بضميره: (ولله ملك السماوات والأرض و(هو) على كل شيء قدير) - لاستقام الوزن، فلو ناب

---

[٤٩] قرأها بإشباع ميم (كنتم).

[٥٠] قرأها بإشباع ميم (رزقناهم).

عن لفظ الجلالة ضميره (هو) لاستقام الإيقاع، ولكن لم يشأ الله ذلك– سبحانه، وتعالى!.[51]

من الأوزان الصاخبة أيضا وزن **السريع**، فلا يرد في القرآن إلا على وزن مصراع واحد، مثل قوله: {يا أَيُّها النّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُمُ} البقرة: ٢١. لو قرأناها قراءة القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم {يا أَيُّها النّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُمُ} لن يخطر على بال أي قارئ للقرآن أن فيها موسقة شعرية إطلاقا، إنما لو قرأتها بميزان الشعر العربي: يا أيها النْ/ ناسُ اعْبدوا/ ربكمُ.

وعلى وزنها أيضا: {يا أَيُّها النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ} النساء: ١، ومثل ذلك في النساء والمؤمنون، ولم أقف هنا كثيرا، لأجل الوقت فقط.[52]

من الأوزان الصافية المنتشرة في الشعر **الهزج** لأنه وزن، أستغفر الله إن قلت وزن راقص، مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن، يصلح للأناشيد و الغزل، فقد وافقت بعض الآيات القرآنية هذا الإيقاع مشطورا، يعني تفعيلتين اثنتين فقط مثل: {يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ} البقرة: ٢٨٤، مفاعيلن مفاعيلن.

قد يرد مرة على أربع تفعيلات، أيضا قضية كسر الوزن، {الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْروفٍ أَوْ تَسْريحٌ بِإِحْسانٍ} البقرة: ٢٢٩، أليس

---

[51] باظ الشطر التاني، بالكو لو إن لفظ الجلالة ده استبدل بضميره.

[52] قيلت: وماوقفتش هنا كتير عشان الوقت بس.

كذلك؟ تصوروا فإمساكٌ/ بمعروفٍ/ وتسريحٌ/ بإحسان. لكن فسد المعنى كذلك – أستغفر الله العظيم – لأن (أو) غير (و)؛ (أو) للتخيير، والأخرى للعطف، يعني أريد أن أقول لكم فقط إن الله – سبحانه، وتعالى!– هو الذي يعمد إلى كسر الوزن، يعمد عمدا إلى كسر الوزن، لئلا يكون القرآن شعرا، لكن به موسقة الشعر، وأنغام الشعر، وتفاعيل الشعر، وإيقاعات الشعر.[٥٣]

وعلى نفس المنوال يجري وزن **المتدارك**، وهو صاف أيضا، مبني على فاعلن، كان أصل المتدارك فاعِلُن فاعلن فاعلن فاعلن، ماذا حدث فيه؟ سقطت الألف، فصار فَعِلن، ماذا نقول عنه؟ نعم خبن، أو يدخله قطع يُحَوِّل الوتد الأخير إلى سبب خفيف، أو سببين خفيفين، وقد يختلطان معا فعِلن فعْلن، فمما يوافقه في القرآن مصراع فقط، يعني ليس بيتا كاملا، هو: {لَوْ شاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ} البقرة: ٢٢٠، فعْلن فعْلن فعِلن فعِلن.[٥٤]

ومما يُبنى على ست:

---

[٥٣] (...) القضية بتاعة كسر الوزن (...) مش كده؟ (...) بس فسد المعنى كمان (...) يعني عايز اقول لكم بس.

[٥٤] وعلى نفس المنوال (...) حصل فيه إيه؟ (...) نقول عليه إيه؟ خبن (...) يعني مش بيت كامل.

- {ثُمَّ ازْدادوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} آل عمران: ٩٠، انظروا: ثُمَّ از/ دادوا/ كُفرًا/ لنْ تُقْ/ بَلَ تَوْ/ بَتُهُمْ، كلها إما فَعِلُن أو فَعْلُن.

وما يبنى على ست تفعيلات يعد حدا أقصى، في مثل قوله – تعالى!-:

- {وَتِلْكَ الْأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ} آل عمران: ١٤٠ ، ستة، فعْلن فعْلن فعِلن فعِلن فعْلن فعْلن، ومثله:
- {إِنْ تُبْدوا ما في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفوهُ} البقرة: ٢٨٤ ، فعْلن فعْلن فعْلن فعِلن فعْلن فعْلن، هذه الأوزان الصافية.

أما الأوزان المزدوجة فأكثرها انتشارا في الشعر هو **الطويل**، كلنا نعرف ذلك، معلومة معروفة عند كل المتأدبين، لكنَّ القلة والندرة حظه في القرآن، ما هذا! هو أكثر أوزان الشعر العربي انتشارا، الطويل، لكن في القرآن سبحان الله! لكي تثبت صحة نظرية الباقلاني من ألف عام، ما ورد في القرآن بضع شطرات، فعندما نأتي إلى الأوزان الطويلة الكبيرة الصاخبة الضخمة التي انتشرت، وحفل بها الشعراء قديما من الجاهلية حتى اليوم - نجد القرآن الكريم يعرض عنها، سبحانه، تعالى!، لكنَّ حظه في القرآن القلة والندرة، أو ربما – أنا أقول عن نفسي – لم يفتح الله علينا إلا بقوله– تعالى!- على وزن مصراع واحد وهو {فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ} الكهف: ٢٩، لم يفتح الله علينا إلا بهذا، ربما لو قرأنا القرآن مرة أخرى أو مرات لفتح الله علينا بغيره.

وكذلك **البسيط**، فلم أعثر إلا على قوله – تعالى! – الذي وجده الحِلِّيّ: {فَأَصْبَحوا لا يُرى إِلّا مَساكِنُهُمْ} الأحقاف: ٢٥، في الأحقاف، وكذلك قوله – تعالى! -: {وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} البقرة: ٢٤٧.

وربما ورد شيء على وزن منهوكه، يعني تفعيلتين اثنتين مستفعلن فاعلن، أو من الطويل فعولن مفاعيلن، ربما، ولم ألتفت إليه، جل من لا يسهو، يعني ما بني على تفعيلتين اثنتين، ولكن حتى الآن لم أعثر عليه ولا على منهوك سابقه الطويل، إن جازت هذه التسمية، لأننا لا نقول البسيط والطويل منهوك، وإن جازت هذه التسمية، لكن ربما توجد في القرآن أو لا توجد.

أما **مخلع البسيط** فقد ورد في القرآن منه أو على وزنه أو على إيقاعه أمثلة أعتقد أنها ثلاثة:

- {وَقودُها النّاسُ وَ الْحِجارةُ} البقرة: ٢٤، التي اكتشفها الحِلِّيّ.
- وكذلك قول الله – تعالى! -: {فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسولٌ} البقرة: ٨٧ ، مستفعلن فاعلن فعولن°°.
- {يا لَيْتَني مِتُّ قَبْلَ هذا} مريم: ٢٣ ، مستفعلن فاعلن فعولن.

أما **الخفيف** وهو من البحور المزدوجة والمنتشرة في الشعر العربي، فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، خطير، فقد ورد في القرآن ما يوافق وزنه

°° سأل أحد الطلاب ضيفنا الكريم مستوضحا: هل حذفت من الآية همزة (أفكلما)؟ فأجاب: أنا حاذف الهمزة.

منهوكا أو مشطورا، فالمنهوك ما بني على تفعيلتين مثل قوله – تعالى! –: {وَاتَّقوا يَوْمًا تُرْجَعونَ} البقرة: ٢٨١، مستفعلن مستفعلن، وهنا يوجد سبب خفيف في الآخر في مستفعلن ومتفاعلن، الرجز والكامل يجوز فيه زيادة حرف في الآخر أو حرفين التذييل والتسبيغ والترفيل، وقد يرد مصراعا أي شطر مثل:

- {وَيُريدونَ أَنْ تَضِلّوا السَّبيلَ} النساء: ٤٤، فعلاتن متفعلن فاعلاتن.
- {إِنَّ قارونَ كانَ مِنْ قَوْمِ موسى} القصص: ٧٦، فاعلاتن متفعلن فاعلاتن.

وقد يوافق الوزن التام، مثل قوله – تعالى! –: {وَسارِعوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقينَ (١٣٣) الّذينَ} آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤، أرأيتم بكم آية مررنا! {وَسارِعوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} هذه خارج الميزان أما أول الكلام الموزون فهو: (جنة عر/ضها السما/ وات والأر/ض أعدتْ/ للمتقي/نَ الذين). فما هذا؟ بيت كامل تام؛ فاعلاتن متفعلن فاعلاتن فعلاتن مستفعلن فاعلاتن[٥٦].

---

[٥٦] (...) شوفوا عدّينا على كم آية! "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم" خلاص دي بره الميزان، أول الكلام الموزون بقى، أوله إيه؟ (...) طلعت إيه؟ كامل تام.

وأما الرباعية فقد اكتشفها الباقلاني حين قال: {مَنْ تَزَكّى فَإِنَّما يَتَزَكّى لِنَفْسِهِ} فاطر: ١٨، سبقنا بألف سنة.

أما توأمه **المديد**، وما توأمه؟ ولدا من رحم واحدة، الخفيف فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، المديد فاعلاتن فاعلن فاعلاتن، ما الفرق بينهما؟ في التفعيلة الوسطى سبب خفيف واحد يحذف من (مستفعلن) فتصير (فاعلن)، لذا سموه توأمه[٥٧]، وعلى فكرة القارئ للشعر العربي يجد الخفيف منتشرا، والمديد نادرا، كأن أخاه الأكبر قد ابتلعه، ابتلع المديد، ليس عندنا إلا بضع قصائد من التراث قديما يَعْزِفُ الناس عنها، فليس منتشرا لا في القديم ولا في الحديث، المديد هذا لم يرد إلا نادرا، فلا فرق بينهما إلا التفعيلة الوسطى، كذلك لم يرد وزنه في القرآن إلا نادرا، مجزوءا يعني مصراعا، أو منهوكا يعني ما بني على اثنتين، مثل قوله- تعالى**!** -:{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} الإخلاص: ١، تصوروا، قل/ هو اللا/ هُو أحد، فاعلاتن فاعلن، صلب العقيدة**!**

أحد الطلاب: لم أشبعنا؟

أ.د. سالم عياد: لم**!** من أجل موسيقى الشعر.

الطالب نفسه: لكن قبلها ساكن.

أ.د. سالم عياد: قبل ماذا؟.

---

[٥٧] (...) توأمه يعني إيه؟ (...) يفرقوا إيه؟ في التفعيلة الوسطى مستفعلن سبب خفيف واحد يحذف من مستفعلن تبقى فاعلن، فعشان كده سموه توأمه.

الطالب نفسه: قبل الهاء ساكن.

أ.د. سالم عياد: الهاء ضمير يا ابني.

الطالب نفسه: هاء (الله).

أ.د. سالم عياد: أنا أخطأت في النحو؟

بعض الطلاب: يقصد الهاء من كلمة (الله).

أ.د. سالم عياد: نعم، لأني محتاج إلى الإشباع، لأملأ التفعيلة، وهذا جائز في الشعر العربي[٥٨]، طبعا أنتم عارفون. {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}، في لقمان. ومثله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} في الشعراء.

---

[٥٨] حول الإشباع في الآية "قل هو الله أحد" دار هذا الحوار بين بعض الطلاب وضيفنا الكريم:

الطالب: ليه الإشباع هنا؟

أ.د. سالم: ليه! عشان موسيقى الشعر

الطالب: بس قبلها ساكن.

أ.د. سالم: قبل إيه؟

الطالب: قبل الهاء ساكن.

أ.د. سالم: ا الهاء ضمير، يا ابني.

الطالب: هاء (الله).

أ.د. سالم: أنا أخطأت في النحو؟

بعض الطلاب: يقصد الهاء من كلمة (الله).

أما **المنسرح** فهو وزن قليل نادر في الشعر، لأن - أستغفر الله إن قلت - به قلقا في إيقاعه، المنسرح مستفعلن مفعولاتُ مستعلن، التفعيلة الوحيدة التي تنتهي بمتحرك فتستوجب من الناظم أن يكون يقظا جدا، وعلى فكرة لدينا ديوان نادر لا أدري كيف لم تعرفوه ديوان "لزوميات وقصائد أخرى" الذي هو للأستاذ الكبير الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم أبو همام.

أ.د. محمد جمال صقر: إنه أخرج بالإضافة إلى ذلك كتابا مستقلا اسمه من مقام المنسرح، والذي سماه له أحمد عبد المعطي حجازي، قال له سمه من مقام المنسرح، فسماه، إنه رجل منسرحي قديم!

أ.د. سالم عياد: خطير! كله منسرح ومقتضب ومجتث[59].

أ.د. سالم: لأني محتاج إلى الإشباع، عشان املأ التفعيلة، وهذا جائز في الشعر العربي كله، هذا في علم العروض، مش اختراع من عندي.

الطالب: ما انا عارف.

أ.د. سالم: الله يبارك فيك.

[59] (...) أستغفر الله إن قلت به قلقا(...) التفعيلة الوحيدة اللي بتنتهي بمتحرك، فبتستوجب (...) احنا عندنا ديوان نادر ما اعرفش انتو مش عارفينه ازاي، اللي هو "لزوميات وقصائد أخرى" للأستاذ الكبير عبد اللطيف عبد الحليم.

فشارك أستاذنا الكريم معلقا: لا، ده طلع كتاب مستقل اسمه "من مقام المنسرح"، واللي سماه له أحمد عبد المعطي حجازي، قال له سميه من مقام المنسرح فسماه، لا ده عندنا راجل منسرحي قديم، وعلاقته بالمنسرح علاقة عضوية!

أ.د. محمد جمال صقر: وعلاقته بالمنسرح علاقة عضوية! ففي القرآن لا يرد إلا قليلا {وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً} البقرة: ٢٣٧، وقد فَرَضْ/ مُتَفْعِلُنْ، تُمْ لَهُنَّ/ فاعلاتُ، فريضةً/ متفعلن، فهو نادر، حتى في الشعر العربي قليل، أأرجو أن أجده في القرآن الكريم! هو لا يستقطب أنظار الشعراء أنفسهم.

أما **المقتضب** وهو عكس المنسرح وإن كان ثنائيا، فاعلاتن مستفعلن، فهو قليل نادر في الشعر العربي أيضا، وكذلك لا يكاد يرى وزنه في القرآن الكريم إلا لِماما، مثل قوله – تعالى!-:

- {وَاعْفُ عَنّا وَ اغْفِرْ لَنا} البقرة: ٢٨٦ ، فاعلاتن مستفعلن.
- {إن الله كان على}، وأقف، (كل شيء قدير).
- {آمَنَ الرَّسولُ بِما} البقرة: ٢٨٥، فاعلات مستعلن، (مستعلن) يعني فيها طي، سقط الرابع الساكن من (مستفعلن)، (مستفعلن) – كما قلت - تفعيلة الرجز تقبل الزحافات والعلل بكثرة، ولذلك فهي منتشرة – كما قلت - في سبعة أوزان، والرجز وحده منتشر أيضا لأن التفعيلة طيعة، تتحمل الزحافات والعلل: خبن، وطي، وخبل.

وأكمل ضيفنا الكريم: شيء خطير،! كله مقتضب ومنسرح ومجتث.

إذن فالمقتضب من المنسرح بعد حذف تفعيلتيه الأوليين كما تعلمون من الشطرين، يعني المنسرح مستفعلن مفعولاتُ مستعلن، الآخر المقتضب مفعولات مستعلن مفعولات مستعلن.

أما **المجتث** وهو مجتث من الخفيف، يعني منتزع منه بعد حذف، أيضا، تفعيلتيه الأوليين من الشطرين، يعني مستفعلن فاعلاتن – فهو رغم ندرته في الشعر إلا أنه من العجب أن يشيع وزنه في القرآن كثيرا – هذه أوقفتني مذهولا، ولي تعليق سأقوله سريعا، أسأل الله أن نستوعبه – فقد ورد ثنائيا ورباعيا، أي تاما كاملا، كيف؟[٦٠]

- {حَقًّا عَلى الْمُحْسِنينَ} البقرة: ٢٣٦ ، مستفعلن فاعلاتن
- {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنينَ} البقرة: ٢٢٣
- {لا يَسْتَطيعونَ ضَرْبًا} البقرة: ٢٧٣
- {وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ} آل عمران: ٨
- {ذوقوا عَذابَ الْحَريقِ} آل عمران: ١٨١
- {يا أَيُّها الْكافِرونَ} الكافرون: ١

وغير ذلك كثير، قد يكتمل، فيصير أربعا، مثل ماذا؟[٦١]

- {إِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ} الأحقاف: ٢١
- {إِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحيطٍ} هود: ٨٤

---

[٦٠] دي وقفتني مذهول، بس لي تعليق هقوله دلوقتي، بس يا رب نستوعبه(...)إزاي؟

[٦١] (...) يبقى أربعة، زي إيه؟

- {نُبَوِّئُ الْمُؤْمِنينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ} آل عمران: ١٢١ ، (مقاعد للقتال) انكسر الوزن، لكن لو نوَّنّا، لو صرفنا الممنوع وُزن البيت، وهذا جائز في الشعر لا في القرآن، أقول مرة أخرى هذا جائز في الشعر لا في القرآن، يعني - أستغفر الله!- في غير القرآن لو فيه (نبوئ المؤمنين مقاعدًا للقتال) لاستقام الوزن، معي؟

أما **الرمل** فهو فاعلاتن فاعلاتن فاعلن، فلعله لم يرد وزن مصراعه هذا إلا في قوله– تعالى!-: {وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ} يوسف: ٣٢، في يوسف، التي اكتشفها الحِلِّيّ، ولكنه لفت نظر الباقلاني منذ ألف عام، فمثل عليه بقوله – تعالى!-: {لَنْ تَنالوا الْبِرَّ حَتّى تُنْفِقوا مِمّا تُحِبّونَ} آل عمران: ٩٢، وقف عند واو الجماعة[٦٢]، في آل عمران، وكذلك قوله – تعالى!-: {وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدورٍ راسِياتٍ} سبأ: ١٣، وتناولنا هذا، وغير هذا وذاك فقد ورد ثنائيا مثل قوله – تعالى!-:

- {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ} آل عمران: ١٤٦، فاعلاتن فاعلاتن.
- {هذه الْأَنْهارُ تَجْري} الزخرف: ٥١، فاعلاتن فاعلاتن.
- {وَسَنَجْزي الشّاكِرينَ} آل عمران: ١٤٥ ، فعلاتن فاعلاتن.

أما **المضارع** - وهو الأخير- فلا سامحني الله إن أَنْحَيْتُ عليه باللائمة، هو الذي ضارع الهزج، سمي مضارَعا لأنه ضارع الهزج، مفاعيلن، فاعلاتن، يشترط علماء العروض في مفاعيلن أنها تُخْتَم

---

[٦٢] قرئت الآية "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبو" بالوقف عند الواو لبيان الوزن.

بمتحرك، أو فاعلاتن الأخرى تختم بمتحرك، فكيف لو لم تختما بمتحرك، وجاءتا تامتين؟ مفاعيلن، فاعلاتن، ماذا نفعل؟ أتدرون ماذا تكون؟ تكون المجتث، وما عكس المجتث؟ مستفعلن فاعلاتن، ولذلك اختلط بالمجتث كثيرا، عندي كثير من الأمثلة للتفعيلتين التامتين، فلعله كان مضارعا لكن الشاعر وهو ينظم لم ينتبه، أو ربما أكون أنا مخطئا في الفهم، فليس في القرآن الكريم مضارع، أستغفر الله إن قلت ذلك، ربما لو قرأتم أنتم لاستخرجتم شيئا مما غفلت عنه[٦٣]، مثل:

- {لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} البقرة: ١٦٨.
- {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} البقرة: ٢١.

إذن فالآيات القرآنية التي جاءت على وزن من أوزان الشعر العروضية كثيرة جدا، ولكثرتها فقد تفوت على القارئ الذي يؤديها أداء قرآنيا خاضعا لعلم التجويد لا للإيقاع الشعري.

توصيات د.سالم عياد:

١ من يؤدي الأيات القرآنية أداء علم التجويد سيفوت عليه الانتباه للأوزان الشعرية، ليس حراما!

[٦٣] (...) نعمل فيه إيه؟ (...) التانية تختم بمتحرك، واحدة من الاتنين، طيب ما اتختموش بمتحرك وجُم الاتنين تامّين (...) نعمل فيها إيه؟ عارفين تبقى إيه؟ تبقى مجتث، عكس المجتث إيه؟ مستفعلن فاعلاتن (...) عندي مُولِد تام تفعيلتين تامين، فلعله كان مضارع بس الشاعر وهو ينظم ما خدش باله.

٢ نحتاج إلى أكثر من قارئ، ليستدرك كلٌّ ما فات الآخرين.

وقد لا يكون عجيبا إذا قرأ عالم أزهري القرآن الكريم بإتقان وبتأن، فوقف على مئات الآيات التي تُكوِّن مصراعا من وزن ما؛ رجل مازال حيا، والديوان منشور، فراح ينظمها في سلك قطعة شعرية من إنشائه، يختم بالآية الكريمة التي نظم على وزنها قطعته الشعرية، وهذا الأستاذ هو العالم الفاضل الدكتور محمود علي السمان عميد كلية اللغة العربية في إيتاي البارود في البحيرة، أعتقد هذا، أخرج ديوانا كاملا من جزئين كبيرين، توفر لديه من هذا العمل جزآن كبيران، ماذا كان يعمل؟ يضع الآية القرآنية الموزونة، وينسج على منوالها قطعة، أو مقطعة صغيرة أو كبيرة، بيتين أو ثلاثة، ما يفتح الله به عليه، ويختم بهذه الآية، أنا نقلت أمثلة من الكتاب، وللأسف الشديد الكتاب وقع في يدي منذ خمس عشرة سنة، ولم يكن التصوير بالألكترون في هذه الحال منتشر، ففرطت فيه، وأنا نادم عليه، ولم أجده حتى الآن، فاسمعوا بعض الأمثلة التي كتبها[٦٤]:

- **قدموا الشكر لربٍ أكرمِ فهْو من علمكم بالقلمِ**
- **واقرأوا ما اسطعتمُ باسم الذي "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمِ"**

---

[٦٤] (...) الختام اهُه، خدو بالكو قوي (...) فبادر أحد الطلاب قائلا: الدكتور محمود علي السمان (...) يعمِل إيه؟ يحط الآية القرآنية قُدامُه الموزونة (...) الكتاب وقع في إيدي من ١٥ سنة وماكانش التصوير بالألكترون في الحال ده منتشر، ففرطت فيه (...) ووصيت حد يجيبه لي مش لاقيه!

- **يا رسولَ اللهِ ما أعظمَ في الدارينِ أمركْ**
- **يا حبيب الله هذا ربنا يرفع قدرك**
- **قد شرحنا لك صدركْ "وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكْ"**
- **"الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكْ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكْ"**
- **يا أخي فلترفقْ قبل أن يَصْدر حكمُ**
- **ظُنَّ بالمسلم خيرا "إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمُ"**

ديوان من جزأين كاملين للدكتور محمود علي السمان، وهو شيخ أزهري.

- **إن عددنا نعمة الله فلن نَسْتطيع الحصر كي نشكرهُ**
- **لكنِ الْإنسان ينسى ربه "قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ".**

في سورة عبس وتولى.

وقد قدم لهذا الديوان العالم والمحدث الكبير الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم – كلاهما حي يرزق – قدم لهذا الديوان بتقريظ رقيق جدا مما يشجع الناشئة على العمل الدؤوب على اكتشاف مزيد من كنوز القرآن الكريم كتاب الله – تعالى!- وأشكر لكم حسن استماعكم، وشكرا، والسلام عليكم.

أ.د. محمد جمال صقر:

الله الله الله! هذه ليلة مشهودة؛ تجلت فيها أرواح القراء والشعراء، يتنازعون أداء الآيات؛ فأما القراء فيُجوِّدون، ليثبتوا لك أن هذه هي الطريقة، وأن القراءة سنة متبعة، وأن هذا كلام ربنا، يتميز من سائر الكلام بما ينبغي له من تجويد، وأما الشعراء الذين تعودوا على طريقتهم في الأداء فيقرؤون بطريقتهم، وينتبهون، وينبهونك على إحساسهم الخاص.

من أروع الأفكار التي قدمها أستاذنا هذه الفكرة التي تقول لك كأن القرآن الكريم الذي هو دستورنا وأصل الأصول لدينا لم يخل من تأصيل هذا الأصل كذلك مع الأصول الأخرى، فكما أصل أصول الأصوات والصرف والنحو - ها هو أستاذنا يدلنا على أنه أصل أصول أنغام الشعر كذلك، ولكنه في الوقت نفسه يعلمك أنه ليس بشعر، فتفاجأ بكلمة في الوسط، بحرف، بكذا.

ليلة فريدة، لا تتيسر هذه، لا تتيسر، لا أظنها تتيسر! وهذا الموضوع الذي طرحناه لم يعهده الناس في هذه الكلية، وهو غير معهود على العموم، ولم أسمع به حدث في أي مكان؛ فلله الحمد على نعمته.

تسمية أستاذنا للمسألة بأنها "نظام الإيقاع في القرآن الكريم" بدلا من "التراكيب العروضية في القرآن الكريم" تسمية موفقة جدا، كلمة إيقاع، يا جماعة، كلمة عامة تشمل في داخلها العروض، فبينهما

عموم وخصوص؛ كل عروض إيقاع، وليس كل إيقاع عروضا، فالعروض إيقاع خاص، فكلمة إيقاع تشمل العروض، وأستاذنا إذن عبر عن مسألة واشتمل عليها في عنوانه من غير أن يواجه الناس بكلمة عروض الشديدة التعلق بخصائص الشعر، لكن أنا لي طريقتي، أحببت أن نَتَهَدّى إليها سريعا، وعنوان أستاذنا يشمل مع مسألتنا غيرها من المسائل، هذا فرق كذلك، نظام الإيقاع في القرآن الكريم يشمل مع مسألتنا غيرها من المسائل؛ يعني مثلا مما أشاروا إليه أن السورة إذا تسمت بحرف كقاف وصاد وكذا – وهذا الذي دلنا عليه الباقلاني على ما أظن – غلب الحرف عليها، حتى إنك لتجده في الآيات في الداخل غالبا على غيره بطريقة ما، فهناك من الإيقاعات كذلك إيقاع توظيف الأصوات، إيقاع توظيف الصيغ، إيقاع توظيف التراكيب، بعيدا عن العروض، كل هذا داخل في الإيقاع، فنظام الإيقاع في القرآن الكريم عالم، بحر لا سواحل له، كما قال أستاذنا.

تلاحظون أن أستاذنا وقف في تمثيله على ما يؤدي الأشطار إحساسا منه بأقل مقدار من الكلام الموزون، كنا نكلمه قبل المحاضرة في كلمة أبي نصر الفارابي في كتاب "الموسيقى الكبير" الذي دلنا فيها على ما نتفق عليه في الكلام الموزون، الذي نتفق عليه دوما هو أقل مقدار يخيل لك الوزن، فنلاحظ أن أستاذنا نبهنا على أن الأشطار أشيع في هذا مما يثبت أن الشطر أقل مقدار من الكلام الموزون في تمثيل الوزن، ووقفك

عليه، لكن أنا كنت أتمنى، وأريد من أستاذنا أن يَخُصَّ الفواصل بتعليق، فنحن سنتكلم عن الفواصل عن فواصل القرآن، أنا ألاحظ أن أستاذنا يتحرك فيها حرا من غير مشكلة، يعني مثلا (المؤمنينا) ويشبع على رغم أن هذا ليس في القرآن، فأستاذنا تحرك في الأمثلة حركة حرة، أنا أريد أن يقول لنا في هذه كلمة لكي نعتمدها في البحث، نحن نتحرج لأن إشباعك للنون في (المؤمنينا) ليس من القرآن، فهذه إضافة، أنت نفسك، يا أستاذنا، كنت تعلمنا كيف منعنا القرآن من أن نستمر بإضافة حرف، بحذف حرف، بكذا، وها أنت ذا تضيف حرفا في (المؤمنينا) لكي تكمل البيت، هذه لابد أن نحسمها.

أ.د. سالم عياد: أستغفر الله، هذا ليس جائزا في القرآن؟

أ.د. محمد جمال صقر: أنا لا أعرف هذا.

أ.د. سالم عياد: لو أننا وصلنا؟

أ.د. محمد جمال صقر:

لا الوصل غير الإشباع، مثلا (الحمد لله رب العالمينَ الرحمن الرحيم)، لكن لا نقول (الحمد لله رب العالمينا).

أ.د. سالم عياد:

لا، أنا لم أقل هذا، سأقول لكم، الحركة وحدها كافية.

أ.د. محمد جمال صقر:

جميل، إذن أستاذنا يا جماعة لا يشبع، أستاذنا يقصدها من غير إشباع.

أ.د. سالم عياد:

أقصدها لكي أطمئنكم أن هذا الإِشباع يعطيني ساكنا، وغير الإشباع يعطيني ساكنا أيضا، أنا أريد حرفا ساكنا.

أ.د. محمد جمال صقر:

يعني يعطيني النغمة، حتى (فاعلاتن) نفسها في الرمل ربما كانت (فاعلاتُ) واستقام الوزن، لا مشكلة، إذن أنا فهمت الآن فكرة أستاذنا، بارك الله فيك، يا أستاذنا!

كما قلت لكم من أروع اللقطات انظروا إلى هذه الفكرة في كلام أستاذنا، من أروع اللقطات، أن الطويل الذي هو ملك البحور لا نكاد نجد له أمثلة كثيرة في القرآن، ليستمر تمييز إيقاع القرآن من إيقاع الشعر، جميل!

في النهاية أوصى بتوصيات لنا لابد أن نراعيها:

الأداء، لأنك إذا أديت أداء قراء لن تصل إلى شيء، وكان أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين كان يعكس في بعض المحاضرات، يعكس يتندر على حملة القرآن حين يؤدون الشعر، وبالله، ما زلت أذكره في المدرجات الكبيرة يُجَوِّد معلقة امرئ القيس:

قفا نبْكِ منْ ذكرى حبيبٍ وَّمَنْزل.

والدكتور عبد الصبور من حملة القرآن والمُحَكَّمين، فكأنه يقول لك انتبه، للشعر إنشاد، وللقرآن تجويد، وللنثر خطابة، ولكلٍّ من هذا طريقه، فأستاذنا يقول لك إذا أردت أن تنتبه إلى هذه الأنغام فلابد من أن تؤدي القرآن أداء الشعر بطريقة ما، أما أداؤه على الطريقة المعهودة فهذه كما ترى، أستاذنا نفسه قرأ بعض الآيات بالطريقتين؛ بطريقة (فمنْ شاء فليؤمن وَّمنْ شاء فليكفر) مستحيل أن تصل إلى الطويل، مستحيل!

كذلك أوصانا بالفريق، وهذا الذي كنا نتمناه، يا شيخ محمود، في أول الفصل كنا نقسم القرآن على الشباب، وفشلنا، وانتهينا في النهاية إلى الاكتفاء بسورة البقرة التي زعموا أنها ليس فيها شيء[٦٥]، فجئتكم برأس الأمر وملاكه وذروة سنامه يدلكم على مئات المواضع في البقرة، إلا إذا جاءونا بأسئلة بني إسرائيل، إلا إذا استشكلوا علينا بأسئلة بني إسرائيل؛ ما هي، إن البقر تشابه علينا، فإذن حاجتنا إلى فريق حاجة مؤكدة.

ثم من أطرف ما ختم به – وهو ختم على طريقة المحاضرين الكبار طبعا – قدم هذه الطرفة للدكتور السمان في النهاية، هذا الكتاب مدهش هذا الكتاب! تدرون ما الذي تذكرت؟ تذكرت تخميس الشعر، لدينا في الشعر شيء يسمى التخميس، يعني يأتي إلى بيت مثلا:

---

[٦٥] فقال ضيفنا الكريم رادّا هذا الزعم: لاااااااا!

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

فيقدم بين يديه ثلاثة أشطار على طريقته، كأنها حاشية بين يدي الملك، هكذا كنا نشبهها، حاشية بين يدي الملك، ثم يأتي البيت، فأستاذنا الدكتور السمان كأنه خمس الآيات، فيقدم أربعة أشطر من عنده، ليكون الخامس جزء الآية.

أ.د. سالم عياد:

وليس ملتزما بالأعداد، كما قلت، بما فتح الله عليه به، بيتين، ثلاثة، أربعة، خمسة، الله أعلم.

أ.د. محمد جمال صقر:

حتى هذا عندنا، عندنا تثليث وتربيع وتخميس، كل هذا يسمى عندنا شعر المشطرات، شعر المشطرات يا جماعة المبني على هندسة الأشطر وكما يتفق، طبعا هذا تجلى وتطور وتألق في الموشحات، وكل هذا لم ينجح كثيرا، فوضع الدكتور السمان منه ديوانا كاملا بهذا الحجم يدل على عزم وهمة، ويبدو أنه من أهل الله، من أهل الإحساس الخاص بالآيات، رأينا هذا في أهل الله الذين يحسون بالقرآن إحساسا خاصا، فيزينون به الشعر.

أ.د. سالم عياد: الجزآن شعر ديني.

أ.د. محمد جمال صقر: رأيتم! يعني فيه معاني الصوفية.

أ.د. سالم عياد:

لا فيه غزل ولا مدح ولا هجاء إلا المدح لسيدنا رسول الله وآل البيت.

أ.د. محمد جمال صقر:

يعني هذا متبع – يبدو – عند المتصوفة، من كبار الصوفية الذين قرأت لهم أبو مسلم العماني، هذا مشهور، وكتبت عنه[٦٦]، مثلا يكتب لك قصيدة في ألف وخمسمئة بيت، كل بيت آخره لا إله إلا الله، كل بيت! آخره لا إله إلا الله، هذا معروف عند الصوفية عند السالكين، أبو مسلم البهلاني، ويقال العماني أبو مسلم، هذا من عصر شوقي، ليس بقديم، هو من عصر شوقي، وهو أكبر شعراء عُمان على الإطلاق، وكان يتدفق بالشعر، وعاش في زنجبار، تعرفون زنجبار هذه التي كانت تملكها عمان، وفتحتها، وحكمتها، وتنقل بينها وبين عمان، ولعمان مدرسة في التصوف، للعمانيين مدرسة في التصوف، هذا من كبارها، فانظروا، يبدو أن الدكتور السمان من هؤلاء كذلك.

---

[٦٦] "القافية الموحدة المقيدة وكلمتها في الشعر العماني" بحث لأستاذنا الكريم مطبوع في كتابه "سِرْبُ الْوَحْشِ، أَبْحاثٌ نَصِّيَّةٌ عَروضِيَّةٌ" نشر مؤسسة العلياء بالقاهرة سنة ٢٠٠٦م.

الآن أنا أريد أن أسمع، لكي لا أستولي على المحاضرة. تفضل أستاذ محمد كمال[٦٧].

أ.محمد كمال (أحد الطلاب):

أشكر أستاذنا الدكتور محمد جمال على استضافته أستاذنا الدكتور سالم، وأعتقد أن هذه المحاضرة كانت مغنية وممتعة ومفيدة في نفس الوقت، ولم نشعر فيها بالوقت بصراحة، لكن لي سؤال واحد، أنا أعتقد، وهذا رأيي، ربما أكون مخطئا، إذا قرأنا القرآن بالوزن العروضي أعتقد أننا بذلك أخرجناه عن كونه قرآنا، وإذا قرأناه بترتيل وتجويد أخرجناه عن كونه شعرا.

أ.د. سالم عياد:

القارئ للقرآن الكريم المؤمن مهما تملكته الشاعرية، وقرأ القرآن بأداء شعري لا يخرجه عن كونه قرآنا، أنا بدأت كلامي بأن البيان العربي ثلاثة أنواع: شعر، ونثر فني، وقرآن كريم، ليس قرآنا فقط بل قرآن كريم، فلا أعتقد أن القارئ للقرآن الكريم أو الذي يؤدي القراءة أداء شعريا أخرجه عن كونه قرآنا، كيف! هو قرآن قبل كل شيء، لكنه يتميز بأنه جمع فنية الشعر وفنية النثر الفني معا، فأنت تقرؤه بروح القارئ للنثر الفني وهو ليس نثرا فنيا، أليس كذلك؟ أليس قرآنا كريما متفردا، نص متفرد من

[٦٧] حاولتُ أن أصوغ الأسئلة على النحو الذي كانت عليه اعتمادا على حضوري؛ ذلك لصعوبة الاستماع إليها بسبب بعد الطلاب عن المسجل.

الذات العلية – سبحانه، وتعالى! – فلا هو نثر فني، ولا هو شعر، اقرأه كما شئت، لكن لا يخرج عن كونه قرآنا كريما، والمسألة مسألة عقدية، ليست مسألة ميول فحسب، لا، العقيدة هي التي تحكمني وتحكمك، العقيدة، وأنت تقرأ القرآن الكريم لِمَ تُدهَش حينما تقرأ نصا قرآنيا وتكتشف فيه أمرا ما! ومن العلماء الدكتور زغلول النجار قرأ القرآن، فاستوعبه، فأخرج منه ما لم يخرجه أحد من علماء الكون، هل هو أخرجه عن كونه قرآنا[٦٨]!

الطالب نفسه:

لكن هذا استنباط، الدكتور زغلول النجار هو يستنبط.

أ.د. سالم عياد:

طيب، ما الذي أوحى إليه بهذا الاستنباط؟

أحد الطلاب:

لكنه لم يتطرق إلى اللفظ القرآني.

أ.د. سالم عياد:

لا، وقف عند اللفظ وقوفا جيدا.

---

[٦٨] (...) مش قرآن بس، ده قرآن كريم (...) مش كده، مش هو قرآن كريم (...) ماهيش مسألة ميول بس (...) طب ما العلماء بيقروه بقراءة العلماء زي الدكتور زغلول النجار.

أ.د. محمد جمال صقر:

على أية حال، يا جماعة، حتى الشعر نفسه أشاروا فيه إلى مذهبين من مذاهب أداء الشعر، مذهب الفصحاء الذين لا يشعرون بالموسيقى، ومذهب المغنين، فأما الفصحاء فيعنيهم ضبط اللغة وإجادتها، فإذا اختلف لديهم وضعان للكلمة بين زحاف يخرجها عن اللغة وتسليم اللغة آثروا الوضع، وقد أشار إلى هذا، مثلا، المعري:

أبيت على معاريَ فاخرات بهن مُلَوَّب كَدَمِ العِباط

قال فأما الفصحاء فيقولون: أبيت على معارٍ، وأما المطربون المغنون فيقولون: أبيت على معاريَ، كذلك القرآن، أنت تؤدي، أنت لا تَكْرُب نفسك، أنت تؤدي، فحيثما اتجهت نفسك اتجه الإيقاع، وأحيانا يستقيم هل محمد رفعت مثلا - رضي الله عنه! - في أسلوبه الأدائي هذا يؤدي كما يؤدي سائر الناس! أحيانا يتكون لديه أداء يثير موسيقى غير معهودة عند الناس، ثم لماذا تنسى ما يسمى بالإعجاز! الآية يختلف الناس فيها، فهي تثبت نفسها، تثبت خصوصيتها، تثبت استقلالها عن الشعر باختلاف الناس الشديد فيها واختلاف الميول. رأيت!

ثم من؟ تفضل.

أحد الطلاب:

تخوفنا عندما سمعنا العنوان، لكن بعد المحاضرة أنا أظن أن دراسة القرآن من جانب الإيقاع[69] فيه تدليل على إعجاز القرآن، بدراسة القرآن من جهة الإيقاع نثبت نفي الشعرية عن القرآن.

أ.د. سالم عياد:

جانب آخر من جوانب الإعجاز البياني كما قلت.

الطالب نفسه:

وكنت أقرأ الآية أو الآيات التي تحدى الله – عز، وجل! – فيها الكفار بأن يأتوا بمثل القرآن ولم يستطيعوا، ربما زاد فهمي لها الآن.

أ.د. محمد جمال صقر:

الله يكرمك! صحيح، عبد الرحمن.

أ.د. سالم عياد:

الله يبارك فيك، تسلم يا ابني!

عبد الرحمن (أحد الطلاب):

أولا أشكر أستاذي على هذه المحاضرة، وأريد أن أقول إن ذكر القرآن الكريم للشعر والشعراء ليس فيه ذم بل هو تنزيه للشعر عن سائر فنون القول عند العرب.

---

[69] فقال أستاذنا مبادرا مازحا: فرض على كل مسلم ومسلمة!

أ.د. محمد جمال صقر:

تنزيه للشعر أم تمييز للشعر؟

الطالب نفسه:

تمييز وتنزيه للشعر عن سائر فنون القول، فلم يكن الشعر وحده هو الفن الموجود عند العرب، كانت الخطابة، وغيرها.

أ.د. سالم عياد:

وقبل الشعر وقبل الخطابة سجع الكهان، أول الفنون العربية.

أ.د. محمد جمال صقر:

نظرية أستاذنا الدكتور في هذا الكتاب أن الأمور صارت على هذا النحو: سجع كهان، ثم رجز، ثم شعر، توالدت، هذا شيء مثير، اختلف الناس طوال السنين الماضية كيف نشأ الشعر؟ وحاروا، وأنا لي كلام في هذا[٧٠]، لكن هذا لطيف جدا من أستاذنا، بارك الله فيك!

أ.د. محمد جمال صقر: سارة، المذيعة![٧١]

---

[٧٠] "علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي" بحث أستاذنا الكريم الذي نال به درجة الدكتوراه، طبعته مطبعة المدني بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م.

[٧١] سارة طالبة بتمهيدية الماجستير في قسم النحو بكلية دار العلوم (عام ٢٠١٠-٢٠١١) تتمتع بصوت مذيعي رائع، تلتزم الفصحى في المحاضرات، وفي خطاب أستاذنا الكريم حتى إنها لَتُناديه بـ (أستاذ) لا بـ (دكتور). وأستاذنا يعرف كيف

سارة (إحدى الطالبات):

بسم الله، أولا أشكركم على حسن المحاضرة. الشيء الذي كان يؤرقني منذ سنتين أني فكرت في أمر قوله- تعالى! -: "بلسان عربي مبين"، فقلت سبحان الله، مادام القرآن أنزل بلسان عربي مبين فما مقومات اللغة العربية التي أنزل بها القرآن؟ فاستوقفني قول الله- تعالى! - "وإذا مروا بهم يتغامزون"؛ فوزنته على الوافر، فقلت إذن فمن ضمن مقومات اللغة العربية النظام الإيقاعي، لكني تحاشيت أن أبحث هذه المسألة، أنا الآن أقدم لكم الشكر وجزيل الشكر لأني أصبحت أكثر شجاعة لكي أخوض مثل هذا البحث، ولكني أتساءل فقط هل لي مثلا أن أُوَثِّق هذا بكلام بعض الأدباء مثلا؟ وأنا فعلت هذا، واستخرجت، عندما كنت أقرأ في كتب الأدباء، وجدت بعض الجمل والمقتطعات التي تكون موزونة تماما، وخرجت من هذا بنتيجة، هي إذا كثر العروض في كلام فلان فهو فصيح متأدب.

أ.د. سالم عياد:

والله معنى جديد! أشكرك يا ابنتي لأنك وضعت أيدينا على أمر كنا غافلين عنه، هو أن الخطيب مثلا حينما يخطب أو المتحدث أو الكاتب

يتقرب إلى تلامذته بأحسن صفاتهم. وفي هذا اقرأ إن شئت خاتمة بحثه "مهارة الكتابة العربية"، ولا تعجبْ؛ فهكذا ينبغي أن نكون!

حينما ينغم ما قال نستحسن منه ذلك، فلم نستحسنه من الناس ولانقبله في القرآن الكريم؟

الطالبة نفسها:

لكني وجدت أن المقارنة بالقرآن قياس مع الفارق؛ فانصرفت عن هذا، فهل في انصرافي هذا شيء؟

أ.د. سالم عياد: لا ليس فيه شيء.

الطالبة نفسها:

كيف أُقْدِمُ على توثيق الكلام العربي ومدى فصاحته بزيادة التراكيب العروضية فيه؟

أ.د. سالم عياد:

التراكيب العروضية إذا وجدتِها في القرآن الكريم هي تزيدنا حبا فيه، وتعلقا به، وحفظا له، هذه هي الميزات في هذه المسألة فقط، لكن القرآن أعلى قدرا من الأنغام الشعرية، وأعلى قدرا من أي علم آخر، فتأصيل هذه الموسقة بالقرآن الكريم يفيد الموسقة أكثر مما يفيد القرآن.

يرفع أحد الحاضرين يده مستأذنا في الكلام[٧٢].

---

[٧٢] فيأذن له ضيفنا الكريم، وينبه أستاذنا الكريم: بس انجزوا عشان احنا خدنا الوقت.

أ.د. محمد جمال صقر:

عرفنا بنفسك، أنا أشعر أنك من طلاب الشعر، أأنت الذي كلمتني عبر الهاتف؟ ما حكايتك؟ من أين أنت؟

الطالب:

نعم أنا صحفي من جريدة الشروق، كنت في إعلام.

أ.د. محمد جمال صقر:

لكني أحسست وأنت تسمع أستاذنا أنك معه، أأنت خريج دار العلوم قبل إعلام أم ماذا! ما شاء الله عليك[٧٣]!

الطالب: أنا شخصيا رأيي أن القرآن هو المادة الخام للإيقاع.

أ.د. محمد جمال صقر: جميل!

أ.د. سالم عياد:

الله يبارك فيك، كلام جميل جدا! أنا أريد أن أقول جملة بها أنك ذكرتني، ليس الإيقاع في القرآن الكريم ما يوافق الشعر العربي وحده؛ إن

---

[٧٣] لا أعرف اسم هذا الصحفي الضيف، وهذا نص الحوار بينه وبين أستاذنا الكريم:

أ.د. محمد جمال صقر: عرَّفنا بنفسك، انا حاسس انك من طلاب الشعر، إنت اللي كلمتني في التليفون؟ إنت إيه حكايتك؟ انت منين؟

الصحفي الشاب: أنا صحفي من الشروق، وكنت في إعلام (ذكر الصحفي اسمه، لكني لم أسمعه).

أ.د. محمد جمال صقر: بس انا حاسس حتى وانت بتسمع أستاذنا انك معاه، انت إيه الحكاية؟ إنت خريج دار العلوم قبل إعلام وللا إيه! ماشاء الله عليك! اتفضل.

هناك إيقاعا لا يتوافق مع الشعر العربي، وأوزانا لا توجد في شعرنا العربي، ولا نستطيع أن نصنفها تحت ميزان من الأوزان الستة عشر، وانتبهوا! يؤيد ذلك في الشعر أن هناك أوزانا تسمى الأوزان المهملة: المُنْسَرِد والمُمْتَدّ، هذه الأوزان المهملة ربما تكون في القرآن الكريم، لكننا لم نُعْنَ بها، ولم نستطع حفظها كما حفظنا أوزان الشعر العربي، وهذا يزيد القرآن أيضا فنية، يعني هناك تفعيلات متوالية لا تخضع لموسيقى من أوزان الشعر أو من قوالب العروض، وقد تتواءم تفعيلات متواترة وراء بعضها وفيه ما – أستغفر الله – إن قلت: ما يقال له المكرور أو المتكرر من باب التوكيد، قد يكون موزونا لكن وزنا لا ينسجم مع أوزان الشعر العربي، أليس هذا أيضا يعني لونا من الإعجاز أتى به القرآن الكريم زاد فيه على معرفة العرب بشعرهم وعلى فنهم الأول، ولم يستطيعوا أن ينظموا على هذه الأوزان المهملة، ولم يستطيعوا أن يستخرجوا هذه الموسقة كلها من القرآن الكريم؟ ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك إلا إذا تَحَزَّبنا، وتعصَّبنا، وكَوَّنّا فريق عمل كبير، جماعة يشتغلون بموسيقى الشعر، وجماعة يشتغلون بالأوزان المهملة، الأوزان المهملة هذه تحتاج علماء بهم خصوصية.

الطالب نفسه:

أنا متفق مع حضرتِكَ تماما في المسمى "نظام الإيقاع في القرآن الكريم"، فلم لا نحاول أن نبحث عن القانون الحاكم للإيقاع بشكل

عام؟ وأنا أرى أن هذا هو الأهم من أن نبحث في أمثلة من القانون الخاص بالشعر.

أ.د. سالم عياد: نعم لأجل أن يشمل الشعر وغير الشعر.

أ.د. محمد جمال صقر مستأذنا في الرد: تسمح لي يا أستاذنا؟

أ.د. سالم عياد: تفضل، هذا كلام جميل!

أ.د. محمد جمال صقر:

مسألتنا كانت محددة بما استمعت إليه، لكنْ فكرتك عامة، الإيقاع معروف التكرار المتناوَب لحالتين متضادتين، كالليل والنهار، والصحو والنوم، والجوع والشِّبع، والكون كله قائم على إيقاع يدل على خالق واحد في الخلق، لكن نحن حددنا عملنا تحديدا، لماذا حددناه؟ لالتباس بين القرآن والشعر فقط، لكن طبعا كلامك صحيح.

أ.د. سالم عياد:

اسمح لي، أكمل نقطة صغيرة، سامحني، إذا ما درسنا إيقاع الشعر العربي، والشعر أخص ما يميزه الموسيقى، أخص خصوصية للشعر، فيقودنا هذا الدرس إلى دراسة الفاصلة في القرآن الكريم التي هي تعوضنا عن القافية في الشعر العربي، والفاصلة أيضا نوع من الإيقاع، ولها درسها الخاص، بل هي تاج شعر العربي كما يقولون، وأستاذنا الدكتور كشك له كتاب في هذا العنوان.

أ.د. محمد جمال صقر موضحا عنوان الكتاب: "القافية تاج الإيقاع الشعري".

أ.د. سالم عياد:

نعم، "القافية تاج الإيقاع الشعري" لو رأيتَه تُعنى ببقية الإيقاع، هذا جزء ضئيل جدا من كثير، ما قلناه اليوم شيء يسير من كثير، نذر يسير، فربما لو درسنا موسيقى الأوزان تقودنا إلى دراسة الفاصلة، والفاصلة درس أخطر – أعتقد – من الموسيقى.

أ.د. محمد جمال صقر مطمئنا إلى اقتراب النهاية: الأستاذة أمل، ثم أخونا، ثم نمضي[٧٤].

إحدى الطالبات (الأستاذة أمل):

المحاضرة جميلة جدا، والشكر لأستاذينا، هل سيأتي يوم كما نفخر بالإعجاز العلمي في القرآن والإعجاز الصرفي والإعجاز النحوي – هل سنفخر بقولنا إن القرآن الكريم يحتوي على إعجاز عروضي[٧٥]؟ أنا اتكلم عن العامة، لا أتكلم عن دارسي اللغة العربية.

---

[٧٤] (...) الجماعة انت عارف الاعتصام والشغل، انت عارف يا احمد، هيعتقلونا النهار ده، ماهيصدقو يعتقلونا، اعتقلوني، اعتقلوني!

[٧٥] علق أستاذنا: أو إيقاعي، جميل! (يقصد إعجاز إيقاعي)

أ.د. سالم عياد:

أعتقد أن إدخال هذا الأمر في أذهان العامة شيء من الصعوبة بمكان، إنما يكفي أن نقول هذا الذي يسمونه علم الخواص، بل للخواص من العلماء، وليس كل العلماء، يعني ربما لا يقبل كلامنا هذا فريق من العلماء، وإن كنت أشرت إلى بعض الذين يرفضونه.

الطالبة نفسها: فإذا ألقيت عليهم أو إليهم محاضرة فسيتقبلون.

أ.د. سالم عياد: من قال، ويمكن أن يعتقلوني!

أ.د. محمد جمال صقر: هي، على أي حال، فكرة جميلة الشيخ الشعراوي - الله يرحمه! هو من غير في الناس الإحساس ببيان القرآن الكريم.

أحد الطلاب[٧٦]:

الخليل بن أحمد واضع علم العروض هل استقاه من القرآن أم من الشعر؟ وإن كان استقاه من القرآن فلم لم يشر إلى ذلك؟

أ.د. سالم عياد:

لا، معروف لدينا جميعا أن الخليل بن أحمد الفراهيدي، إمام القرن الثاني الهجري استخرج علمه من استقراء الشعر العربي، وليس من القرآن الكريم، ولم يشر إلى ذلك البتة، إنه وهو راجع من الحج، وأنتم تعرفون القصة، دعا الله وهو يطوف البيت أن يرزقه علما لم يسبق إليه ففي طريق

---

[٧٦] أذن له أستاذنا الكريم بقوله: إنت مش مرتاح، اتفضل. (كأن السؤال يقلق صاحبه فيجعله متململا غير مرتاح ويبدو هذا القلق عليه)

عودته نزل يستريح بمنطقة العروض تلك السلسلة الجبلية، وأخذ يطرق حتى قالت زوجته لقد جن ولكنه كان يستقرئ ويستعرض ما يحفظ من شعر العرب الأقدمين وكلما وصل إلى وزن من الأوزان سجله لم يُرْوَ إطلاقا أنه استخرج شيئا من هذا من القرآن الكريم وكان عالم لغة وكان شغله الشاغل الشعر العربي[٧٧].

أ.د. محمد جمال صقر مطمئنا مرة أخرى إلى اقتراب النهاية والذهاب: أحمد آخر واحد!

أحمد (أحد الطلاب): هل هذا الكلام يتعارض مع قوله – تعالى! –: "ورتل القرآن ترتيلا"؟

أ.د. محمد جمال صقر: هو ترتيل القرآن فيه شرح، قراءته على أجزائه القراءة سنة متبعة، فتوارثنا تجزيئه على الأجزاء كما تعلم من القراءة، لكنْ رتل اقرأه على مجموعات.

أ.د. سالم عياد:

أريد أن أقول كلمة أخيرة، أتظن وأنت مؤمن[٧٨] أن الله سبحانه وتعالى ألم يكن في وسعه أن يقول لنا إن القرآن خطر خطير، لا يقرب

---

[٧٧] (...) الراجل وهو راجع من الحج، انتو عارفين القصة، دعا الله (...) فَوْهُوَّ راجع بيستريح في الحتة دي اللي اسمها العروض، السلسلة الجبلية وقعد يِخَبَّط، فَمْراتُه قالت ده اتْجَنِّن، وهو قاعِد يَسْتقرئ.

[٧٨] علق أستاذنا الكريم بدعابته الحاضرة دائما: يا مؤمن!

أحدكم القرآن، أو كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهانا عن اقتراف جرم الشعر وعلى فكرة بعض المتشددين يروي الحديث الذي يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا أو قيئا فيريه خير له من أن يمتلئ شعرا ويقفوا عند هذا وأنا أتعبني هذا الحديث كثيرا حتى وقع في يدي كتاب زاد المعاد للهيثمي فإذا بالحديث مبتور على منوال ولا تقربوا الصلاة.

أحد الطلاب مصححا اسم كتاب الهيثمي السابق: مجمع الزوائد وليس زاد المعاد.

أ.د. سالم عياد:

نعم مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، ماذا فيه؟ لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحا فيريه خير له من أن يمتلئ شعرا هجيت به وقفت عندها مذهولا قلت نعم صدق رسول الله فجاءت الجماعة المتشددة وقصت قوله عليه الصلاة والسلام (هُجيتُ به) ورموه وروجوا للناس الكلام مبتورا والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك فماذا أريد أن أقول؟ كان في وسع النبي عليه الصلاة والسلام وهو إمام الخلق وحبيب الحق وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى كان بوسعه أن ينفرنا من

الشعر صراحة وأن يقول كلاما ينهانا فيه عن اقتراف جريمة الشعر لكنه نفسه قال: إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا[٧٩].

أ.د. محمد جمال صقر معلنا عن آخر سؤال: زينب آخر حاجة[٨٠].

زينب (إحدى الطالبات):ذكرتم ملحوظة وهي كثرة "مستفعلن فاعلاتن" وقلتم إنكم ستذكرون علة ذلك!

أ.د. سالم عياد:

أنا قلت علة ذلك اختلاط المضارَع بالمجتث والفرق بينهما ضئيل جدا هو أن المضارع يجب أن تختم إحدى التفعيلتين بحرف متحرك وهذا يفوت على الشعراء أو لا يدركه الشعراء ولو قطعتِ بعض الأبيات من المضارع مهما طالت وهي قليلة جدا في شعرنا العربي يمثل بها كل علماء العروض في كتبهم – ستجدينها فاعلاتُ مستفعلن، أو فاعلاتن مستعلن، لا تكتمل التفعيلتان معا، وإذا اكتملتا كان المجتث.

أ.د. محمد جمال صقر: بارك الله فيكم، وأحسن إليكم، وجمعنا على خير، هذا شيء بديع، جعله الله في موازين حسناتكم، والسلام عليكم.

---

[٧٩] (...) راحو الجماعة الوِحْشين قاصِّين (هُجيتُ به)، ورموها (...) يعني عاوز اوصل اقول إيه:(...) ودي عايزة محاضرة لوحدها؛ موقف النبي من الشعر، ومحاضرة أخرى موقف الصحابة من الشعر.

[٨٠] زينب آخر حاجة، زينب إكراما ليها، بتيجي من المكتبة (زينب خريجة دار العلوم وموظفة بمكتبتها).

- دعيت من كيلة اللغات الأجنبية بجامعة بكين سنة ٢٠١٠م، إلى المحاضرة في تاريخ اللغة العربية، فرأيت أن أصطفي نصوصًا من تراث الكلام العربي متوافقةً متعاقبةً متكاملةً، أتتبع فيها حركة أصوات اللغة العربية وصيغِها ومفرداتِها وجملِها وفقرِها؛ فلم يُمَكِّنِّي من ذلك إلا تراث الشعر العربي.
- وعلى رغم عيوب "الموسوعة الشعرية" الصادرة عن مُجَمَّع أبي ظبي الثقافي في ٢٠٠٣م، لم أستغن عما جَمَعَتْه من شعر لا يتيسر لباحث الانقطاع لجمعه؛ فعسى القائمون عليها وعلى مثلها أن يعرفوا خطر عملهم، فيقوموا له بما يستحق[٨١]!
- أهملت من مادة الموسوعة، شعر العامية، وشعر الدوبيت والشعر الموشح: أما شعر العامية فمتعدد الماهيات، يحتاج إلى بحث غير هذا المرصود لرحلة اللغة العربية الفصحى. وأما شعر الدوبيت ففارسي الوزن منخلع من العروض العربي الذي ضبطه الخليل. وأما الشعر الموشح فغير خالص للغة العربية الفصحى؛ فمن

[٨١] ربما كان من علامات التفريط أن يتخلوا عن عملهم لتستولي عليه مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم لتخرج به سنة ٢٠٠٩م، ما سمته موسوعة الشعر العربي!

تقاليده الأصيلة المستمرة، أن يُختم الموشح بخرجة عامية أو أعجمية، يجدها الوشاح أولا، ثم يبني عليها موشحه، ليفضي إليها، وقد درست هذا الشعر الموشح من قبل، في "علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي".

- خَلَصَتْ لي بعد ذلك ١١٤٢٣٤ قصيدة، توزعت في عصور التاريخ العربي، على النحو الآتي:

م	العصر	مدته	درجة مدته	قصائده	درجة قصائده	صِنْفُه
١	ما قبل الإسلام	٥٠٠	٣	٢,٢٠٪	١٠	د
٢	المخضرمون	٥٠	١٠	٣,٧٦٪	٩	ب
٣	الإسلامي	٣٩	١٢	٠,٣٦٪	١٢	أ
٤	الأموي	٨٨	٩	٦,٨١٪	٧	ج
٥	ما بين الدولتين	٥٠	١١	١,٩٨٪	١١	أ
٦	العباسي	٥٠٨	٢	١٩,٥٤٪	٢	أ
٧	الفاطمي	٢٦٢	٦	٧,٢٢٪	٥	ب
٨	المغرب والأندلس	٧٨١	١	٦,٩٧٪	٦	د
٩	الأيوبي	١٦٨	٧	٦,٠٨٪	٨	ب
١٠	المملوكي	٢٦٧	٥	٩,٠٢٪	٣	ج
١١	العثماني	٢٨٨	٤	٧,٤٠٪	٤	أ
١٢	الحديث	١٤٧	٨	٢٨,٥٩٪	١	د

- ولما تأملت من كل عصر، علاقة مدته بمقدار قَصَائِده، تَصَنَّفَتْ الاثنا عشر عصرا، على أربعة أصناف:

- (أ) عصورٌ **تَطابَقَتْ** فيها دَرَجَةُ مُدَّةِ زمانها مِن تاريخ الشِّعْر ودَرَجَةُ نِسْبَة قصائدها مِنْ مَجْموع القصائد، وهي الإسلامي ، وما بين الدولتين، والعباسيُّ، والعثماني.
- (ب) عصورٌ **تَلاصَقَتْ** فيها الدَّرَجَتانِ، وهي المخضرمون، والفاطميُّ، والأيوبي.
- (ج) عصورٌ **تَقارَبَتْ** فيها الدَّرَجَتانِ، وهي الأيوبيُّ، والمملوكي.
- (د) عصورٌ **تَباعَدَتْ** فيها الدَّرَجَتانِ، وهي ما قبل الإسلام، والمغربُ والأندلسُ، والحديث.

وعلى حين يظهر في ثلاثة الأصناف (أ) و(ب) و(ج)، أثرُ المدة الزمنية في مقدار القصائد- يختفي في الصنف الرابع (د)، هذا الأثر، ليظهر أثر تِقَانةِ التوثيق والحفظ والنشر؛ فلم يكن كثير من شعراء الجاهلية يكتبون شعرهم مثلا، ولا تخلو نكبات المغرب والأندلس من تضييع تراث الشعر، ثم إن للطباعة أثرا واضحا في تسجيل الشعر الحديث.

- وتخرجت قصائد الموسوعة الشعرية، من الستة عشر بحرا الخليلية، على النحو الآتي:

م	١ قبل الإسلام	٢ المخضرمون	٣ الإسلامي	٤ الأموي	٥ بين الدولتين	٦ العباسي	٧ الفاطمي	٨ المغرب والأندلس	٩ الأيوبي	١٠ المملوكي	١١ العثماني	١٢ الحديث	ع
١	الطويل ٩٣٨	الطويل ١٦٩٩	الطويل ١٧١	الطويل ٣٦٠٤	الطويل ٥٨٤	الطويل ٤٤٤٤	الطويل ١٨٣٢	الطويل ٢٠٥١	الطويل ١٨٢٥	الكامل ٢٠٧٧	الطويل ١٩٠٥	الكامل ٧٧٨٩	الطويل ٢٧٧٠١
٢	وافر ٤٢٨	وافر ٦٦٦	الرجز ٩٦	وافر ١٠١٧	الكامل ٣١٤	الكامل ٣٦٨٧	الكامل ١٥٦٨	الكامل ١٧٩٧	الكامل ١٣٥٤	الطويل ٢٠١٩	الكامل ١٨٣٣	الطويل ٦٦٣٣	الكامل ٢٢١١٣
٣	الكامل ٣٤٧	البسيط ٥٣٧	وافر ٥٨	البسيط ٩٧٩	الرجز ٣٠٤	البسيط ٣٠٣٥	البسيط ١٣٥٢	البسيط ١٢٢٧	البسيط ١٢١٧	البسيط ١٤٤٤	البسيط ١٢٤٨	البسيط ٥٢٨٧	البسيط ١٦٩٤٧
٤	البسيط ٣٠٠	الكامل ٥١١	الكامل ٤٣	الكامل ٨٠٦	البسيط ٢٩٠	الخفيف ٢٢٧١	وافر ٧٤٧	وافر ٥٩٧	السريع ٤٩٦	السريع ٩٠٦	الخفيف ٩٤١	الخفيف ٣٢١٩	وافر ١٠٧٨٧
٥	الرجز ١٥٤	الرجز ٤١٤	البسيط ٣١	الخفيف ٣٧٠	وافر ٢٠٤	وافر ٢١٢٠	السريع ٦٦٢	السريع ٥١٨	وافر ٤٦٥	الخفيف ٨٢٦	وافر ٦٩٧	وافر ٣٠٩٢	الخفيف ٩٥٤٨
٦	المتقارب ١٠٤	المتقارب ٢١٧	الخفيف ١١	الرجز ٣٣٩	الخفيف ١٥٩	السريع ١٩٢٥	الخفيف ٥٩٦	الخفيف ٥٠٤	الخفيف ٤٦٥	وافر ٧٤٠	الرمل ٤٤٧	الرمل ١٨٠٦	السريع ٩٢١٧
٧	الخفيف ٧٦	الخفيف ١١٣	المتقارب ٦	المتقارب ٣٠٢	السريع ١٠٤	المتقارب ١٣٠٥	المتقارب ٥٢٩	المتقارب ٤٠٦	المتقارب ٢٧٤	الرجز ٥٩٣	السريع ٤٤١	الرجز ١٣٠٤	الرجز ٥٣٧١
٨	الرمل ٥٤	الرمل ٦٠	الرمل ٣	المنسرح ١١٨	الرمل ٨٧	الرجز ١١١١	الرجز ٣٣٧	الرمل ٢٩٩	الرجز ٢٦٦	الرمل ٥٤٤	الرجز ٢٧٣	السريع ١٢٨١	المتقارب ٤٩٣٦
٩	المنسرح ٤٨	المنسرح ٥٥	السريع ٢	الرمل ١١١	المتقارب ٨٤	المنسرح ١٠٥٨	المنسرح ٢٥٦	المنسرح ١٧٨	الرمل ٢٢٥	المتقارب ٤٠٩	المتقارب ٢٤٢	المتقارب ١٠٥٨	الرمل ٤٧٠٨
١٠	السريع ٤٨	السريع ٥٣	المنسرح ١	السريع ٨٢	المنسرح ٧٨	الرمل ٨٨٨	الرمل ١٨٤	الرجز ١٦٤	المنسرح ١٥٧	المنسرح ٣٠٥	المجتث ١٧٢	المجتث ٩١٨	المنسرح ٢٩٠٤
١١	المديد ١٣	الهزج ١١	المجتث ١	المديد ٣٣	الهزج ٤١	المجتث ٣٥١	المجتث ١٢٠	المجتث ١٣٦	المجتث ٩١	المجتث ٣٠٤	المنسرح ١٥٤	المنسرح ١٩١	المجتث ١٨٠٣
١٢	الهزج ٩	المديد ١١	×	الهزج ٢٠	المجتث ٧	الهزج ٢٧٨	المديد ٣٩	المديد ٥٧	الهزج ٥٥	الهزج ٦١	المديد ٧١	المضارع ١٣٤	الهزج ٩٣٥
١٣	×	المجتث ١	×	المجتث ٢	المديد ٦	المديد ١٤٩	الهزج ٢٥	المضارع ١٧	المديد ٥٢	المديد ٥٩	الهزج ١٨	المديد ١٠٦	المديد ٥٩٦
١٤	×	×	×	×	×	المضارع ٣	المضارع ٤	الهزج ١٣	المضارع ٨	المضارع ١٤	المضارع ١١	الهزج ١٠٣	المضارع ١٩١
١٥	×	×	×	×	×	المضارع ٣	المقتضب ٣	المقتضب ٥	المقتضب ٣	المقتضب ٥	المضارع ١	المقتضب ٣٠	المقتضب ٤٨
١٦	×	×	×	×	×	المقتضب ٢	المضارع ٣	المضارع ٣	المضارع ١	المضارع ٤	×	المضارع ٤	المضارع ١٩
ع	٥٥١٩	٤٣٠١	٤١٩	٧٧٨٣	٢٢٦٣	٢٢٣٣١	٨٢٥٧	٧٩٧٢	٩٥٤٤	١٠٣٠٨	٨٤٥٨	٣٢٦٦٩	١١٤٢٣٤

- وتدرجت نِسَبُها من القصائد، على النحو الآتي:

١ الطويل (٢٤ , ٢٤٪)، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة الأولى لعشرة عصور (١-٩، ١١)، والثانية لعصرين (١٠، ١٢).

٢ الكامل (٣٦ , ١٩٪) ، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة الأولى لعصرين (١٠، ١٢)، والثانية لستة أعصر (٥-٩، ١١) ، والثالثة لعصر واحد (١)، والرابعة لثلاثة أعصر (٢، ٣، ٤) .

٣ البسيط (٨٣ , ١٤٪) ، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة الثالثة لتسعة أعصر (٢، ٤، ٦-١٢) ، والرابعة لعصرين (١، ٥)، والخامسة لعصر واحد (٣).

٤ الوافر (٤٤, ٩٪)، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة الثانية لثلاثة أعصر (١، ٢، ٤)، والثالثة لعصر واحد (٣)، والرابعة لعصرين (٧، ٨)، والخامسة لخمسة أعصر (٥، ٦، ٩، ١١، ١٢)، والسادسة لعصر واحد (١٠).

٥ الخفيف (٣٥, ٨٪)، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة الرابعة لثلاثة أعصر (٦، ١١، ١٢)، والخامسة لعصرين (٤، ١٠)، والسادسة لخمسة أعصر (٣، ٥، ٧-٩)، والسابعة لعصرين (١، ٢).

٦ السريع (٤٤, ٥٪)، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة الرابعة لعصرين (٩، ١٠)، والخامسة لعصرين (٧، ٨)، والسادسة لعصر واحد (٦)، والسابعة لعصرين (٥، ١١)، والثامنة لعصر واحد (١٢)، والتاسعة لعصر واحد (٣)، والعاشرة لثلاثة أعصر (١، ٢، ٤).

٧ الرجز (٧٠ , ٤٪)، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة الثانية لعصر واحد (٣)، والثالثة لعصر واحد (٥)، والخامسة لعصرين (١، ٢)، والسادسة لعصر واحد (٤)، والسابعة لعصرين (١٠، ١٢)، والثامنة لأربعة أعصر (٦، ٧، ٩، ١١)، والعاشرة لعصر واحد (٨).

٨ المتقارب (٣٢ , ٤٪)، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة السادسة لعصرين (١، ٢)، والسابعة لستة أعصر (٣، ٤، ٦-٩)، والتاسعة لأربعة أعصر (٥، ١٠-١٢).

٩ الرمل (١٢ , ٤٪)، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة السادسة لعصرين (١١، ١٢)، والثامنة لستة أعصر (١-٣، ٥، ٨، ١٠)، والمنزلة التاسعة لعصرين (٤، ٩)، والعاشرة لعصرين (٦، ٧).

١٠ المنسرح (٢٧ , ٢٪)، في الاثني عشر عصرا:

- بالمنزلة الثامنة لعصر واحد (٤)، والتاسعة لخمسة أعصر (١، ٢، ٦-٨)، والعاشرة لأربعة

أعصر (٣، ٥، ٩، ١٠)، والمنزلة الحادية عشرة لعصرين (١١، ١٢).

١١ المجتث (٥٧ , ١٪)، في أحد عشر عصرا – فقد خلا منه العصر ١ – :

– بالمنزلة العاشرة لعصرين (١١، ١٢)، والحادية عشرة لستة أعصر (٣، ٦–١٠)، والثانية عشرة لعصر واحد (٥)، والثالثة عشرة لعصرين (٢، ٤).

١٢ الهزج (٥٥ , ٠٪)، في أحد عشر عصرا – فقد خلا منه العصر ٣ –:

– بالمنزلة الحادية عشرة لعصرين (٢، ٥)، والثانية عشرة لخمسة أعصر (١، ٤، ٦، ٩، ١٠)، والثالثة عشرة لعصرين (٧، ١١)، والرابعة عشرة لعصرين (٨، ١٢).

١٣ المديد (٥٢ , ٠٪)، في أحد عشر عصرا – فقد خلا منه العصر ٣–:

– في الحادية عشرة لعصرين (١، ٤)، والثانية عشرة لأربعة أعصر (٢، ٧، ٨، ١١)، والثالثة عشرة لخمسة أعصر (٥، ٦، ٩، ١٠، ١٢).

١٤ المتدارك (١٦, ٠٪)، في سبعة أعصر - فقد خلت منه الأعصر ١-٥-:

- بالمنزلة الثانية عشرة لعصر واحد (١٢)، والثالثة عشرة لعصر واحد (٨)، والرابعة عشرة لأربعة أعصر (٧، ٩-١١)، والخامسة عشرة لعصر واحد (٦).

١٥ المقتضب (٠٤, ٠٪)، في ستة أعصر- فقد خلت منه الأعصر ١-٥، ١١-:

- بالمنزلة الخامسة عشرة لخمسة أعصر (٧-١٠، ١٢)، والسادسة عشرة لعصر واحد (٦).

١٦ المضارع (٠١, ٠٪)، في سبعة أعصر - فقد خلت منه الأعصر ١-٥-:

- بالمنزلة العاشرة لعصر واحد (٦)، والخامسة عشرة لعصر واحد (١١)، والسادسة عشرة لخمسة أعصر (٧-١٠، ١٢).

ولا تخفى مراتب الستة عشر بحرا الخليلية بعضها من بعض، بل قد انتبه إلى كثير من ذلك الخليلُ بن أحمد، ونبه عليه بدوائره المرتبة على وفق نسبة شيوع البحور؛ فقد قَدَّم دائرة المختلف ليدور فيها الطويل والمديد والبسيط، ثم ثَنَّى بدائرة المؤتلف ليدور فيها الوافر والكامل، ثم

ثَلَّث بدائرة المجتلب ليدور فيها الهزج والرجز والرمل، ورَبَّع بدائرة المشتبه ليدور فيها السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث، ثم خَمَّس بدائرة المتفق ليدور فيها المتقارب والمتدارك. ولو اطلع الخليلُ بن أحمد على ما كان بعده، لربما قدم دائرة المشتبه بتقدم الخفيف والسريع على وجه العموم، على دائرة المجتلب بتأخر الرجز والرمل!

ثم إننا نستطيع الآن أن نصنف الستة عشر بحرا الخليليةَ، على طبقتين:

١ في الطبقة الأولى بحور لم يخل منها عصر، وهي عشرة: الطويل، والكامل، والبسيط، والوافر، والخفيف، والسريع، والرجز، والمتقارب، والرمل، والمنسرح.

٢ وفي الطبقة الثانية بحور خلا منها بعض العصور، وهي ستة: المجتث، والهزج، والمديد، والمتدارك، والمقتضب، والمضارع.

لِنُنَوِّهَ بما ثبت لبحور الطبقة الأولى دون أبحر الطبقة الثانية، من ملاءمة إيقاعية حيوية مستمرة- ثم بما كان من استغناء الشعراء بها أحيانا عن أبحر الطبقة الثانية.

- ولَمَّا تَمَيَّزَ لي تراث الشعر العربي على النحو السابق، أقبلت أصطفي من عصوره كلها، ما اتَّحَدَ بينه البحر والرسالة والطول جميعا معا؛ فاجتمعت لي عفوا لا قصدا، اثنتا عشرة قطعةً طَويليةً مَديحيةً مُثَلَّثَةً. ولا يمتنع أن يجتمع لي غيرها، إذا ما تغيرت مجامعها،

ولكنني حرصت على البدء بهذه الدفعة، إجلالا لبحر الطويل ملك البحور المتوج عليها بالمرتبة الأولى من الاستعمال على مدار التاريخ.

- إن وجود هذه القطع في نفسه رباط قوي، يخلد أسلوبا عربيا أصيلا مستمرا، يستشكل فيه الشاعر ببيت من مُثَلَّثَتِه، ويدعي ببيت، ويستدل ببيت، وإن اختلف بين الشعراء ترتيب هذه الفصول.
- وربما خطر لبعض المتلقين أن تلك القطع بقايا قصائد -وإن اكتملت رسائلها- لاقترانها ببعض الروابط والإحالات التي لا ترجع إلى مذكور. ولكنها على هذا قُبِلت ورُوِيَت وبَقِيَت، فأما الروابط والإحالات فلها فيما يأتي وجوه من أساليب الشعر العربي الأصيلة المستمرة.
- ولقد تجلى لي أن حركة الأصوات في الشعر العربي، مخبوءة في حركة المفردات؛ فإذا غلبت على الشاعر كلمة دالة تعلق بها وبسط لأصواتها في كلامه عنها؛ ومن ثم اضطربت أَرْوِيَةُ قِطَعنا بين ثلاث درجات من الإسماع.
- وتلاقى بعض الشعراء في كلمات القوافي، على صيغٍ تؤدي تفعيلات أو أجزاء من تفعيلات، كصيغتي "فُعْل"، و"فَعْل"، اللتين تُؤَدِّيان جزء "عِيلُنْ"، من تفعيلة الضرب "مَفَاعِيلُنْ".

- وآثر بعض الشعراء تعبير الجار والمجرور في بعض المواضع التي آثر فيها غيره تعبير المتبوع والتابع، فدل الأول على تَحَرُّجِه من عيب الاستدعاء، على حين استكان له الأخير.
- وتلاءم في أبيات قطعنا البيت والجملة، إلا درجاتِ التضمين الخفيفةَ، التي تتيح للمتلقي أن يستعمل البيت الواحد في حاجته المشابهة.
- أما جرأة بعض الشعراء على تصدير حروف العطف من غير معطوف عليه، عطفا على حديث النفس، أو تسليما لوزن البحر اطمئنانا إلى جواز العطف على حديث النفس- فيستثقله بعض الشعراء فيعرضون عنه، أو يستغلق على بعض المتلقين فيحذفون هذه الحروف!
- لقد بدت لي تلك القطع الاثنتا عشرةَ الطويليةُ المديحيةُ المثلثةُ، قصيدة واحدة مستمرة، أجاز فيها اثنا عشر شاعرا بعضُهم بعضًا على اختلاف الأزمنة والأمكنة، ولن يَقَرَّ لها قرار ما بقي في الدنيا عربي، و"لَنْ تَدَعَ الْعَرَبُ الشِّعْرَ حَتَّى تَدَعَ الْإِبِلُ الْحَنِينَ"!
- وتَمَثَّلَتْ لي بها رحلة اللغة العربية في بحور الشعر، كيف كانت أصواتها وصيغها ومفرداتها وتعبيراتها وجملها وفقرها، وكيف صارت. وفي تأمل كلٍّ من ذلك بها، ما لا يتسع له وقت.

- وتجلى تراث العربية كُلًّا مجتمع الأجزاء، يَسْتَوْعِبُه على اجتماعِ أجزائِهِ كلُّ طالبٍ من كل زمان ومكان، عالما كان أو فنانا، وتتكرر لذلك آثاره على اختلاف الأزمنة والأمكنة.
- لم أكن أريد إلا أن أصطفي نصوص الكلام العربي المتوافقةَ المتعاقبةَ المتكاملةَ، التي أتتبع فيها رحلة اللغة العربية، ولكنني وجدتني أجري مجرى الخليل بن أحمد الفراهيدي، من حيث أدري ولا أدري، وأُكَمِّل عمله على نحو ما، فرضَ كفاية على المشتغلين بالعربية في كل زمان ومكان! فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات!
- وهذه هي الاثنتا عشرة قطعةً، الطويليةُ المديحيةُ المثلثةُ:

١ مِنْ عصر ما قبل الإسلام قال الطُّفَيْلُ الْغَنَوِيُّ (؟-٦٠٩م):

عُصَيْمَةُ أَجْزِيهِ بِمَا قَدَّمَتْ لَهُ يَدَاهُ وَإِلَّا أَجْزِهِ السَّعْيَ أَكْفُرِ

تَدَارَكَنِي وَقَدْ بَرِمْتُ بِحِيلَتِي بِحَبْلِ امْرِئٍ إِنْ يُورِدِ الْجَارَ[٨٢] يُصدِرِ

أُفَدّي بِأُمِّيَ الحَصانِ وَقَد بَدَت مِنَ الوَتِدات لي حِبالُ مُعَبِّرِ

٢ ثم مِنْ عصر المخضرمين قال النَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ (٥٧٠-٦٧٠م):

وَأَيَّ فَتًى وَدَّعْتُ يَوْمَ طُوَيْلِعٍ عَشِيَّةَ سَلَّمْنَا عَلَيْهِ وَسَلَّمَا

رَمَى بِصُدُورِ الْعِيسِ مُنْخَرَقَ الصَّبَا فَلَمْ يَدْرِ خَلْقٌ بَعْدَهَا أَيْنَ يَمَّمَا

---

[٨٢] هكذا في الموسوعة وفي ديوانه نشرة دار صادر بتحقيق حسان فلاح أوغلي الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص١٣٢، ولكنني أظن أن الصواب بالرفع؛ فعلى هذا ينبني المديح.

فَيَا جَازِيَ الْفِتْيَانِ بِالنِّعَمِ اجْزِهِ بِنُعْمَاهُ نُعْمَى وَاعْفُ إِنْ كَانَ أَظْلَمَا

٣ ثم مِنَ العصر الإسلامي قال زِيَادُ بْنُ أَبِي سُفيَانَ (٦٢٢-٦٧٣م):

هَلُمُّوا إِلَى أَهْنَاسَ يَا آلَ هاشِمِ وَيَا عُصْبَةَ الْمُخْتَارِ نَسْلَ الْأَعَاظِمِ

وَدُونَكُمُ ضَرْبَ السِّهَامِ بِشِدَّةٍ وَقَطْعَ رُؤُوسٍ ثُمَّ فَلْقَ جَمَاجِمِ

لِنَنْصُرَ دِينًا لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الْهُدَى الْمَبْعُوثِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

٤ ثم مِنَ العصر الأموي قال الْفَرَزْدَقُ (٦٥٨-٧٢٨م):

وَقَوْمٌ أَبُوهُمْ غَالِبٌ جُلُّ مَالِهِمْ مَحَامِدُ أَغْلَاهَا مِنَ الْمَجْدِ غَالِبُ

بَنُو كُلِّ فَيَّاضِ الْيَدَيْنِ إِذَا شَتَا وَأَكْدَتْ بِأَيْمَانِ الرِّجَالِ الْمَطَالِبُ

وَمَا زَالَ مِنْهُمْ مُشْتَرِي الْحَمْدِ بِاللُّهَى وَجَارٌ لِمَنْ أَعْيَتْ عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ

٥ ثم مِنْ عصر ما بين الدولتين قال مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ (٧٢٣-٧٩٨م):

إِذَا بَلَّغَتْنَا الْعِيسُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ أَخَذْنَا بِحَبْلِ الْيُسْرِ وَانْقَطَعَ الْعُسْرُ

سَمَتْ نَحْوَهُ الْأَبْصَارُ مِنَّا وَدُونَهُ مَفَاوِزُ تَغْتَالُ النِّيَاقَ بِهَا السَّفْرُ

فَإِنْ نَشكُرِ النُّعْمَى الَّتِي عَمَّنَا بِهَا فَحَقٌّ عَلَيْنَا مَا بَقِينَا لَهُ الشُّكْرُ

٦ ثم مِنَ العصر العباسي قال ابْنُ الرُّوْمِيِّ (٨٣٦-٨٩٦م):

بِهِ تَنْطَوِي الْآمَالُ عِنْدَ انْبِسَاطِهَا وَتَنْبَسِطُ الْأَعْمَارُ بَعْدَ انْطِوَائِهَا

وَمَا تَنْطَوِي الْآمَالُ عَنْهُ بِخَيْبَةٍ وَلَكِنْ إِلَى جَدْوَاهُ أَقْصَى انْتِهَائِهَا

إِذَا غَلَتِ الْآمَالُ فَارْضَ بِجُودِهِ فَمَا بَعْدَهُ مَعْدًى لِسَهْمِ غَلَائِهَا

٧ ثم مِنَ العصر الفاطمي قال ابْنُ أَبِي حُصَيْنَةَ (٩٩٨-١٠٦٤م):

رَأَيْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ وَأَبْصَرْتُ مَا لَا يُبْصِرُ النَّاسُ فِي النَّاسِ

وَطَوَّفْتُ فِي شَرْقٍ وَغَرْبٍ وَأُدْمِيَتْ مَنَاسِمُ أَعْيَاسِي وَآطَالُ أَفْرَاسِي

فَلَمْ أَرَ مَخْلُوقًا مِنَ النَّاسِ فَضْلُهُ يَزِيدُ عَلَى فَضْلِ الْمُعِزِّ بْنِ مِرْدَاسِ

٨ ثم مِنْ عصر المغرب والأندلس قال ابْنُ رَشِيقٍ الْقَيْرَوَانِيُّ (١٠٠٠-١٠٧١م):

فَقُلْ لِصُرُوفِ الدَّهْرِ ضُرِّي أَوِ انْفَعِي فَإِنِّيَ مِنْ مَثْوًى بَعِيدٍ عَلَى قُرْبِ

هُوَ الْمَرْءُ أَمَّا جَارُهُ فَهْوَ آمِنٌ وَأَمَّا الْعِدَى وَالْمَالُ مِنْهُ فَفِي رُعْبِ

مَتَى يَدْعُهُ الدَّاْعِي لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ يُجَاوِبْهُ مَنْصُورَ الْيَدَيْنِ عَلَى الْخَطْبِ

٩ ثم مِنَ العصر الأيوبي قال ابْنُ النَّبِيهِ (١١٦٤-١٢٢٢م):

أَيَا مُنْعِمًا شُكْرِي لَهُ الْوَاجِبُ الْأَوْلَى وَيَا مُخْلِصًا للهِ فِي السِّرِّ وَالنَّجْوَى

خَرَجْتَ لِتَرْتِيبِ الْبِنَاءِ فَلَوْ رَأَى سُلَيْمَانُ مَا شَيَّدْتَهُ قَالَ لَا أَقْوَى

فَكَمْ بُنِيَتْ مِنْ قَبْلِهَا مِنْ مَدَارِسٍ وَلَكِنَّهُمْ مَا أَسَّسُوهَا عَلَى التَّقْوَى

١٠ ثم مِنَ العصر المملوكي قال ابْنُ الْوَرْدِيِّ (١٢٩٢-١٣٤٩م):

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ يَكُونَ الْفَتَى كَذَا ذَكَاءً وَلَكِنْ مَنْ يَوَدُّكَ مُقْبِلُ

وَمَا حَدَبَاتُ الْأَذْكِياءِ نَقِيصَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ تِلْكَ لِلْعِلْمِ أَحْمَلُ

فَدُمْ فِي أَمَانِ اللهِ فَضْلُكَ وَافِرٌ وَعِرْضُكَ مَوْفُورٌ وَذِكْرُكَ أَوَّلُ

١١ ثم مِنَ العصر العثماني قال شِهَابُ الدِّيْنِ الْخَفَاجِيُّ (١٥٦٩-١٦٥٩م):

بِنُورِ الْمَعَانِي أَشْرَقَ اللَّفْظُ فَاكْتَسَى بِثَوْبَيْهِ مِنْ حُسْنٍ بَدِيعٍ بِلَا زُورِ

فَفِي عُمَرٍ مِنْ عَالَمِ الذَّرِّ عَدْلُهُ إِلَى اسْمٍ سَرَى مِنْ أَجْلِ ذَا قِيلَ تَقْدِيرِي

وَمَنْ قَالَ ذَا التَّقْدِيرُ غَيْرُ مُحَقَّقٍ فَقَدْ سَارَ فِي ظَلْمَاءِ جَهْلٍ بِلَا نُورِ

١٢ ثم مِنَ العصر الحديث قال جَمِيل صِدْقِي الزَّهَاوِي (١٨٦٣-١٩٣٦م):

نَزَلْتَ كَمَا يَرْجُو السَّلَامُ عَلَى الرَّحْبِ بِمُشْرِفَةٍ بَيْنَ الْمَحَابِرِ وَالْكُتْبِ

وَجِئْتَ إِلَى بَغْدَادَ تُبْصِرُ دِجْلَةً وَتَشْرَبُ مِنْ سَلسَالِ مَنْهَلِهَا الْعَذْبِ

فَقَامَتْ بِتَكْرِيمِ الرَّجَاحَةِ أُمَّةٌ وَرَحَّبَ شَعْبٌ بِالْكِيَاسَةِ وَاللُّبِّ

مُسْتَوَيَاتُ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ فِي مِصْرَ (١٩٧٣م)[٨٣]

١

١ تتعدد مستويات اللغة العربية المعاصرة في مصر ، أفقيا (على حسب المكان والأعمال مثلا)، ورأسيا (على حسب الغنى والفقر مثلا)، في وقت معا.

٢ تعدد المستويات ظاهرة طبيعية، وتطويرها إنما يكون بالنهضة الحضارية الشاملة لا بالأماني ولا بالسخط.

٣ أهم الأحداث الحضارية الكبرى التي أثرت في تاريخ اللغة العربية:

  ١ التجمعات الأهلية (الأسواق الأدبية) وتقديم بعض القبائل (قريش) على غيرها.

  ٢ ظهور الإسلام ونزول القرآن دستورا له.

  ٣ الفتوحات الإسلامية للأمصار واستيطان العرب بها.

  ٤ الغزو الأوروبي الحضاري لبلاد الشرق في مطلع القرن الحديث.

٤ خاض المحافظون وحماة التقاليد المعاركَ (الفصحى والعامية، وألفاظ الحضارة، واللغة الثالثة، وإصلاح النحو، والتعريب)،

---

[٨٣] تلخيص كتاب الدكتور السعيد محمد بدوي.

على حين كان ينبغي دراسة المشكلة في ضوء الواقع الحضاري الذي نعيشه.

٥ كانت لبعض مُتَناوِلِي المشكلة نَظَرِيًّا فَقَط، الآراءُ الآتية:

١ في مصر لغة فصحى، وما سواها مجموعة أخطاء ولحن ودخيل.

٢ في مصر فصحى في ناحية، وعامية في ناحية، لا غير.

٣ في مصر فصحى في ناحية، وعامية في ناحية، ومتوسطة أو ثالثة بينهما.

٢

١ في كل مجتمع مصري لغوي كامل خمسة المستويات اللغوية الآتية -لكل منها صفات وخصائص لغوية مستمدة من خصائص الفصحى التاريخية، وخصائص العامية التجريدية، وخصائص من لغات أجنبية-:

١ **فُصْحَى التُّرَاْثِ**، وهي فصحى تقليدية غير متأثرة بشيء نسبيا.

٢ **فُصْحَى الْعَصْرِ**، وهي فصحى متأثرة بالحضارة المعاصرة على الخصوص.

٣ **عَاْمِّيَّةُ الْمُثَقَّفِيْنَ**، وهي عامية متأثرة بالفصحى وبالحضارة المعاصرة معا.

٤ **عَاْمِّيَّةُ الْمُتَنَوِّرِيْنَ**، وهي عامية متأثرة بالحضارة المعاصرة.

٥ **عَاْمِّيَّةُ الْأُمِّيِّيْنَ**، وهي عامية غير متأثرة بشيء نسبيا، لا بالفصحى ولا بالحضارة المعاصرة.

٢ حول تلك المستويات عوامل فَصْلٍ (درجة الثقافة، اختلاف النشأة، اختلاف الظروف الاجتماعية)، وعوامل مَزْجٍ (وحدة الأصل "اللغة العربية"، وحدة المجتمع، جواز اجتماع أكثر من مستوى في بعض الوظائف الاجتماعية، قدرة بعض الأفراد على استخدام أكثر من مستوى، جواز التنقل بين المستويات في المحادثة الواحدة).

٣ تتميز صفات كل مستوى من المستويات الخمسة ، اللغوية الخاصة، من حيث :

١ الأصوات(السواكن، والحركات).

٢ أبنية الكلمات(الإفراد والتثنية والجمع، ونظام العدد).

٣ أبنية الجمل(النوع، والإعراب ولاسيما في نطق الأعلام والأرقام وأسماء البلاد).

٤ ظروف اكتساب المستويات:

١ نوع يكتسب تلقائيا وبظروف الميلاد والبيئة فقط (عامية المتنورين، وعامية الأميين).

٢ نوع يكتسب بالتلقين المدرسي فقط (فصحى التراث، وفصحى العصر).

٣ نوع يكتسب تلقائيا وتحت ظروف التعليم المدرسي معا (عامية المثقفين).

٥ أسس الانتقال بين المستويات في أثناء الحديث:

١ المستويات التي يتم بينها الانتقال:

١ فصحى التراث، وعامية المثقفين، وعامية المتنورين.

٢ فصحى العصر، وعامية المثقفين، وعامية المتنورين.

٢ اتجاه الانتقال بين المستويات ومداه:

١ صاعد، للتلخيص، أو اصطناع الجد.

٢ هابط، للشرح، أو اصطناع السخرية.

٣

مثال من فصحى التراث

"(مقدم البرنامج) بسم الله الرحمن الرحيم أيها السادة والسيدات سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد فإحدى الفتيات بعثت إلينا تقول رأيت خطيب أختي يقبلها وهو لم يعقد عليها فلما استنكرت هذا قالا لي إنه لا شيء في ذلك فهل للخطيب هذا الحق أثناء الخطبة ويسأل نفس

السؤال الفتاة محاسن السيد ومعنا صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ بدر عبد الباسط نعرض على سيادته السؤال (الضيف) بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى شرع للخاطب الحق في رؤية مخطوبته فقط حتى لا ينفر منها عند الزفاف وحتى تكون مألوفة له والخطبة لا تثبت أي حق للخاطب قِبَل مخطوبته ولا للمخطوبة قِبَل خاطبها ولا يحل لهما أن يختليا أو يتلامسا أو يتناجيا فضلا عن القبلة وإن على أهل الخطيبة ألا يمكنوا الخاطب من الاختلاء بخطيبته فكم من مأساة وقعت بسبب هذا التهاون الذي يدعو إليه بعض الكتاب وبعض القصاصين الذين استقوا ثقافتهم من معين غير معيننا والقول بأن مدة الخطبة ليختبر الخاطب خطيبته والخطيبة خاطبها قول بعيد عن الحق والصواب فإن هذه الفترة كما هو الواقع فترة مداراة ورياء ينافق كل منهما الآخر حتى إذا تم الزواج كانت المعاملة على غير ما اعتاده كل منهما من الآخر في زمن الخطبة وليعلم الجميع أن الخطبة لا تعطي أي واحد من الخاطبين حقا إلا أن الخاطب أولى من غيره فلا يحل لمسلم أن يخطب على خطبة أخيه أدبنا الله بأدب الإسلام بمنه وكرمه والسلام عليكم ورحمة الله (مقدم البرنامج) شكرا شكرا وإلى لقاء غدا إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله".

مثال من فصحى العصر

"(مذيع) عزيزي المستمعْ مساءِ الخير (مذيعة) مَنْ هو أولْ رقل سار في الفداءْ (مذيع) الحلِّ الصحيحْ بَيْن هؤلاءِ الثلاثةْ (مذيعة) جون جلين (مذيع) لكسي لينوف (مذيعة) فيرجيل جريسو (مذيع) صديقي المستمعْ ما هُوَ عددِ القمهوريات التي يتكونْ منها الاتحاد السوفيتي (مذيعة) هل عددِ القمهورياتْ خمسةْ أو خمستاشرْ أو تلاتةْ وعشرين (مذيع) في آخرْ هذهِ الحلقةْ سوف نقدمْ لك الإجابةْ على هذينِ السؤالينْ (مذيعة) ابتسمْ من فدلَكْ وقفتْ المهندسةْ الممتازةْ في عملِها أمامَ مديرِ المصنعْ وتلبت بزيادةْ مرتبْها فابتسمَ مدير المصنع وقال لها في هدوء (مذيع) إن مرتبك اليوم أعلى من مرتب زميلك المهندس مع أنه له خمسة أولاد ومع ذلك لم يطلب زيادة مرتبه (مذيعة) فقالت المهندسة لقد كنت أظن أن مرتباتنا تدفع لنا من أجل إنتاجنا العملي في هذا المصنع لا من أجل إنتاجنا في المنزل ".

مثال من عامية المثقفين

"من بين الأخبار اللي أريتها في الصحف الإنجليزية خبر إضراب عمال الكهرباء وبغض النظر عن أسباب الإضراب وبصرف النظر عن الإضراب نفسه كوسيلة من وسائل الضغط في المجتمعات الرأسمالية إلا أن اللي لفت نظري هو موقف ربات البيوت هناك من هزا الإضراب اللي حصل أن ربات البيوت في إنجلترا مئدروش يفسروا إضراب عمال

الكهربا إلا أنه هيسبب لهم أضرار كبيرة جدا فكانت النتيجة انهم تجمعوا وراحوا على المكان اللي متجمعين فيه العمال المضربين وهاجموهم واعتدوا عليهم بالضرب كنوع من الاحتجاج على هزا السلوك غير الإنساني في تصرف عمال الكهربا واللي سبب لربات البيوت عدد كبير من الأضرار".

مثال من عامية المتنورين

"(الملاخ) مِساء الخير ضِيفِتنا الليلة حتتكلّم غريبة مع إنها كَنِت خَرْصَه أو الاسم اللي اشتهرت بيه كانت بطلة فِلْم الخرصة ولو شفوها الناس في الشارع يئولوا الخرصه اهه طبعا (سميرة) سميرة أحمد (الملاخ) سميرة انتي بتِبِّي خرصه في البيت (سميرة) مأْدرش (الملاخ) أو حتبِّي هَدْيَه دلوأتي (سميرة) لأّه يعني زي ما انت عايز أكون حكون يعني خرصه أو أكلِّم اللي انت عيزو وممكن أكون عميه كمان (الملاخ) مسّلتي الدور العميه (سميرة) مسلت عميه خمس خمس أفلام (الملاخ) يووه دا لازم بأه الأسرَّة البيضاء الأفلام بتعتك (سميرة) مش عرفه والله (الملاخ) على كل حال هيّ قدرة من الفنان انُّو يمسِّل أي شخصية يعجز الإنسان العادي انه يئوم بيها كام فلم انتي عملتيه في حياتك (سميرة) والله عملت اكتير يعني تقريبا أربعين فلم تأريبا كده (الملاخ) بطلة (سميرة) بطلة (الملاخ) اما اللي مكنتيش فيه بطلة (سميرة) لا اللي مكنتش فيه بطلة يمكن عشرة (الملاخ) خمسين (سميرة) آه (الملاخ) عملتيهم في كام سنه (سميرة) ف اربعتاشر سنه (الملاخ) دا ولا بنت اربعتاشر لكن بمنسبة

الكلام والسّمع يا ترى وانتي مسكه السنريو بتاع الفلم أبل متمسّليه وشفتي جمله ما عجبتكيش في الحوار يا ترى بتطلبي من المخرج انه يعدلها (سميرة) أيوه بطلب يعني أي بنائش المخرج وبنْلائي نفس المعنى لأنه فيه أوآت كلام الواحد ما يرتحش وهو بيئوله (الملاخ) وأدام الكمره سعات زاكرتك بتخونك واللا (سميرة) مش كتير خصوصا اني متعودة يعني عن اني أكون خرصه فبحاول أخرص شويه وبعدين أكلم ازا كنت حنسى الديلوج يعني".

مثال من عامية الأميين

"(أبو سيد) أعمل إيه يا ناس في الست بنبه مراتي احترت معاها واحتار دليلي آي والله انتو عرفين إن الإرْش لَبْيَضْ ينفع في اليوم لِسْوِدْ والواحد لازم يشيل من إرادوا لوأت عوزه ينفعه لا قدر الله في مرض واللا في ظرف شديد واللا حاجة من كده والعائل هو اللي يعمل حساب بكره لكن بأه الست بنبه مراتي الله يسامحها ويغفر لها مش عايزه كده (خالتي بنبه) إنت بتتكلم عني يابو سيد (أبو سيد) مين بنبه (خالتي بنبه) ظبطك بتؤول إيه بأه (أبو سيد) حؤول إيه يعني (خالتي بنبه) لازم بتْزِمّ فيّ من ورايا (أبو سيد) أنا يا بنبه (خالتي بنبه) طبعًا هي عاده واللا حتشتريها يا بو سيد (أبو سيد) لا والله أنا بؤول إن الست العأله (خالتي بنبه) آه (أبو سيد) هي اللي اتوفر وتشيل من مصروف البيت للأيام (خالتي بنبه) آه حاجة كل الناس عرفنها يا بو سيد (أبو سيد) وانتي

عارفاها يا بنبه دا يبأى يوم السعد لأنك لازم بتعملي بيها (خالتي بنبه) لأ وانت السادئ عرفاها بس مع وأف التنفيز (أبو سيد) تنفيز ليه بأى (خالتي بنبه) هو انت يا حسرة ألبي بتديني مصروف يِتْحَوِّشْ منه (أبو سيد) إمال بديكي إيه زلط (خالتي بنبه) بتديني مصروف نستلف عليه (أبو سيد) يا نهار زي بعضه أصدك إيه يا بنبه (خالتي بنبه) أصدي شوف لي معاك أد عشرة خمستاشر جنيه عشان أدي فلوس الناس للناس للبقال والجزار وبتاعة الفراخ وبتاع العيش وبتاع (أبو سيد) باااس عندك أولي لي أَبْله (خالتي بنبه) هيه (أبو سيد) هم دول لهم عندنا فلوس (خالتي بنبه) طبعًا يا خويا إِمَّال حتبلّى عليك (أبو سيد) النبي إيه والمصروف اللي بدوهولك أول الشهر (خالتي بنبه) إِه إِه إِه إِه تعيش يا بو سيد ما خلص يا خويا من يوم خمسه اسم الله عليك واحنا عمالين نُجُرّ بالسلف (أبو سيد) مش معقول يا بنبه (خالتي بنبه) ليه يا خويا مش معقول يعني مش عايزنا ناكل واللا إيه يا بو سيد (أبو وسيد) لكن المصروف اللي بدوهولك يا بنبه يكفي يكفي وينشال منه كمان (خالتي بنبه) يكفي إيه يا حسرة ألبي وحياة غلاوتك انت من يوم خمسه كان متشطب عليه (أبو سيد) يبأى لازم اتصرفتي فيه كده والله كده يا بنبه (خالتي بنبه) وحياتك يا بو سيد أبدًا ما اصرفت فيه غيرشي اسم الله على مقام حبيبي جبت لروحي جوزين جزم على شنطة اصغننه على فستان جاهز على (أبو سيد) بس (خالتي بنبه) بس يا خويا".

مُلَاحَظَاتٌ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْقَنَاةِ الصِّينِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ (CCTVARBIA)

١

لا ريب في أن لبعض الصينيين علاقة ببعض العرب من بلدان وشعوب مختلفة، وأن هؤلاء القلة من الصنيين، مطلعون على مستويات اللغة العربية المعاصرة المختلفة، اطلاعا يمكنهم أحيانا من استعمال أكثر من مستوى، كصديقي العزيز الكريم الدكتور لي شينغ يونغ رئيس معهد كونفشيوس بالقاهرة -وهو أصلا أستاذ بهذا المكان الذي أحاضر فيه (قسم اللغة العربية، من كلية اللغات الأجنبية، بجامعة بكين الغراء)- الذي يشارك أساتذة المعهد في عامية المثقفين، ويعاملهم بعامية المتنورين، فضلا عن تخصصه لفصحى التراث والعصر، ولا تخلو حياته بالقاهرة من التعرض لعامية الأميين من البوابين والسماسرة والسائقين والباعة وغيرهم!

٢

ولقد بدت لي القناة الصينية العربية فرصة عظيمة للاطلاع على واقع استعمال اللغة العربية في الصين؛ فاطلعت من برامجها على الحوار، وأفلام وثائقية، ونافذة على الصين، والفنون الصينية، والأخبار- فكان منها ما اعتمد على مذيعين عرب غير مُسَمَّيْنَ دائما، أو ضيوف عرب مُسَمَّيْنَ دائما، ولا تعنينا هنا لا لغة هؤلاء ولا لغة أولئك. ولكن أكثر تلك

البرامج معتمد على صينيين، وهم وحدهم الذين يعنيني هنا أن أذكر طرفا مما لاحظته على لغتهم العربية.

٣

إن اللغة العربية في القناة الصينية العربية، تنتمي بلا ريب إلى مستوى فصحى العصر في أخف خصائصها التي ضبطها أستاذنا الدكتور السعيد، وعلق منها على النص الخفيف المختار فيما سبق؛ فلقد كان ذلك هو المستوى الوحيد الذي أتاح خلط خصائص اللغة العربية بخصائص اللغة الصينية، ولا ريب أيضا في أنها حين تُقرأ من مكتوب تزداد صحتها، وحين تُرتجل من غير ورقة ينكشف بها إتقان المتكلم!

٤

أما أصوات اللغة العربية في القناة العربية الصينية، فقد جنى عليها مستوى فصحى العصر، بما يأتي:

١ اختلال الأصوات الأسنانية: ث–س: نثق– نسق، الثقافي– السقافي.
٢ إبدال الأصوات المتقاربة بعضها من بعض: الهمزة المكسورة ياء، د– ت، ص– س: تصميم– تسميم، ض– د: أيضا– أيدا، ط– ت: الانطباعات– الانتباعات، ع– ء، ق– ك، ء– ي.

٥

وأما أبنية كلمات اللغة العربية (صَرْفُها) في القناة العربية الصينية، فقد جنى عليها مستوى فصحى العصر كذلك، بما يأتي:

١ تغيير البنية: لَقَب- لَقْب، قِدِّيس-قَدِيس، يَصْطَفُونَ- يَتَّصِفُوْنَ، مُهِمًّا- مَهِمًّا.

٢ الحذف من البنية: السعداء- السعدا، أل- ×، ة- ×.

٦

وأما أبنية جمل اللغة العربية (نحوها) في القناة العربية الصينية، فقد جنى عليها مستوى فصحى العصر كذلك، بما يأتي:

١ اختلال المطابقة: من الروافد المهم، إنها حدث غير مسبوقة، الحفاظ عليها صعبة، عندما كنتم تعمل.

٢ تغيير الإعراب: أن نهتمُّ.

٣ تسكين أواخر الكلمات عند وصل الكلام: لازمْ يكونْ صالحا، مثلْ صناعةِ الإبداعْ مثلْ صناعةِ الثقافهْ.

٤ تحريك أواخر الكلمات عند وقف الكلام، وهو من معالم فصحى العصر على ألسنة أساتذتها الصينيين، وهذه المعالم جديرة بمحاضرة خاصة باستعداد خاص.

٥ شيوع حالة من الأداء المتوجس بين المتخصصين والفاضلين.

٦ من طرائف الصينيين إذا تكلموا العربية، أن يختموا عبارتهم بلاحقة "صحيح"، في نغمة هابطة.

٧

إن مستعملي اللغة العربية من الصينيين، واقعون في شباك فصحى العصر الخفيفة، التي ضبطها أستاذنا الدكتور السعيد محمد بدوي، والتي لا تخلو من بعض خصائص عامية المثقفين- لأنها التي تعم وسائل الإعلام العربية نفسها. ولكنهم غير مستغنين عن فصحى العصر العالية، التي أهملها أستاذنا الدكتور السعيد محمد بدوي، والتي تحافظ على صِلَتِها بفصحى التُّراث قَوِيَّةً قادِرَةً فاضِلَةً مُشْرِقَةً.

الِاطِّرَادُ وَالشُّذُوذُ اللُّغَوِيَّانِ

تنازع بحث نظام اللغة قديما صنفان من الباحثين:

أما أولهما فكان منطق العلم والتعليم أغلب عليه منه على الآخِر.

وأما الآخر فكان منطق الفن والإدهاش أغلب عليه منه على الأول.

ولقد أقبلا جميعا معا على الكلام العربي، استيعابا ونقدا؛ فكان صنفهم الآخِر أكثر رواية وحفظا؛ ففي حين يجمع الصنف الأول منهم النظير من الكلام العربي، إلى نظيره، وينفي عنهما من الكلام العربي نفسه غيرهما، موجبا على المتلقي عنه مراعاة ما جمعه، مانعا منه مراعاة ما نفاه – يورد الصنف الآخر منهما المثال من الكلام العربي، كيف مثل له، ويشفعه بغيره، مغريا المتلقي عنه بما أورده.

"وهما الطائفتان اللتان عَصَبَ بهما طُلّابُ العربية، وقد تضافرتا جميعا على استخراج هذه العلوم بعد أن كانت السابقة فيها للبصريين بما أصلوا وفرعوا؛ وكان في هؤلاء غريزة التحقيق والتمحيص دون الكوفيين، فبغت لذلك إحدى الطائفتين على الأخرى نفاسة وحسدا، ثم استطار الجدال بينهم فوقعوا من المناظرة في أمر مستدير، وتباين ما بين الفئتين إلا حيث تتصلان في الكلام لتدفع إحداهما الأخرى؛ ومن ثم جعل الكوفيون يَتَمَرَّؤونَ (تَمَرَّأَ بِه إذا طَلَبَ المُروءَةَ بِنَقْصِه) فينتقصونهم ليعد ذلك منهم قدرة على الكمال، ويعيبون الرجال ليكونوا هم وحدهم الرجال! أما البصريون فكانوا يريدون أن أصحابهم لو رُكِّبوا في نصاب

رجل واحد ما بلغوا أن يعدلوا أضعف رجل في البصرة، وقد رموهم في باب من الكذب بقَمْصِ الحناجر، والأخذ عن كل بَرٍّ وفاجر، وجعلوهم من علماء الأسواق، وتلامذة الأوراق، ولَشَدَّ ما انْدَرَؤوا جميعا بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ بمثل هذا الكلام، وقاموا في المناظرة كل مقام؛ على أن العلم منذ وجد إنما تخلص حقائقه بالجدال، فرحم الله الغالب فيه والمغلوب (...).

ومن لدن الكسائي غلب أهل الكوفة على بغداد، لخدمتهم الخلفاء وتقديمهم إياهم كما علمت، فغلبوا بذلك البصريين على أمرهم، ورغب الناس من يومئذ في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر، وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الأصل، واعتمدوا على الفروع؛ ومن ذلك بدأ اختلاط المذاهب الذي عده البصريون اختلاطا للعلم، لأن مذاهب الكوفيين ليست عندهم من العلم الصحيح"[٨٤]!

ثم كان الصنفان إذا ما تناظرا، قدح الآخر في استقامة ضبط الأول، بما يورده عليه من رواية ما يخل بتنسيقه، وقدح الأول في استقامة حفظ الآخر، بما يُبَهْرِجُ به روايته، حتى سَفَرَ بينهما مصطلحا الاطراد والشذوذ؛ "فجعل أهل علم العربية ما استمر من الكلام في الإعراب

[٨٤] مصطفى صادق الرافعي (تاريخ آداب العرب): ١/ ٤١٠، ٤١٢.

وغيره من مواضع الصناعة مطردا، وجعلوا ما فارق ما عليه بقية بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره شاذا"[٨٥].

الاطراد والشذوذ إذن مصطلحان علميان (صناعيان) طبيعيان قديمان باقيان؛ فهما من لوازم التقعيد حتى قيل: "لِكُلِّ قاعِدَةٍ شَواذٌّ"، وكانت وما زالت ولن تزال ما دام في العلم تقعيد، بل ربما قاربت نسبة الشاذ نسبة المطرد، ولا ضير على نظام اللغة والتفكير من ذلك، ما دام أصل القضية هنا مفهوما؛ فهو نظام من المطرد والشاذ جميعا معا، بل في تَشْذيذِ الشّاذِّ طَرْدُ المُطَّرِدِ، أو هو كما يقال، يثبت القاعدة ولا ينفيها[٨٦].

ولا وجه لثورة بعض الباحثين المحدثين، على الشاذ، رعايةً للمطرد، وإِخْراجِه كُلَّ ما له نظائر في القرآن الكريم إو إحدى قراءاته الصحيحة، أو في الحديث النبوي الصحيح، وكُلَّ ما اختص بالشعر، وكُلَّ ما اختص بلهجة عربية، وكُلَّ ما اختلف فيه النحويون، وكُلَّ ما كان بتأويل، وكُلَّ ما اختص بفترة معينة، وكُلَّ ما اعتمد على سائر القرائن، وكُلَّ ما كان تجميلا لصياغة لفظ -عن أن يكون شاذا، وعِفَّتِه عن أن

---

[٨٥] أبو الفتح عثمان بن جني (الخصائص): ١/ ٩٧.

[٨٦] مما يذكر في هذا المقام أن طرفا من ثورة تشومسكي بما قبله إنما كان لمراعاة الشاذ.

يُسَمِّيَ ما لم يشمله شيء مما سبق، شاذا، مقتصرا فيه على عبارة "يُحْفَظُ، وَلا يُقاسُ عَلَيْهِ"[٨٧]!

فليس في وصف المظهر من مظاهر نظام اللغة والتفكير بالشذوذ من ضَعَةٍ، ولا في وصف غيره بالاطراد من رفعة، إلا أن يُسْتَعْمَلَ المَجازُ، وهو لا تنبني به القواعد بل بمطرد الحقائق وشاذها اللذين تحكمهما شروط وتحددهما معالم:

"على أربعة أضرب:

١ مطرد في القياس والاستعمال جميعا، وهذا هو الغاية المطلوبة والمثابة المنوبة؛ وذلك نحو: قام زيد، وضربت عمرا، ومررت بسعيد.

٢ ومطرد في القياس شاذ في الاستعمال (...) نحو قولك عسى زيد قائما أو قياما؛ هذا هو القياس، غير أن السماع ورد بحظره، والاقتصار على ترك استعمال الاسم هنا؛ وذلك قولهم: عسى زيد أن يقوم (...)

٣ والثالث المطرد في الاستعمال الشاذ في القياس (...)

---

[٨٧] محمد أحمد العمروسي (الاطراد والشذوذ في النحو العربي بين القدامى والمحدثين): ٢٤٦.

٤ والرابع الشاذ في القياس والاستعمال؛ فلا يسوغ القياس عليه، ولا رد غيره إليه. ولا يحسن أيضا استعماله فيما استعمله فيه إلا على وجه الحكاية.

واعلم أن الشيء إذا اطرد في الاستعمال وشذ عن القياس، فلابد من اتباع السماع الوارد به فيه نفسه؛ لكنه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره (...)

فإن كان الشيء شاذا في السماع مطردا في القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك ، وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله"[٨٨].

بهذا النص القديم المهم تفصلت مسألة الاطراد والشذوذ؛ فإنما كان المطرد في القياس والاستعمال جميعا، هو الغاية المطلوبة والمثابة المنوبة، من أجل طموح العلماء إليه وتعويلهم عليه؛ فهو الذي ترسخ به قواعدهم، وتستطيل؛ فتقنع المتعلم وتعجز الخصيم[٨٩].

---

[٨٨] ابن جني (نفسه): ١/ ٩٧-٩٨، ٩٩.

[٨٩] مما يستطرف في هذا المقام قول برافمن الذي أورده الدكتور محمود أحمد نحلة (مدخل إلى دراسة الجملة العربية)، بشأن رأي البصريين في الجملة الاسمية الكبرى (عبد الله قام): "أؤكد أننا مضطرون إلى الموافقة على تعريف النحاة العرب كما ورد في أكثر كلامهم؛ فهم الذين رووا المادة اللغوية بما هي انعكاس أو وصف للتركيب النفسي أو العقلي الذي ترتكز عليه الظواهر التركيبية المختلفة في فكر المعاصرين لهم"؛ فلهذا نبني على أقوالهم ولا نهدمها، فإن تناولنا كلاما أو حديثا كان اعتماد أقوالهم أحرى لكشف مدى التطور.

ولكن لما لم يمثل ابن جني للضربين الثالث والرابع، بشيء من مظاهر نظام اللغة والتفكير (النحو)، بل اقتصر على مظاهر صرفية -دل على أن الذي يصيب نظام اللغة والتفكير (النحو)، هو شذوذ الاستعمال، لا شذوذ القياس، وكأن هذا النظام (النحو) كان من وضوح المصادر والموارد، بحيث مكن العلماء من قياسه وتبويبه وضبطه، فاستوعب وجوه الاستعمال اطرادا وشذوذا.

لقد عرف ابن جني عداوة ما بين اللغة واللبس؛ فأوصانا أن نتمسك بالمطرد، وألا نتجاوز في الشاذ حده، وكأنه يعلمنا أن ليس كل مقيس يستعمل، بمقتضى الحكمة "ليس كل ما يعرف يقال". ولا ريب في أن المطرد يحفظ اللغة والتفكير، ولكن لا ريب في مضاء قانون التطور العام؛ فإن من مضادة الطبيعة اطراد هذا الاطراد؟

لقد كانت اللغة والتفكير العربيان من الرحابة والخصب، بحيث مكنا العلماء من وضع قياسهم الذي استوعب وجوها من الاستعمال، تتناوب اطرادا وشذوذا ما اختلف الليل والنهار، على وفق سنة التطور اللغوي العام، فما صار مطردا ربما كان شاذا، وما صار شاذا ربما كان مطردا؛ ولا سيما أن الشذوذ لا يناط بقلة ولا ندرة، بل بمخالفة الحال العامة في الباب (المطرد) من اللغة[٩٠].

---

[٩٠] مجمع اللغة العربية (في أصول اللغة): ١/ ١٢٨.

لقد جعل مجمع اللغة العربية المصري، هم لجنة الأصول، ثم لجنة الألفاظ والأساليب "تحرير ما تجري به أقلام الخواص من الكتاب، مما يخرج عن مألوف اللغة المتعارف، حريصا على توجيهه الوجهة التي تأنس بها أوضاع الفصحى، فيما هو مأثور من مسموعها الوثيق، أو فيما يستنبط من آراء أئمتها الأعلام حول الضوابط والأحكام"[91]. وكان ذلك "طوعا لما يقتضيه تجدد اللغة ونموها وسيرورتها من التقدير الدقيق لحاجة الاستعمال الحديث، ومن الوزن الرشيد للحس اللغوي والذوق البياني عند الكاتبين المعاصرين، في مختلف مجالات الإبانة والإيضاح"[92]؛ فتجلى موضع باب الاطراد والشذوذ من عمل اللغويين المعاصرين.

---

[91] مجمع اللغة العربية (الألفاظ والأساليب): ٢/ج من المقدمة.

[92] السابق نفسه.

مِنْ حِوَارَاتِ الْمَجَلَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إشعار بملاحظات المحكمين

(رقم البحث: ٥)

سعادة الدكتور/ محمد جمال صقر -يحفظه الله!-

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

يسرني أن أرفق لكم طيه صورة من ملاحظات المحكمين لبحثكم المعنون بـ: (خصائص التفكير العروضي).

أرجو تكرمكم بإجراء التعديلات المطلوبة وفقًا لما أشار إليه المحكمون، وتقديم تقرير مفصل عما تم تعديله، وتعليل ما لم يتم تعديله، وإعادته إلينا في مدة أقصاها أسبوعين لاستكمال ما يلزم بشأنه.

وتفضلوا سعادتكم بقبول فائق احترامي وتقديري!

د . سليمان الرحيلي

رئيس تحرير مجلة جامعة طيبة

للآداب والعلوم الإنسانية

استمارة تحكيم بحث مقدم للنشر

في مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية

عنوان البحث

(خصائص التفكير العروضي)

التحكيم المفصل لعناصر البحث الأساسية

نموذج رقم (٥)

فضلاً وضح رأيك تفصيلاً حول العناصر الآتية : (يكتب ذلك على أوراق مستقلة)

١ عنوان البحث: (مناسبته للموضوع، طوله، ... إلخ) .

يقوم الإيقاع على اطراد القيم الزمانية، وينبثق النظام الإيقاعي لأي لغة من اللغات من خصائصها أي: من بنيتها الصوتية والصرفية، لذلك لا وجود للنظام العروضي بصورة مستقلة، وتتباين الأنظمة العروضية تبعاً لتباين اللغات، فهناك النظام النبري والنظام المقطعي، وتتبع اللغة العربية نظاماً إيقاعياً مقطعياً كمياً كيفيا أي أن الأبيات الشعرية تتكافأ نسبياً في عدد المقاطع، هذا بالإضافة إلى أن هذه المقاطع تترتب بكيفية معينة حسب كمها.

ولكن عنوان البحث يفترض وجود خَصائِصُ لِلتَّفْكيرِ الْعَروضيِّ اللُّغَويِّ وكأن هذين النظامين(العروضي واللغوي) شيء واحد ، في حين تعد العلاقة بين النظام الإيقاعي (الخارجي والداخلي) – سواء أكان زمنيا كالوزن أم نغميا كالقافية فضلا عن سلسلة التوازيات النحوية، وتكرار الألفاظ وتجانسها، وتكرار الأصوات- والنظام اللغوي علاقة قائمة على الصراع ، وتتم ترجمة هذا الصراع لدى الشعراء المتمكنين إلى ظواهر أسلوبية تدل على تدافع المعني في القالب الإيقاعي كالتدوير،

والاعتراض، والاطراد، والتضمين مما يسهم في إضفاء حيوية على الإيقاع .

هذا فضلا عن أن النظام اللغوي هو الأداة التي يستخدمها الإنسان في التفكير ، ولا يستطيع من اكتسب أي نظام لغوي التفكير خارج هذا النظام ، أما النظام العروضي فهو إحساس يحس به كل من المرسل والتلقي قائم النسبية في الكميات، والتناسب في الكيفيات، والنظام والمعاودة الدورية . لذا فإني أطالب بتغيير العنوان إلى : " نظم المنثور ونثر المنظوم دراسة مقارنة "

٢ أهمية البحث : (قيمته النظرية والعملية ، أصالته ، جدّته، ... الخ) .

موضوع البحث مهم شريطة تعديل العنوان ، والمكتبة العربية بحاجة إلى هذا النوع من الدراسات النصية المقارنة بين الفنون الأدبية .

٣ توافر العناصر الأساسية للبحث : (الإطار العام ، الإطار النظري ، الدراسات السابقة ، إجراءات الدراسة، نتائج الدراسة ومناقشتها ، التوصيات) .

البحث ضعيف من هذا الجانب فهو يخلو من الإطار النظري – كالحديث عن الأجناس الأدبية – والدراسات السابقة والتوصيات .

٤ كفاية الإطار العام للبحث (المقدمة ، المشكلة ، أسئلة البحث ، أهداف البحث ، أهميته ، حدود الدراسة ، مصطلحات البحث) (يراعى ذلك في بعض التخصصات) .

يفرق الباحث بين ستة أنواع من المنظوم والمنثور :

٣ مَنْظومٌ طَبيعيٌّ ، نشأ بوُجود العروض .

٤ مَنْثورٌ طَبيعيٌّ ، نشأ بفُقود العروض .

٥ نَظْمُ مَنْثورٍ طَبيعيٌّ ، نشأ بإيجاد العروض المَفْقود ، عَفْوًا .

٦ نَثْرُ مَنْظومٍ طَبيعيٌّ ، نشأ بإِفْقاد العروض المَوْجود ، عَفْوًا .

٧ نَظْمُ مَنْثورٍ صِناعيٌّ ، نشأ بإيجاد العروض المَفْقود ، قَصْدًا .

٨ نَثْرُ مَنْظومٍ صِناعيٌّ ، نشأ بإِفْقاد العروض المَوْجود ، قَصْدًا .

ويحدد نطاق بحثه بالنوعين الثالث والرابع ، لكنه لم ينتبه إلا أن هذا التحديد خاص بالفن الشفهي الذي وصفه بالطبيعية، وهذا بدوره يعني وجود خصائص مشتركة شفهية بين نظم المنثور ونثر المنظوم ، لكن الباحث ركز على الفروقات ولم ينجح في ذلك، وأغفل الخصائص المشتركة .

ويرجع الفضل في توجيه الاهتمام بالجانب الشفهي من اللغة إلى جهود اللغويين من أمثال سوسير وتشومسكي في تفكيك الظاهرة اللسانية إلى ثنائية " اللغة والكلام " مما وجه الاهتمام إلى دراسة السمات المميزة التي تتخذها اللغة في الاستعمال كالاختلاف في أنواع المخاطبات والنصوص ما بين شفهية وكتابية.

ولم يقتصر الاهتمام بالجانب الشفهي من اللغة على اللسانيين، فقد شكل هذا الجانب عماد نظريات نقدية حديثة: كالتعبيرية عند شارل بالي ، ونظرية التواصل اللفظي عند ياكبسون ، والسياق الأسلوبي عند ريفاتير، ووظف النقد الألسني التقنيات اللسانية في دراسة هذا الجانب ، لذا أخذت تشمل الخصائص الشفهية مستويات التحليل النصي: كالمستوى الصوتي والمستوى المعجمي، والمستوى النحوي.

ففي المستوى الصوتي يمتاز الخطاب الشفهي بخصائص أداء شفهية خاصة به ، وبتكرار الألفاظ لإتمام عملية رصد المعنى من جهة ومساعدة المتلقي على استيعاب الخطاب من جهة أخرى، ويراعي الخطاب الشفهي استخدام الفاصلة أو القافية للفت انتباه المتلقي، ولو كان ذلك عن طريق العدول عن الأصل النحوي. ويوظف الخطاب الشفهي الجناس للفت انتباه المتلقي وللتعبير عن تقابل المعنى. ويجيء التوازي النحوي للفت انتباه المتلقي وللتعبير عن تقابل المعنى أو تقاربه.

وفي المستوى المعجمي يكثر الخطاب الشفهي من استخدام التضاد الدلالي بمستويين " الطباق والمقابلة " للدلالة على التكامل الدلالي أو التضاد. وتبرز في الخطاب الشفهي علاقات التداعي الدلالي كالمجاز المرسل والكناية والتورية لارتباطه الوثيق بالسياق اللغوي.وينزع الأسلوب الكنائي في الخطاب الشفهي إلى اللغة الطبيعية أي التلقائية لتمثيله الأشياء بخصائصها. أما علاقات التماثل الدلالي المتمثلة في التشبيه والاستعارة فتجنح إلى المقاربة في التشبيه ومناسبة المستعار للمستعار له. ويقتصد الخطاب الشفهي في مفردات معجمه، وترتبط هذه الظاهرة بتكرار الألفاظ .

وفي المستوى النحوي يمتاز الخطاب الشفهي بكثرة استخدام الأفعال على حساب استخدام الصفات. وتهيمن الوظيفة الإفهامية التأثيرية على باقي الوظائف اللسانية في الخطاب الشفهي، وتجد تعبيرها النحوي الأكثر خلوصاً في النداء والأمر. ويؤثر الخطاب الشفهي عطف الجمل على فصلها مما يحقق الانسجام النصي، في حين يؤدي الفصل بين الجمل إلى شيوع الغموض واللاربط والتشتت. ويكثر الخطاب الشفهي من استخدام ضمائر المخاطَب للإسهام في إيجاد حل تحليلي مطول لقضية ما. وتشيع الصيغ أي الجمل الثابتة كالأمثال والحكم، وغالباً ما كانت الحكمة تأتي تعقيباً أو تعليقاً على المثل.

٥ كفاية الإطار النظري والدراسات السابقة وحسن توظيفها .

الإطار النظري غير كاف ، ولم يعرض الباحث دراسات سابقة .

٦ ملائمة المنهج والأدوات البحثية .

لم ينجح الباحث في تحديد السمات الأسلوبية لكل من نظم المنثور ونثر المنظوم من حيث أوجه الشبه وأوجه الاختلاف، وهذا يرجع إلى غياب الأساس المنهجي، فما قدمه لا يعدو أن يكون إعرابا لنماذج منتقاة وغير كافية لا تتجاوز عشرة نماذج مزدوجة من الفنين ، فثمة سؤال يطرح عن كيفية وضع حد فاصل لما نعده تعبيراً عادياً، وما نعده أسلوباً تدرسه الأسلوبية، وقد تعددت إجابات الدارسين عن هذا السؤال الذي تعد الإجابة عنه مدخلاً ضرورياً للزاوية التي يختارها اتجاه ما للقيام بدراسة أسلوبية.

في البداية يجب على الدارس الأسلوبي أن يلم بمعارف اللغة كلها: الصوتية، والعروضية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية فهي تشمل النواحي جميعها التي يجب أن تكشف عن أسلوب الكاتب، فالواقع الأسلوبي هو في الأساس واقع لغوي.

ولكننا لا نستطيع أن نميز الوقائع الأسلوبية عن بقية وقائع اللغة ما لم تكن لها خواص محددة، فالتحليل اللغوي الخالص للعمل الأدبي سيبرز العناصر اللغوية جميعاً دون أن يعين الملامح التي تمثل "وحدات

النص" الأسلوبية، لذا لا بد من القيام بجمع كل العناصر التي تكون الهيكل الأسلوبي للنص واستبعاد ما لا يقوم بوظائف أسلوبية .

لقد أحسَّ النقاد بأهمية هذا التحديد المبدئي وقد توصلوا إلى أن:

- الظاهرة الأسلوبية لا تتطابق مع الظاهرة اللغوية
- فكل ظاهرة أسلوبية ظاهرة لغوية، وليس كل ظاهرة لغوية ظاهرة أسلوبية
- الظاهرة الأسلوبية ليست حكراً على الأدب: أي أنها تلمس في الأدب بمعناه الخاص أي النصوص الممتازة من الشعر والنثر، وتلمس في الأدب بمعناه العام كالتاريخ، والجغرافيا، والقانون، والاجتماع، والأخلاق. فالنثر العلمي يقوم على العقل ولا يخلو من العاطفة كالمقالة، والتاريخ، والسيرة، والمناظرة والتأليف .

أما الأسلوب الأدبي بشكل عام نثراً وشعراً فيمتاز بـ:

١. دخول العاطفة.
٢. الخلو من النفعية.
٣. يهدف إلى التأثير لا التعليم المباشر.
٤. مفعم بالصور والموسيقى.
٥. يعرض المعنى الواحد في صور عدة .

وإذا كان النثر الأدبي يقوم على العاطفة ولا يخلو من الفكر القيم، كالوصف والرواية، والمقالة والرسالة، والخطابة، فإن الأسلوب الشعري يمتاز بخصائص أسلوبية خاصة وهي:

١. التركيز على القيمة التعبيرية للأصوات، والمحاكاة الصوتية.

٢. الإكثار من الصور الشعرية.

٣. الإكثار من التقديم والتأخير.

٤. ورود الضرورات الشعرية.

٥. العناية بالإيجاز والكثافة في تأليف العبارة.

٦. الوزن: وهو أخص ميزات الشعر.

٧. القافية.

لذا يمكن أن نقول :

١. تقوم الصلة بين الشعر والنثر الأدبي على اتحاد موضوعي واختلاف شكلي.

٢. الاختلاف الشكلي كمي وليس كيفياً.

ومع ذلك تظل صلة اللغة بالنقد الأدبي تنصب في معظمها على صحة النص، وهذا الجانب الأعظم من اللغة هو الجانب العرفي الاجتماعي غير الفردي، ثم لا يبقى من اللغة بعد ذلك ما يتجه إلى

الاعتبارات الجمالية إلا جانب الاختيار الفردي لمفردة دون أختها، ولأسلوب دون أسلوب، وكلا الأسلوبين يتمتع بالصحة اللغوية .

٧ ملائمة الأساليب الإحصائية المستخدمة ودقة التحليل الإحصائي .

الأساليب الإحصائية دقيقة

٨ دقة عرض النتائج وتفسيرها .

توصل الباحث إلى نتائج عدة ولكنها قليلة الأهمية وهذا يرجع إلى عدم توظيف المنهج المناسب لهذا النوع من الدراسات.

٩ التوصيات : (أهميتها ، إجرائيتها ، واقعيتها ، ... الخ) .

لا توجد توصيات.

١٠ كفاية التوثيق وسلامته ، وكفاية المراجع العلمية وحداثتها .

لابد من تقديم ترجمة مختصرة للشعراء والناثرين مع ذكر مراجع لهذه التراجم ،والمراجع العلمية اقتصرت على المراجع البلاغية وكتب الصناعة الأدبية وخلت من المراجع النقدية الحديثة التي تعنى بدراسة الأساليب الأدبية مثل :

- أحمد درويش - الأسلوب والأسلوبية، مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه، فصول، مجلد ٥، عدد ١، مصر، ١٩٨٤م، ص ٦٠ – ٦٨.

- ايفانكوس، خوسيه – نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، مكتبة غريب.
- تمام حسان – اللغة والنقد الأدبي، فصول، مجلد ٤، عدد ١، مصر، ١٩٨٣م، ص ١١٦ – ١٢٨.
- نفسه – المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، فصول، مجلد ٧، العددان، ٣، ٤، مصر، ١٩٨٧م، ص ٢١ – ٣٥ .
- سعد مصلوح – الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ط١، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٠م.
- شبلر، برند – علم اللغة والدراسات الأدبية، دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي، ترجمة محمد جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٧م.
- شكري، عياد – اتجاهات البحث الأسلوبي، دراسات أسلوبية، اختيار وترجمة وإضافة دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٥م.
- نفسه- دائرة الإبداع، مقدمة في أصول النقد، دار إلياس العصرية، مصر، ١٩٨٦م.
- نفسه – اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، ط١، ١٩٨٨م.

- نفسه – مدخل إلى علم الأسلوب، ١٩٨٢م.
- صلاح فضل – علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥م.
- نفسه – نحو تصور كلي لأساليب الشعر العربي، عالم الفكر، مجلد ٢٢، العددان ٣، ٤، الكويت، ١٩٩٥م، ص ٦٦ – ٩٣.
- عبد الله حولة – الأسلوبية الذاتية أو النشوئية، فصول، مجلد ٥، عدد ١، مصر، ١٩٨٤م، ص ٨٣-٩٢
- عبد السلام المسدي- الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٧م.
- نفسه – الأسلوبية والنقد الأدبي، منتخبات من تعريف الأسلوب وعلم الأسلوب، الثقافة الأجنبية، السنة الثانية، عدد ١، العراق، ١٩٨٢م، ص ٣٥-٤٣.
- عبد القادر المهيري – البلاغة العامة، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٨، تونس، ١٩٧١م، ص ٢٠٧-٢٢١.
- عدنان بن ذريل – الأسلوبية، الفكر العربي، مجلد ٤، العددان ٢٥، ٢٦، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٢٤٩-٢٥٧.

- عزة آغا ملك – الأسلوبية من خلال اللسانية، الفكر العربي المعاصر، عدد ٣٨، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٨٣ – ٩٣.
- علي زيتون – البلاغة العربية بين لغتي التراث والحداثة، الفكر العربي، سنة ٢١، عدد ٦٠، بيروت، ١٩٩٠م، ص ١١٤-١٢٦.
- مازن الوعر، الاتجاهات اللسانية المعاصرة ودورها في الدراسات الأسلوبية، عالم الفكر، مجلد ٢٢، العددان ٣، ٤، الكويت، ١٩٩٥م، ص ١٣٦-١٨٩.
- مري، مدلتون - معنى الأسلوب، ترجمة صالح الحافظ، الثقافة الأجنبية، السنة الثانية، عدد ١، العراق، ١٩٨٢م، ص ٦٧-٧٤.
- مصطفى صفوان – الجديد في علوم البلاغة، مجلد ٤، عدد ٣، مصر، ١٩٨٤م، ص ١٦٨-١٧٢.
- هوف، غراهام – الأسلوب والأسلوبية، ط١، ترجمة كاظم سعد الدين، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م.

١١ سلامة اللغة ودقتها .

اللغة سليمة

١٢ الالتزام بالشروط العامة للنشر في المجلة . (مرفق بطيه صورة من قواعد النشر بالمجلة).

نعم.

سعادة أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم،

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

بسم الله -سبحانه، وتعالى!- وبحمده،

وصلاة على رسوله وسلاما،

ورضوانا على صحابته وتابعيهم، حتى نلقاهم!

أما بعد؛

فيطيب لي قبل أن أخط أي خط، أن أشكر لكم تفضلكم بنقد بحثي "خصائص التفكير العروضي اللغوي بين نظم المنثور ونثر المنظوم"، النقد البناء الحريص على تسديدي فيه وفيما بعده من أبحاث. ولكم عليَّ أن أنشر كلمتكم هذه على طلاب العلم، مثالا للحوارات العلمية الفعالة النافعة. بارك الله فيكم، وأحسن إليكم، ونفع بكم، وأطال في النعمة بقاءكم.

ولا أرتاب في أنكم ستنزلونني منزلة الابن الذي عمل من وراء أبيه عملا استنكر عليه وجوهًا منه، فلما أفضى إليه بمراده أثبت تقديره بما يستحقه. ولسوف أقتطع من تعليقاتكم ما يعبر عنها، لأوردها مُتَفَيِّئًا من ظلال أبوَّتكم وحنوِّكم، ما يُؤَمِّنُني على توضيح مواقفي منها.

ولكن ينبغي لي أولا أن أبتهج بما حظي من بحثي المتواضع بثنائكم الكريم، دلالةً على حسن تأتيكم إلى النقد البناء:

١ "أهمية موضوع البحث": وأرجو أن يكون الداعي إلى هذا الوجه من الثناء، وعي الباحث لمجال عمله، وتقديره لمجال نشره.

٢ "دقة الأساليب الإحصائية": وأرجو أن يكون الداعي إلى هذا الوجه من الثناء، خبرة حَدْس الباحث؛ فإن الإحصاء غير العَدِّ، يعتمد على حدس الخبير بالعناصر الدالة المؤثرة في بناء النص وحركته.

٣ "تحصيل نتائج عدة": وأرجو أن يكون الداعي إلى هذا الوجه من الثناء، سلامة منطق الباحث الذي استخلص من المقدمات الواضحة نتائجها المقبولة.

٤ "سلامة اللغة": وأرجو أن يكون الداعي إلى هذا الوجه من الثناء، سلامة تفكير الباحث؛ فإنه إذا كان التفكير والتعبير ملتبسين التباس الشيء الواحد، كما علمنا علماء اللغة النفسيون وعلماء النفس اللغويون، فإن سلامة اللغة علامة سلامة التفكير، وهو أقصى ما يُطْمَح إليه.

٥ "الالتزام بالشروط العامة للنشر في المجلة": وأرجو أن يكون الداعي إلى هذا الوجه من الثناء، تواضع الباحث للعلم والعلماء، ولا سيما في زمان انبسط فيه للجهل والجهلاء جاهٌ وسلطان.

قال أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم: "عنوان البحث يفترض وجود خَصائِص للتَّفْكيرِ الْعَروضيِّ اللُّغَويِّ وكأن هذين النظامين(العروضي واللغوي) شيء واحد". ولا أنكر أن العروض واللغة نظامان لا نظام واحد، ولكن التفكير الإبداعي الشعري يتداخل فيه النظامان تداخلا شديدا؛ فيؤثر كل في الآخر ويتأثر به، فيولدان معا، ويثبتان معا، أو يتغيران معا، من غير إنكار أن أول حركة من حركات وجودهما المزدوج، عروضية دائما -ولهذا أُقَدِّمُ العروض على غيره في العنونة دائما- ثم يكون الاصطراع الفني المعروف، على قانون اكتمال البناء الشعري بالاستقامة والانحراف جميعا معا. ولقد صار ذلك التداخل العروضي اللغوي من مسلمات هذا الشأن في العربية (موسيقى الشعر العربي: مشروع دراسة علمية للدكتور شكري عياد، والجملة في الشعر العربي للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، وغيرهما)، وغير العربية (الشاعر والشكل لجدسون جيروم، والنص والخطاب والإجراء، لدي بو جراند، وغيرهما). بل قد نبهتم أنتم على ذلك بقولكم: "يقوم الإيقاع على اطراد القيم الزمانية، وينبثق النظام الإيقاعي لأي لغة من اللغات من خصائصها أي: من بنيتها الصوتية والصرفية، لذلك لا وجود للنظام العروضي بصورة مستقلة".

ذكر أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم، أن البحث ضعيف من حيث خلوه من إجراءات الدراسة. ولقد رصدتُ لها مبحث "تنميط

خصاص التفكير العروضي اللغوي"، الذي نبه عموما على ما سيجري عليه العمل، مما يُدَلُّ خصوصا عليه في كل موضع على حدة، لتتجمع أطرافه في الخاتمة، ولكنني تَأَتَّيْتُ لذلك بمبحث "نظم الكلام ونثره"، ثم مبحث "مظان انكشاف خصائص التفكير العروضي اللغوي"، ثم مبحث "نماذج نظم المنثور ونثر المنظوم"، ثم مبحث "تعليقات على النماذج المختارة".

قال أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم: "يحدد نطاق بحثه بالنوعين الثالث والرابع، لكنه لم ينتبه إلى أن هذا التحديد خاص بالفن الشفهي الذي وصفه بالطبيعية، وهذا بدوره يعني وجود خصائص مشتركة شفهية بين نظم المنثور ونثر المنظوم، لكن الباحث ركز على الفروقات ولم ينجح في ذلك، وأغفل الخصائص المشتركة". ولا ريب في أهمية دراسة اختلاف الفنون الشفاهية والكتابية، ولا في كثرة جهود العلماء لتحريرها، منذ فندريس في "اللغة" إلى والتر أونج في "الشفاهية والكتابية" ومازن الوعر في "لسانيات تطبيقية" ومحمد العبد في "اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة". ولكنَّ "الطَّبِيعِيَّة" المرادة في ذلك التصنيف الواقع في أوائل مباحث البحث، هي كما شرحتُها صراحة في موضعها، على النحو الآتي ولا سيما المخطوط تحته:

"النَّظْم في العربية الجَمْع، والنَّثْر الفَرْق. والجمع والفرق حالان طبيعيتان تتنازعان الأشياء، فتنقسم عليهما؛ فإما مجموعة وإما مفروقة،

وكذلك الكلام الفني، ولكنَّ مِعْيارَ تَقْسيمِه العَروضُ؛ فالكلام الفني المنظوم كأنه دُرٌّ مجموع في عِقْدٍ سِلْكُه العَروض، والكلام الفني المنثور كأنه دُرٌّ مفروق بلا عِقْدٍ ولا سِلْكٍ. ولقد أفضى طول تنافس هاتين الحالين في تنازع الكلام، إلى تأثير كلٍّ منهما في الأخرى، حتى تَحَوَّلَتْ إليها عَفْوًا أو قَصْدًا؛ فتَنَوَّع الكلام من حيث نظمه ونثره، على ستة أنواع:

١ مَنْظومٌ طَبيعيٌّ، نشأ بوُجود العروض.

٢ مَنْثورٌ طَبيعيٌّ، نشأ بفُقود العروض.

٣ نَظْمُ مَنْثورٍ طَبيعيٌّ، نشأ بإيجاد العروض المَفْقود، عَفْوًا.

٤ نَثْرُ مَنْظومٍ طَبيعيٌّ، نشأ بإِفْقاد العروض المَوْجود، عَفْوًا.

٥ نَظْمُ مَنْثورٍ صِناعيٌّ، نشأ بإيجاد العروض المَفْقود، قَصْدًا.

٦ نَثْرُ مَنْظومٍ صِناعيٌّ، نشأ بإِفْقاد العروض المَوْجود، قَصْدًا.

أما النوعان الأولان فإن الكلام يَتَوَلَّدُ بينهما بوُجود العروض أو فُقوده: تَحْديدًا، وتَرْتيبًا، وتَهْذيبًا؛ فإذا تشارك العروض واللغة، في اختيار عناصر نص المنظوم وإبدال بعضها من بعض وُصولًا إلى تَحْديد العنصر المناسب، وفي تقديم بعضها وتأخير بعضها وُصولًا إلى تَرْتيب الوضع المناسب، وفي إضافة بعضها وحذف بعضها وُصولًا إلى تَهْذيب المقدار المناسب- فإن اللغة تنفرد بنفسها في تَحْديد عناصر نص المنثور، وفي تَرْتيبها، وفي تَهْذيبها.

وأما النوع الثالث، فإن كلام النوع الثاني، يَتَحَوَّل إليه عَفْوًا، بإيجاد العروض: تَحْديدًا كذلك، وتَرْتيبًا، وتَهْذيبًا؛ فإن النّاظم المُثقَّف، يكون في شأن قريب من شأن ذلك المنثور الطبيعي، فيخطر له من ذخيرته الثقافية؛ فيستحسن أن يستفيد منه في نَظْمه الطبيعي، فيَنْتَظِم فيه انْتِظامًا طبيعيا.

وأما النوع الرابع، فإن كلام النوع الأول، يَتَحَوَّل إليه عَفْوًا، بإفقاد العروض: تَحْديدًا كذلك، وتَرْتيبًا، وتَهْذيبًا؛ فإن النّاثر المُثقَّف، يكون في شأن قريب من شأن ذلك المنظوم الطبيعي، فيخطر له من ذخيرته الثقافية؛ فيستحسن أن يستفيد منه في نَثْره الطبيعي، فيَنْتَثِر فيه انْتِثارًا طبيعيا.

وأما النوع الخامس، فإن كلام النوع الثاني، يُحَوَّل إليه قَصْدًا، بإيجاد العروض: تَحْديدًا كذلك، وتَرْتيبًا، وتَهْذيبًا؛ فإن النّاظم المُتكَلِّف، لا يكون في شأن غير شأن ذلك المنثور الطبيعي، بل ينقطع لنَظْمه نَظْمًا صناعيا.

وأما النوع السادس، فإن كلام النوع الأول، يُحَوَّل إليه قَصْدًا، بإفقاد العروض: تَحْديدًا كذلك، وتَرْتيبًا، وتَهْذيبًا؛ فإن النّاثر المُتكَلِّف، لا يكون في شأن غير شأن ذلك المنظوم الطبيعي، بل ينقطع لنَثْره نَثْرًا صناعيا".

فمن المعروف من تعليم التعبير العربي، أو من التنافس في التعبير العربي- أن يُحْمَلَ المتعلمون أو المتنافسون، على نثر بعض الشعر أو نظم بعض النثر؛ فهذا عمل مصطنع، ولا نتائج مأمونة ولا مقبولة تنتظر من التطبيق على الأعمال المصطنعة؛ فلهذا كان عليَّ أن أضاعف جهدي حتى أعثر على أعمال طبيعية، أي أعمال منثورة خطر في أثنائها لأصحابها شعرٌ ملائم فنثروه في صُلْبها إكمالا لأعمالهم في نفسها، وأعمال منظومة خطر في أثنائها لأصحابها نثرٌ ملائم فنظموه في صُلْبها إكمالا لأعمالهم في نفسها كذلك؛ ومن ثم لا ورود هنا أَصْلًا لمسألة الشفاهية والكتابية على جلالها.

قال أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم: "لم ينجح الباحث في تحديد السمات الأسلوبية لكل من نظم المنثور ونثر المنظوم من حيث أوجه الشبه وأوجه الاختلاف، وهذا يرجع إلى غياب الأساس المنهجي". ومسألة أوجه التشابه وأوجه الاختلاف مستوفاة تماما؛ فقد اشتمل كل نمط من أنماط خصائص التفكير التي انتبهتُ إليها، على أمثلة من نظم المنثور ومن نثر المنظوم جميعا معا، تعبيرا عن التشابه في أثناء الاختلاف؛ فلا ريب في أن متلقي هذا البحث سيتوقع أن تخالف أنماط نظم المنثور أنماط نثر المنظوم بناء على مألوف اختلاف النثر والشعر على وجه العموم -وهذا في نفسه صحيح- حتى إذا ما اطلع على هذا البحث فاجَأَهُ اشتمال النمط الواحد على نماذج من هذا ونماذج من ذاك، وعرف معنى هذه الوحدة في أثناء ذلك التنوع، كما يقول الأسلوبيون.

قال أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم: "ما قدمه لا يعدو أن يكون إعرابا لنماذج منتقاة وغير كافية لا تتجاوز عشرة نماذج مزدوجة من الفنين". وإنه لتشريف عظيم أن تحصروا تحليلي النحوي في "الإعراب"؛ فلقد علمتموني -أيها الأساتذة الكبار- أن الإعراب هو كشاف الأوضاع التأليفية. وما أَنْفَعَ أن أشير هنا إلى كتاب الدكتور عبد الكريم حسن، الأصيل الجليل المدهش، "لغة الشعر في زهرة الكيمياء، بين تحولات المعنى ومعنى التحولات"، من منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ببيروت! لقد وجدته يحلل نص "زهرة الكيمياء"، تحليلا إعرابيا مُثَلَّثًا: إعرابيا نحويا، وإعرابيا بلاغيا، وإعرابيا نقديا- أفضى به إلى التمكن من حقيقة بعض الظواهر الفنية؛ فازددت تقديرا له وحرصت فيما أتأمل من ظواهر فنية لغوية، على تأصيل عملي هذا التأصيل. ولقد فَتَّشْتُ مصادر البحث المعروف اشتمالها على أمثلة هذه الظاهرة بمظهريها، حتى عثرت من نظم المنثور الطبيعي، على تسعة وعشرين نموذجا مزدوجا، كل نموذج طرفان: نصٌّ منثورٍ سابقٌ ونصٌّ نظمٍ لاحقٌ- ولنثر المنظوم الطبيعي، على ثمانية عشر نموذجا مزدوجا، كل نموذج طرفان كذلك: نصٌّ منظومٍ سابقٌ ونصٌّ نثرٍ لاحقٌ. ثم رَدَّدْتُ بينها النظر، حريصا على صفة الطبيعيَّة السائغة، وشَرْطِ المادَّتَيْنِ المُتوازِنَتَيْنِ، حتى صَفَتْ لي عشرة نماذج مزدوجة (عشرون نصا)، وهو مقدار كاف جدا في مقام التأمل.

ذكر أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم، أن البحث ضعيف من حيث خلوه من نتائج الدراسة ومناقشاتها. ولقد توزعت نتائج العمل على مباحثه، ثم تجمعت في هذا الجزء الآتي من خاتمته:

"ولقد أفضى البحث إلى تَنْميطِ أربعة أنماط:

النَّمَطُ الْأَوَّلُ سابِقيٌّ، يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ فيهِ وَيَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ، فإذا في النص اللاحق عبارةٌ سابِقَةٌ، مُضافَةٌ كأنها العنوان الذي يَدَّعي به الأديبُ العملَ لنفسه من قبل أن يشرع فيه! تَخَرَّجَ فيه نموذجان: واحد من نظم المنثور، أَدَّتْ فيه السابقةُ وظيفةَ التَّأْسيس؛ فعَبَّرَتْ عن معنى ليس من معاني النص السابق، وأَسَّسَتْ لها- وواحد من نثر المنظوم، أَدَّتْ فيه وظيفةَ التَّمْهيد؛ فعَبَّرَتْ عن معنى من معاني النص السابق، ومَهَّدَتْ لها.

النَّمَطُ الثّانِي عارِضيٌّ، يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ فيهِ وَيَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ، فإذا النص اللاحق كلُّه عارِضَةٌ، كأنها صورةٌ صَوَّرَ بها الأديب النص، وصَوَّرَ نفسه في ظلاله! تَخَرَّجَتْ فيه ثلاثة نماذج: اثنان من نظم المنثور، أَدَّتْ فيهما العارضةُ وظيفةَ التَّقْريب؛ فصَوَّرت النص السابق، ولكنها تَصَرَّفَتْ فيه- وواحد من نثر المنظوم، أَدَّتْ فيه وظيفةَ التَّوْثيق؛ فصَوَّرَت النص السابق من غير أن تَتَصَرَّف فيه.

النَّمَطُ الثّالِثُ لاحِقيٌّ، يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ فيهِ وَيَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ، فإذا في النص اللاحق عبارةٌ لاحِقَةٌ، مضافةٌ كأنها التَّوْقيع الذي يَدَّعي به الأديبُ العملَ لنفسه من بعد أن يفرغ منه! تَخَرَّجَتْ فيه ثلاثة نماذج: واحد من

نظم المنثور، أَدَّتْ فيه اللاحقة وظيفةَ التَّعْليل؛ فعَبَّرَتْ عن معنى ليس من معاني النص السابق، ولكنه منها بمنزلة العِلَّة- واثنان من نثر المنظوم، أَدَّتْ في أحدهما وظيفةَ التَّوْكيد؛ فعَبَّرَتْ عن معنى من معاني النص السابق، وأَكَّدَتْهُ- وأَدَّتْ في الآخر وظيفةَ التَّكْميل؛ فعَبَّرَتْ عن معنى ليس من معاني النص السابق ، وكَمَّلَتْها.

النَّمَطُ الرّابعُ حاشَويٌّ، يَنْتَظِمُ الْمَنْثورُ فيهِ وَيَنْتَثِرُ الْمَنْظومُ، فإذا في النص اللاحق عبارةٌ حاشِيَةٌ، مضافةٌ كأنها الغذاء يُرَبّي به الأديبُ العملَ في أثنائه من غير أن يُنْتَبَهَ إليه! تَخَرَّجَ فيه نموذجان: واحد من نظم المنثور، أَدَّتْ فيه الحاشية وظيفةَ التَّعْليل؛ فعَبَّرَتْ عن معنى ليس من معاني النص السابق، ولكنه منها بمنزلة العِلَّة- وواحد من نثر المنظوم أَدَّتْ فيه وظيفةَ التَّوْكيد؛ فعَبَّرَتْ عن معنى من معاني النص السابق، وأَكَّدَتْه.

وإذا كانت السابقةُ أَعْجَلَ إلى سَمْعِ الْمُتَلَقّي لأنها فاتِحَةُ الْعَمَلِ، والعارضةُ أَذْهَبَ من ضَبْطِه لأنها ناقِلَةُ الْعَمَلِ، واللاحقةُ أَبْقى في حِفْظه لأنها خاتِمَةُ الْعَمَلِ، والحاشيةُ أَخْفى عن نَظَرِه لأنها باطِنَةُ الْعَمَلِ- كان في النمط الأول السابقيِّ مَعْنًى من تَقْديرِ النَّفْس (اصْطِناعِ كُلِّ عَمَلٍ يُنَوِّهُ بمَكانَةِ اللّاحِقِ مَعَ مَكانَةِ السّابِقِ)، وكان في النمط الثاني العارضيِّ مَعْنًى من تَنْكيرِ النَّفْس (اصْطِناعِ كُلِّ عَمَلٍ يُفْني مَكانَةَ اللّاحِقِ في مَكانَةِ السّابِقِ)، وكان في النمط الثالث اللاحقيِّ مَعْنًى من تَكْبيرِ النَّفْس (اصْطِناعِ كُلِّ عَمَلٍ يُقَدِّمُ مَكانَةَ اللّاحِقِ عَلى مَكانَةِ السّابِقِ)، وكان في

النمط الرابع الحاشويّ مَعْنًى من تَصْغيرِ النَّفْس (اصْطِناعِ كُلِّ عَمَلٍ يُؤَخِّرُ مَكانَةَ اللّاحِقِ عَنْ مَكانَةِ السّابِقِ)!

وإذا كان النمطان الثاني العارضيُّ والثالث اللاحقيُّ، أَحْفَلَ بالنماذج من غيرهما، وكان أكثرُ حَفْلِ النمط العارضيِّ إنما هو بنماذج نَظْمِ المنثور، وأكثرُ حَفْلِ النمط اللاحقيِّ إنما هو بنماذج نَثْرِ المنظوم- كان تَنْكيرُ النَّفْس أَغْلَبَ على التَّفْكير العَروضيِّ اللُّغَويِّ عند نَظْم المنثور، وتَكْبيرُها أَغْلَبَ عليه عند نَثْرِ المنظوم؛ فدَلَّتْ حالُ ناظم المنثور على اطْمِئْنانه إلى رَواجِ عَمَلِه، ودَلَّتْ حالُ ناثر المنظوم على خَشْيَتِه من كَسادِ عَمَلِه"!

ولا يخفى أنني لم أقتصر على الوصف الأسلوبي المبني على طول التأمل، بل اجتهدت في استبطان عمل كل من ناظم المنثور وناثر المنظوم، من خلال استيعاب كل نص على حدة، ثم مع غيره من النصوص المشابهة، قياسا إلى غيرها من النصوص المخالفة.

ذكر أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم، أن البحث ضعيف من حيث خلوه من التوصيات. ولقد اشتملت الخاتمة على توصية واضحة لكل من يريد البحث عن حقائق مثل هذه الظواهر، بأن ثمت أصولا ينبغي الاعتماد عليها في تحديد نماذجها وفي ضبط خصائصها جميعا معا- من خلال نصها على ما يأتي:

"لم يكن بُدٌّ في كشف خَصائِص التَّفْكير العَروضيِّ اللُّغَويِّ بينَ نَظْمِ المَنْثور ونَثْرِ المَنْظوم الطَّبيعيَّيْنِ، من تتبع نصوصهما، ثم اسْتِصْفائها،

ثم ترتيب صَفْوَتِها، ثم الانقطاع لنقد ما تَكَوَّنَتْ به من أعمال التَّحْديد (اختيار عناصر النص وإبدال بعضها من بعض وُصولًا إلى تَحْديد العنصر المناسب)، والتَّرْتيب (تقديم بعض عناصر النص وتأخير بعضها وُصولًا إلى تَرْتيب الوضع المناسب)، والتَّهْذيب (إضافة بعض عناصر النص وحذف بعضها وُصولًا إلى تَهْذيب المقدار المناسب).

ولقد كانت هذه الأعمال من التعقيد، بحيث يستحيل أن تدل عليها خصائصُ مُطْلَقَةٌ؛ ومن ثم رأيت أن أُنَمِّطَ خصائص هذا التفكير العروضي اللغوي بين تلك النصوص، على أَنْماطٍ أَظْهَرِيَّةٍ، أُسَمّي النمط فيها بأَظْهَرِ الأعمال فيه على التفكير، وهو ربما اشتمل مع هذا العمل الأَظْهر، على أعمال أخرى أَخْفى- ولكن النَّمَط المُسَمّى، عَلَمٌ على هذه الأعمال كلِّها أَظْهَرِها وأَخْفاها- فإذا تَظاهَرَتْ هذه الأنماطُ في استيعاب الباحث والمتلقي، تَجَلَّتْ لهما تلك الخصائص".

ذكر أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم، حاجة أصحاب النصوص إلى تراجم مختصرة. وأحب أن أشير في شأن النصوص العشرين التي قام عليها البحث، إلى أن عناية النقاد بها إنما كانت من حيث ما اشتملت عليه من مظاهر الظاهرة، وعلى رغم ذكرت اجتهدت في نسبتها إلى أصحابها وذكر وفياتهم، تحديدا أو تقريبا.

ذكر أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم، خلو البحث من الإطار النظري، ومن الدراسات السابقة، ومن المراجع النقدية الحديثة التي تعنى

بدراسة الأساليب الأدبية، وحَدَّدَ ثلاثة وعشرين بحثا مهما (كتبا ومقالات). ولقد قدمت مبحثين تنظيريين في "نظم الكلام ونثره" و"مظان انكشاف خصائص التفكير العروضي اللغوي"، وأخاف إذا اتسع التنظير أن يضيق التطبيق، ونحن كما علمتمونا أحوج إلى الأبحاث التطبيقية منا إلى الأبحاث التنظيرية، ولم يعد مقبولا في شروط المجلات العلمية الكبيرة كلها، أن يزيد البحث على عشرين أو خمس وعشرين صفحة، حتى قال أحد الأساتذة الكبار: كيف لا يستطيع أستاذ أن يقول ما يريد في عشرين صفحة! ولو أمليت لنفسي لتجاوزت إلى سبعين صفحة؛ فليس أسهل من عرض النظريات! واعتمدتُ على اثنين وعشرين عنوانا نقلت عن كل منها وجها من تحديد الظاهرة، لأتفرغ لتأملها في نصوصها؛ فقد تعلمت منكم -أساتذتي الكبار- أن من خصائص الأبحاث العالية، الاشتغال بالتأمل. وليطمئن أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم، فلولا استيعابي لأكثر ما نبهني عليه من كتب لا غنى عنها، ما اجترأت على ذلك التأمل أصلا! ولو اطلع على بعض صنعته قديما، لأيقن من ذلك، ولرأى كيف تحتشد في البحث الصغير سبعون بحثا ليس منها ما لم أنقل عنه!

....

وطالبني أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم بتغيير العنوان إلى "نظم المنثور ونثر المنظوم دراسة مقارنة". ولَأَنا أقل من مقام المطالبة الذي شرفني به؛ فله أن يجري ما يراه من غير مطالبة، وإن كنت أرجو بعد ما

سبق، أن يوافقني على ما عَنْوَنْتُ، إلا أن يستحسن تغيير "اللغوي" إلى "النحوي"؛ فلا أنكر غلبة التحليل النحوي على البحث، ولكنني كنت رأيت من الدقة أن أضع "اللغوي" بدل "النحوي"؛ إذ قد اشتمل البحث مع ذلك التحليل النحوي الغالب، على تحليل دلالي واضح، واحتكم إليه في الفصل بين وجوه التحليل النحوي الملتبسة، ولم يخل مع هذا وذاك من مواقف وجب فيها التحليل الصوتي والصرفي. ثم إنني فهمت أن النص على "البَيْنِيَّة" (بَيْنَ كَذَا وَكَذَا) مُغْنٍ عن النص على المقارنة، حرصا على إيجاز العنوان، فضلا عن أن المقارنة لغةً جَمْعُ الطَّرَفَيْنِ من غير نَقْدٍ، والنَّقْدُ أساس هذا العمل؛ فكان النص على البينية كافيا في التعبير عن الموازنة، وخالصا من اقتصار المقارنة على الجمع.

ولقد أخفيتُ تَوْضيحاتي تَأَدُّبًا، في طَيَّات تعليقات أستاذي الكريم الفاضل المُحَكَّم؛ فلم يكن لأَسْطُر التلميذ أن تُناصي أَسْطُر الأستاذ، أطال الله في النعمة بقاءه، ونفعنا بعلمه، آمين!

سعادة الأستاذ الدكتور سليمان الرحيلي،

عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ورئيس تحرير مجلتها الغراء،

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته!

يسرني أن أرفع إليكم ما طلبتموه، بشأن بحثي المعروض للنشر بالمجلة (البحث في عنوانه الأخير والتقرير عنه) راجيا أن يحظى بعنايتكم ورعايتكم.

أدام الله علينا رضاكم، وجمعنا بكم أبدا على خير!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

تَمْكِينُ الْقَارِئِ مِنَ النَّصِّ الْمَخْطُوطِ

بِضَبْطِ كَلِمِهِ، وَتَرْقِيمِ تَعْبِيرَاتِهِ وَجُمَلِهِ، وَتَفْقِيرِ فُصُولِهِ، وَعَنْوَنَتِهِ

يبحث الْمُتَثَقِّفون عن أصول الثقافة العربية الإسلامية، ويهتدون إلى مخطوطات كتبها القَيِّمة؛ فيبتهجون بها بهجة من وَجَدَ أسباب الحياة من بعد أن وَجَدَتْه أسبابُ الموت! حتى إذا ما اطلعوا عليها اسْتَغْلَقَتْ عليهم، وكأنها كانت سَرابًا جاؤوه فلم يجدوه شيئا، ووجدوا الحيرة عنده؛ فأَوْرَثَتْهم الضيق، ثم أفضى الضيق إلى الإعراض، وفي الإعراض جهلٌ، والجهلُ موتٌ، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

حتى إذا ما نشط لمخطوطات تلك الكتب القيمة، طلابُ علمٍ مُجاهدون، اتَّخذوا تحقيقَها زُلْفى إلى الحق -سبحانه، وتعالى!- الذي "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"، ويُحِبُّ مَنْ يُعَلِّمُ النَّاسَ ما لم يَعْلَمُوا- انفتحت مَغاليقُها، وأقبل عليها المعرضون عنها، واهتدى بها الحيارى، واستقام الْمُتَثَقِّفون، واتَّصَل عُمْرانُ الماضي بالحاضر إلى المستقبل، في نور العلم والعمل.

لقد علم طلاب العلم المجاهدون المحققون، أن عِماد عَمَلهم ومِلاكَه وذِرْوَةَ سَنامِه، أن يُمَكِّنوا القارئ من النص المخطوط، وكأنه حِصانٌ جَموحٌ، فهُمْ يُذَلِّلونه له، ثم يتركونه وشَأْنَه، مُوقِنين من أنه مهما فعل به، فَسَيَعْطِفُه على سَمُرات الحَيّ!

- **إنه إذا كان النص المخطوط على النحو الآتي:**

كانت بالمدينة عجوز شديدة العين لا تنظر إلى شيء تستحسنه إلا عانته فدخلت على أشعب وهو في الموت وهو يقول لبنته يا بنية إذا مت فلا تندبيني والناس يسمعونك فتقولين وا أبتاه أندبك للصوم والصلوات وا أبتاه أندبك للفقه والقراءة فيكذبك الناس ويلعنوني والتفت أشعب فرأى المرأة فغطى وجهه بكمه وقال لها يا فلانة بالله إن كنت استحسنت شيئا مما أنا فيه فصلي على النبي صلى الله عليه وسلم لا تهلكيني فغضبت المرأة وقالت سخنت عينك في أي شيء أنت مما يستحسن أنت في آخر رمق قال قد علمت ولكن قلت لئلا تكوني قد استحسنت خفة الموت علي وسهولة النزع فيشتد ما أنا فيه وخرجت من عنده وهي تشتمه وضحك كل من كان حوله من كلامه ثم مات

- **وكان تمكين القارئ منه بتحقيقه على النحو الآتي:**

[اَلْمُوْتُ ضَحِكًا]

اَلْمُوْتُ ضَحِكًا

كَانَتْ بِالْمُدِينَةِ عَجُوزٌ شَدِيدَةُ الْعَيْنِ، لَا تَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ تَسْتَحْسِنُهُ إِلَّا عَانَتْهُ. فَدَخَلَتْ عَلَى أَشْعَبَ وَهُوَ فِي الْمُوْتِ، وَهُوَ يَقُولُ لِبِنْتِهِ: يَا بُنَيَّةُ، إِذَا مِتُّ فَلَا تَنْدُبِينِي وَالنَّاسُ يَسْمَعُونَكِ؛ فَتَقُولِينَ: وَا أَبَتَاهْ! أَنْدُبُكَ لِلصَّوْمِ وَالصَّلَوَاتِ، وَا أَبَتَاهْ! أَنْدُبُكَ

لِلْفِقْهِ وَالْقِرَاءَةِ- فَيُكَذِّبَكِ النَّاْسُ، وَيَلْعَنُونِي!

وَالْتَفَتَ أَشْعَبُ، فَرَأَى الْمَرْأَةَ؛ فَغَطَّى وَجْهَهُ بِكُمِّهِ، وَقَالَ لَهَا: يَا فُلَانَةُ، بِاللهَّ، إِنْ كُنْتِ اسْتَحْسَنْتِ شَيْئًا مِمَّا أَنَا فِيهِ، فَصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!- لَاْ تُهْلِكِينِي!

فَغَضِبَتِ الْمَرْأَةُ، وَقَالَتْ: سَخِنَتْ عَيْنُكَ! فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ مِمَّا يُسْتَحْسَنُ! أَنْتَ فِي آخِرِ رَمَقٍ! قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ ، وَلَكِنْ قُلْتُ لِئَلَّا تَكُونِي قَدِ اسْتَحْسَنْتِ خِفَّةَ الْمَوْتِ عَلَيَّ وَسُهُولَةَ النَّزْعِ؛ فَيَشْتَدَّ مَا أَنَا فِيهِ!

وَخَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ وَهِيَ تَشْتُمُهُ، وَضَحِكَ كُلُّ مَنْ كَانَ حَوْلَهُ مِنْ كَلَامِهِ، ثُمَّ مَاتَ!

-وسُبْحَانَ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ!-

- **فإِنَّ تمكين القارئ من النص المخطوط إِذَنْ، هو أَنْ يُصْطَنَعَ به ما يأتي:**

١ **عَنْوَنَة النص على حسب رسالته -إن لم يكن معنونا- عَنْوَنَةً مُنَاسِبَةً**: وهو أساس التمكين؛ إذ يحاول به المحقق استيعاب النص، ثم يُنَزِّل استيعابه على ما دونه من فقره وجمله وتعبيراته وكلمه، من بعد أن كانت هي السبيل إليه؛ فالعمل ذهابٌ وإيابٌ دَوَالَيْكَ، حتى يتم الاستيعاب.

١) والعنوان عبارة موجزة يمكن فهرسة النصوص بها هـي وأشباهها.

٢) وهو إما حقيقي علمي كاشف، أو مجازي فني موحٍ.

٣) وموضعه إما المتن بين قوسين، أو الحاشـية الجانبيـة مـن غير قوسين.

- **تطبيق ذلك على النص السابق.**

٢ **تَفْقِير فصول النص على حسب أفكارها، تَفْقِيرًا مُكَافِئًا:** وهو أكبر معالم الاستيعاب؛ فمـن وقـف عـلى حـدود الفصـول وانتبـه إلى مواضع بعضها من بعض حتى حَصَّلَ أفكارها، فقد استولى عـلى رسالة النص.

١) والفقرة كتلة كتابية متميزة مما قبلها ومما بعدها، تستوعب الفصـل الواحـد ذا الفكـرة الواحـدة، بحيـث يسـتطيع المُتَصَفِّح أن يميز بعدد الفِقَر عددَ الفِكَر.

٢) وكلُّ نصٍّ كاملٍ مُنقسمٌ حَتْمًا على أكثر من فصل.

٣) وترتيب فصوله إما صاعد من مقدمات إلى نتـائج، وإمـا هابط من نتائج إلى مقدمات، وإما مستدير من بعضها إلى بعض، دَوَالَيْكَ!

- **تطبيق ذلك على النص السابق.**

٣ **تَرْقِيمُ جُمَل النص على حسب فوائدها، تَرْقِيمًا وَافِيًا**: وهو من معالم الاستيعاب المهمة؛ فمن وقف على حدود الجمل وانتبه إلى خصائصها حتى حَصَّلَ فوائدها، فقد استولى على فكرة الفقرة.

١) والتَّرْقِيم رَسْم التَّنْغيم بإضافة علامات كتابية خاصة ليست من الإملاء ولا من التشكيل، أهمها النقطة وما يوازيها، والفاصلة وما يوازيها.

٢) والجملة مُرَكَّبٌ لُغَوِيٌّ مِنْ عُنْصُرَيْنِ مُؤَسِّسَين، أحدهما مُسْنَد إلى الآخر، ربما انضافت إليهما أحدهما أو كليهما، عناصر أخرى غير مُؤَسِّسة: مُكَمِّلة (مُتَعَلِّقات)، أو مُلَوِّنة (أَدَوات).

٣) والجملة إما خَبَرية أو إِنْشائية، والجملة الخبرية إما مُثْبَتة أو مَنْفِية، والجملة الإنشائية إما طَلَبِيَّة أو غير طَلَبِيَّة.

٤) وفي وجوه الترقيم ما يتسع لاختلاف التأويلات.

- **تطبيق ذلك على النص السابق.**

٤ **تَرْقِيمُ تَعْبيرات النص على حسب دلالاتها، تَرْقِيمًا جَائِزًا**: وهو من معالم الاستيعاب؛ فمن وقف على حدود التعبيرات وانتبه إلى خصائصها حتى حَصَّلَ دلالاتها، فقد استولى على فائدة الجملة.

١) والتَّعْبِـيرُ مُرَكَّـبٌ لُغَـوِيٌّ وَسَـطٌ بـين الجملـة والكلمـة، كالموصول وصِلَتِه، والمضـاف والمضـاف إليـه، والمتبـوع وتابعه، والمُمَيَّز وتَمْيِيزه.

٢) وما الجملـة الصـغيرة في الجملـة الكبـيرة إلا تَعْبِـيرٌ مـن التعبيرات.

- **تطبيق ذلك على النص السابق.**

٥ **ضَبْطُ كَلِمِ النص على حسـب معانيهـا إِمْـلَاءً وتَشْـكيلًا، ضَـبْطًا كَافِيًا:** وهو من معالم الاستيعاب؛ فمن وقف عـلى رسـوم الكلـم وحدودها وانتبه إلى خصائصها حتى حَصَّلَ معانيها، فقد استولى على دلالة التعبير.

١) لا غنى في تسجيل النص اللغوي بالإملاء عن التشكيل.

٢) ولا غنى عـن مراعـاة الإمـلاء والتشـكيل الصـحيحين المعاصرين.

٣) ولا بأس بالانتفاع بقاعدة "اشْكُلْ مَا يُشْكِلُ".

٤) ولا بأس بتمييز النصوص المُكَرَّمَة، وإن لم تكن مُشْكِلَة.

٥) ومِعْيارُ الضَّبْطِ هو عَدَمُ إمكان القراءة على غـير وَجْهِهـا المُرَاد.

- **تطبيق ذلك على النص السابق.**

- **فهل مِنْ تَطْبيقٍ لذلك على النص اللاحق؟**

اعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأي ليس بمضمون بـل الـرأي كلـه غرر لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة ولأنه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز بل ربما أعيا الحزمة مـا أمكـن العجـزة فـإذا أشار عليك صاحبك برأي ثم لم تجد عاقبته على ما كنت تأمـل فـلا تجعـل ذلك عليه دينا ولا تلزمه لوما وعذلا بأن تقول أنت فعلت هـذا بي وأنـت أمرتني ولولا أنت لم أفعل ولا جرم لا أطيعك في شيء بعدها فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة فـإن كنـت أنـت المشـير فعمـل برأيـك أو تركـه فبـدا صوابك فلا تمنن به ولا تكثرن ذكره إن كان فيه نجاح ولا تلمـه عليـه إن كان قد استبان في تركه ضرر بأن تقول ألم أقل لـك افعـل هـذا فـإن هـذا مجانب لأدب الحكماء

[أَدَبُ التَّشَاوُرِ]

أَدَبُ التَّشَاوُرِ

اعْلَمْ أَنَّ الْمُسْتَشَارَ لَيْسَ بِكَفِيلٍ، وَأَنَّ الرَّأْيَ لَيْسَ بِمَضْمُونٍ. بَلِ الرَّأْيُ كُلُّهُ غَرَرٌ لِأَنَّ أُمُورَ الدُّنْيَا لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا بِثِقَةٍ، وَلِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهَا يُدْرِكُهُ الْحَازِمُ إِلَّا وَقَدْ يُدْرِكُهُ الْعَاجِزُ. بَلْ رُبَّمَا أَعْيَا الْحَزَمَةَ مَا أَمْكَنَ الْعَجَزَةَ!

فَإِذَا أَشَارَ عَلَيْكَ صَاحِبُكَ بِرَأْيٍ، ثُمَّ لَمْ تَجِدْ عَاقِبَتَهُ عَلَى مَا كُنْتَ تَأْمُلُ - فَلَا تَجْعَلْ ذَلِكَ عَلَيْهِ دَيْنًا، وَلَا تُلْزِمْهُ لَوْمًا وَعَذْلًا بِأَنْ تَقُولَ: أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِي، وَأَنْتَ أَمَرْتَنِي، وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ أَفْعَلْ، وَلَا جَرَمَ لَا أُطِيعُكَ فِي شَيْءٍ بَعْدَهَا؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ ضَجَرٌ وَلُؤْمٌ وَخِفَّةٌ.

فَإِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمُشِيرَ، فَعَمِلَ بِرَأْيِكَ، أَوْ تَرَكَهُ، فَبَدَا صَوَابُكَ - فَلَا تَمُنَّنَّ بِهِ، وَلَا تُكْثِرَنَّ ذِكْرَهُ -إِنْ كَانَ فِيهِ نَجَاحٌ- وَلَا تَلُمْهُ عَلَيْهِ -إِنْ كَانَ قَدِ اسْتَبَانَ فِي تَرْكِهِ ضَرَرٌ- بِأَنْ تَقُولَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ افْعَلْ هَذَا؛ فَإِنَّ هَذَا مُجَانِبٌ لِأَدَبِ الْحُكَمَاءِ.

مُؤْتَمَرُ بانْدونْجَ بِلا جَمالْ عَبْدُ النّاصِرْ

في خلال شهر مايو من سنة ٢٠٠٧ الميلادية، أرسل إلي عن بريدي الإلكتروني، أخي الكريم الأستاذ الدكتور يوسف عبد الفتاح فرج، نص دعوة إلكترونية عامة من "اتحاد المدرسين للغة العربية بإندونيسيا (IMLA)"، إلى مؤتمره الدولي، بجامعة باندونج التربوية- قائلا:

- ربما أحببتَ أن تشارك!

ولم أحب أن أشارك؛ فالمكان بعيد، والسفر طويل، والزاد قليل، والرحيل شديد!

ولكنني كان لي بحث قديم (مَهارَةُ الْكِتابَةِ عِنْدَ طُلّابِ قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبيَّةِ الْمُعَلِّمينَ)، أهملته من اعتبارات الأبحاث، وعددته في طائفة الكتب التعليمية، لم أزل أراه حسن الطالع، طيب الأثر؛ فخطر لي لو أرسلت ملخصه المجهز الآتي، طالبا المشاركة بلا حضور؛ فاستثمرت حسن طالعه، وطيب أثره:

"أَرَدت أَنْ أَقِفَ عَلى حَقيقَةِ حالِ تَلامِذَتي طُلّابِ اللُّغَةِ الْعَرَبيَّةِ بِجامِعَةِ السُّلْطانِ قابوسَ؛ ففاجَأْتُهُمْ بِنَصَّيْنِ مِنَ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ حَمَلْتُهُمْ عَلى أَنْ يَنْقُدوهُما، ثُمَّ نَقَدْتُ نُقودَهُمْ لَهُما مِنْ حَيْثُ مُفْرَداتُ تَعْبيرِهِمُ الْكِتابِيِّ عَمّا يُريدونَ وَمِنْها مَسائِلُ خَطِّيَّةٌ صَريحَةٌ كَالْإِمْلاءِ وَالتَّشْكيلِ وَالتَّرْقيمِ، وَمِنْ حَيْثُ رَسائِلُهُمُ الَّتي عَبَّروا عَنْها وَهِيَ مَسْأَلَةٌ تَفْكيريَّةٌ صَريحَةٌ، دونَ

أَنْ أُؤَخِّرَ مَسائِلَ مُفْرَداتِ التَّعْبيرِ بِـزَعْمِ أَنَّهـا ظاهِرِيَّـةٌ شَـكْلِيَّةٌ مادّيَّـةٌ عَـنْ مَسائِلِ الرِّسالَةِ بِزَعْمِ أَنَّها باطِنِيَّةٌ مَضْمونيَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، مُؤْمِنًا بِامْتِزاجِ الظّـاهِرِ وَالْباطِنِ.

لَقَدْ كانَ ذلِكَ تَجْرِبَةً طَرِيفَةً مُثيرَةً، وعَويصَةً مُعَنِّيَـةً، شَـغَلَتْ هـذا الْبَحْثَ كُلَّه، ثُمَّ أَفْضَتْ إِلى اسْتيضاحِ مَظاهِرَ مِـنَ الْكَسَـلِ مُتَظـاهِرَةٍ عَـلى عَدَمِ تَدْقيقِ اسْتِعْمالِ مُفْرَداتِ التَّعْبيرِ الْكِتابيّ وَعَلى عَدَمِ التَّأَنّي إِلى اسْتيعابِ الرِّسالَةِ الْوارِدَةِ، رُبَّما كانَتْ شائِعَةً مُتَداوَلَةً في مَجالاتٍ أُخْرى مِـنَ الْعَمَـلِ الْماديِّ، لِاسْتيلاءِ نَمَطٍ ما مِنَ الْعَيْشِ عَلى النّاسِ، وَلكنَّهـا غَـيرُ شـائِعَةٍ وَلا مُتَداوَلَةٍ في مَجالاتِ الْعَمَلِ الثَّقافيِّ.

لَقَدِ اجْتَهَدْتُ أَنْ أَتَأَمَّلَ تَلامِذَتي وَنَفْسي حينَ كُنْتُ في مِثْلِ حالِهِمْ؛ فَأَضَفْتُ طَرَفًا مِنْ خِبْرَتي بِفَلْسَفَةِ التَّعْليمِ وَسِياسَتِه، لا أَجِدُ لَه عادَةً مَجـالًا؛ فَكانَتْ في إِنْجازِ هذا الْبَحْثِ راحَةٌ كَبيرَةٌ، ثُمَّ رِسـالَةٌ خَطـيرَةٌ إِلى الْقـائِمينَ مَعي عَلى هذا الْأَمْرِ".

أجابني شخص اسمه أندي هادي (مُخْتَصَرـ هاديـانو، أو مُـدَللهٌ)، بترحيب لجنة المؤتمر الشديد، وألحق برسالته رسالتين: واحـدة إلى رئـيس جامعة القاهرة، من الدكتور محمد لطفي زهدي، رئيس "اتحـاد المدرسـين للغة العربية"؛ يرجوه فيها أن يشركني ببحثي المذكور، ويشـير إلى ضرورة أن تَتَكَفَّلَ جامعة القاهرة بنفقة السفر والإقامة ورسـم المـؤتمر- وواحـدة إليَّ، من الدكتور دودنج رحمت هدايت، رئيس المـؤتمر، ينبهنـي فيهـا عـلى

قبول البحث من لجنة المؤتمر، ويدعونني إلى الحضور وإلقاء البحث، فيما بين ٢٣و٢٥/ ٨/ ٢٠٠٧م!

عجبا لهم؛ أطلب منهم المشاركة بنص البحث بلا حضور، فيجيبونني إلى الموافقة على المشاركة بنص البحث، والحضور به، وإلقائه!

أهو نقصان عروبتي أم كمال عجمتهم!

كلمت في ذلك أستاذي الدكتور شعبان صلاح، وكيل كليتي للدراسات العليا والبحوث، فنبهني على أن الجامعة تتكفل بتكاليف المشاركة في مثل هذه المؤتمرات، وأنني يمكنني أن أتقدم بطلب إلى القسم يستمر منه إلى مجلس الكلية؛ حتى يصل إلى رئيس الجامعة، ألحق به صورتي هاتين الرسالتين.

وافق الدكتور حسام كامل، نائب رئيس جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث، على سفري، وقرر معاونتي بعشرة آلاف جنيه، تتم بعد الإياب تَسْوِيَةُ أمرها؛ فابتهجت بذلك، ورأيته من تكريم الجامعة، أن تبذل لسفري هذا المبلغ الكبير -فلم يسبق أن اعتمدت عليها ولا على غيرها، في مثل هذا الأمر- ولا سيما أنها كانت كَرَّمَتْني قريبا بجائزتها التشجيعية في العلوم الإنسانية والتربوية (عشرة آلاف جنيه)!

كففت وقتا عن الحركة في سبيل السفر، ثم نشطت لحجز التذكرة، فكلمت شركة مصر للطيران عن خطها الساخن، وحجزت مقعدا لنفسي بطائرة الثانية عشرة وعشر دقائق من ليلة ٢٢/ ٨، موعد

ذهاب، والثانية والنصف من بعد ظهر ٢٥/٨، موعد إياب، أطير في الذهاب من القاهرة إلى سنغافورة، ثم من سنغافورة إلى جاكرتا، ثم أعكس ذلك في الإياب. ثم رأيت أن أسأله عن ثمن تلك التذكرة الكاملة بذهابها وإيابها، فكان ١٣٢١٩ج!

نويت أن أهمل السفر؛ ولا سيما أنني إنما أقدمت عليه هازلا؛ إذ كيف لي أن أقتطع من دخلي المحدود الذي لا أكاد أدخر منه شيئا، مبلغ الـ٣٢١٩ج فرق ما بين مساهمة الجامعة وثمن التذكرة، ومبلغ الـ ١٥٠$ قيمة الاشتراك المذكورة من قبل! فكنت أكلم في نيتي هذه الناس، فلا يبالي أي أحد، إلا السيدة الأستاذة أختي:

- ادفع أنت هذا الفرق؛ فما ستستفيده أكبر -إن شاء الله- مما ستدفعه.

ولكنني لم أبال بكلامها، وراجعت مسؤولة قسم المالية، لأخبرها بنيتي، فذَكَّرَتْني وجوب الاعتذار الرسمي عن ذلك الذي وافقوا لي عليه، ثم ذكرت لي أن هذا المبلغ هو فيما تعلم، الحدُّ الأقصى، ولكنني ربما أستطيع تحريكه إذا راجعت قسم العلاقات الثقافية.

ذكر لي المسؤول بإدارة العلاقات الثقافية بجامعة القاهرة، أن مبلغ عشرة آلاف الجنيه هذا، أقصى ما تساهم به الجامعة، فذهبت عنه مرتاحا إلى نية الاعتذار، ولكنني قابلت في طريقي مسؤولا آخر كان ذُكر لي، فكلمته في مشكلتي غير عابئ بحلها، فقال:

- اكْتُبْ للدكتور حسام كامل نائب رئيس الجامعة!

ذكرت للدكتور حسام، أن هذا المؤتمر مهم بكونه عن لغتنا في بلد لا ينطقها، وأن مشاركات كليتنا في مثلـه نـادرة، وأننـي محتـاج إلى زيـادة مساهمة الجامعة أكثر من أربعة آلاف جنيـه؛ فقضى لي نيابـة عـن رئـيس الجامعة، بمساهمة الجامعة بثمن التذكرة فقط!

جريت بموافقته حتى استخرجت استمارة الفرق، ليخـرج مبلـغ ثمن التذكرة كاملا، في شيك واحد سعيتُ به إلى مكتـب مصر للطـيران بحَيِّ المهندسين، ولم أنتبه حتى نبهني أحد مسؤوليه:

- ينبغي أن تصرف الشيك أولا، ثم تأتيني لأستخرج لك التذكرة!

وهَوَّنَ عليَّ بقرب البنك، ولكنني لما وصلت إليه على قربـه، وهـو "البنك المركزي المصري"، الحكومي - كانت الساعة قد تجـاوزت الثانيـة قليلا، وكان الموظفون قد هربوا لبيوتهم إلى الغد!

نبهتني السيدة الأستاذة أختي، أن أوجز البحث في لوحـات مـن خلال برنامج البوربوينت:

- ستجد المشاركين هناك، لا يتحدثون إلا من خلاله.

لَبِّثْتُ قليلا، ثم أطعتها، وأنجزت اللوحـات عـلى نحـو لطيـف، تمنيت لو كنت سلكته في كل مـا شـاركت بـه في مـؤتمراتي السـابقة، عـلى قلتها!

جعلـت أُقَـدِّرُ سـاعات السـفر، وأتخيـل الأوقـات الطويلـة في

الطائرات؛ كيف تنقضي! وأستثير استطراف أهلي وصحبي، لما أُشْرِفُ عليه، كيف أُذْكَرُ أنا وجمال عبد الناصر معا! حتى كان يوم الثلاثاء ٢١/٨، فصليت عشاءه مع مغربه جمع تقديم، ثم لبست، وودعت أسرتي، وصَوَّرْتُها بمحمولي، وهي كُلُّها علي الباب تشير إلي بالوداع!

وجدت سيارة تاكسي بجوار عمارتنا، فأشرت إليها، فقال سائقها:

- تركب على أن أوصل هذه الأشياء إلى الدكتورة، ثم نمضي معا؟
- لا بأس.

ذهب يدور في روضتنا العتيقة، حتى وصل إلى عمارة، فنادى بوابها، فأعطاه الأشياء، وذهب في طريقنا:

- من الدكتورة؟
- الدكتورة هالة جبر، أستاذة التحاليل بجامعة القاهرة.

سرني فيها بعد أن وجدت أسرتي تعرفها؛ فقد ملأ لي السائق الوقت والمكان من حيث اتجهنا إلى حيث وصلنا، بأخبارها الطيبة هي وزوجها وأولادهما؛ حتى تمنيت لنفسي وزوجتي وأولادي، مثل ما هم عليه من كرم الأخلاق وعُلوِّ الهمة، ورأيت ذلك من التوفيق في مفتتح السفر إلى بلاد مسلمين، لم يملأها الإسلام إلا بالأخلاق الكريمة والهمم العالية!

وصلت مبكرا من قبل أن يفتح المدخل إلى تنظيم دخول

المسافرين وأمتعتهم إلى الطائرة، فذهبت إلى مقهى ميلان الذي عَرَّفه لي قَريبٌ كريم ظريف، أشرب القهوة الإيطالية (الكابوتشينو)، ثم رجعت إلى المدخل، فدخلت بحقيبتَيِ الكتف (حقيبة الحاسوب المحمول) واليد، إلى مُنْتَظَرِ الدخول إلى الطائرة نفسها.

اشتغلت من خلال الزجاج بتصوير وجه الطائرة وجسمها، ثم بتصوير جوفها من داخلها: إحدى طائرات الشركة السنغافورية، تحفة رائعة، مضيفات نحيفات رشيقات متحدات الحُلى والحُلَل؛ فمن ذلك شَدُّ الشعر ولَفُّه كما تَلُفُّ الفلاحة المصرية شعرها المُحَنّى، ومن ذلك الملابس اللصيقة ذات الورود المختلفة الألوان على أرض من الأسود أو من الرمادي على حسب عمل المضيفة فيما ظننت، تبدو بها مزخرفة زخرفات متداخلة جميلة، في معطف على إزار ملفوف لف الإزار الرَّجُليِّ العَرَبيِّ- ومضيفون قليلون مثلهن نحافة ورشاقة وروحَ حُلًى وحُلَلٍ، ولكن زي المضيفات سنغافوري خاص، فأما زي المضيفين فمشاع بين الشركات!

فَرِحْتُ أولا لمكاني بجوار الشباك؛ فقد نويت تصوير السماء كيف نعلو السحاب وكيف يعلونا! ولكنني أزعجني أن طال الوقت، واحتجت إلى الحمام كثيرا، وأن نام جاري الوحيد الذي خلا كرسيٌّ ما بيني وبينه، ولكنه بقي نومه مشكلة، ولم أكن لأوقظه كلما أردت الحمام، فكنت أتخطاه رافعا نفسي لكيلا ألمسه، وربما كان يتغافل عني لكيلا يحرجني! لقد كان إندونيسيا باندونجيا مسلما أزهريا، ولكننا لم يستمر بيننا

كلام، بل أدركه النوم؛ فاشتغل عني، ثم أدركني تلفازي الخاص المعلق على ظهر مقعد مَنْ أمامي، الممتلئ مواد مختلفة لا تتسع لها الأيام؛ فاشتغلت عنه!

- (يا عَذابي أَنا)!

تعبت ولم أعد أرتاح على يميني ولا على شمالي، ومن قريبٍ ما أوجعني ظهري ورقبتي، ولم أراجع الطبيب إلا مرة واحدة، عادني بعدها وجعي؛ حتى عاتبتني أمي؛ فقلت لها:

- أَصْبِرُ؛ حتى إذا ما أُبْتُ بوجعي، اتَّهَمْتُ فيه السَّفَرَ!

تُقَدِّمُ هذه الطائرة من القاهرة إلى سنغافورة وعَكْسًا، وجبتين: ثقيلة بعد الإقلاع، وخفيفة قبل الهبوط، تَحُفُّهما التُّحَفُ الخفيفة من المأكولات والمشروبات، فأما من سنغافورة إلى جاكرتا وعكسًا، فتقدم وجبة واحدة خفيفة منفردة من حَفِّ التُّحَفِ، ولكن صفة الخفة لا تخليها من معنى الوجبة الكاملة الطيبة!

بعد مدة من الوجبة الثقيلة في تلك الرحلة الطويلة ذات العشر- الساعات والنصف، تهدأ الحركات، وتخفت الأضواء، ويضطر الركاب إلى النوم إلا أمثالي ممن لا يطيعهم ما فَكَّروا فيه، حتى ينسوه!

ثم قُبَيْلَ الرابعة والنصف ذهبت، فتوضأت، فأبت، فتمكنت من كرسيّي، ثم صليتُ سُنَّةَ الفَجْرِ وفريضته قاعدا، مومئا ومنثنيا، قليلا وكثيرا، مُبْتَسِمًا لِذِكْرى صلاة عمرو موسى وزير خارجية مصر، الطائريَّة،

في وصف وزير خارجية السودان!

ثم أحببت أن أرى السماء فجرا، فإذا الشمس طاغية عليها!

- (لا حول ولا قوة إلا بالله، كان ينبغي أن أراعي طيراني إليها)!

ثم بعد مدة أخرى كانت الوجبة الخفيفة، ثم بعد مدة ثالثة أشرقت سنغافورة!

- (يا سُبْحانَ اللهِ، " تَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقينَ"، " عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ")!

جزر متقطعة، كلها حقول خضراء منظمة، وبحيرات طبيعية ومصطنعة، وسفن كبيرة وصغيرة، واقفة في عرض البحيرات ومتحركة، ولقد رأيت الحيتان أو الدلافين، تتحرك حركتها التي أطلعتنا عليها برامج عالم البحار المُتَلْفَزَة، رأيتها، رأيتها!

كنت أعرف أننا سنصل إلى جاكرتا بعد العصر، فرأيت أن أصلي العصر مع الظهر، من آخر هذه الرحلة "القاهرة سنغافورة"، جمع تقديم؛ فصنعت مثلما صنعت عند صلاة الفجر.

قاربت الطائرة الأرض، فاقترب المطار، بشَجَرِ أُطُرِه المُتكَبِّرة، ومِساحات ما بين مَسارات طائراته، المُخْضَوْضِرَةِ، وسُحُبِ سمائه المصطخبة، وجَذْبَة وَقْعِه الخرافية!

ما أسهل ما خرجنا ودخلنا!

لما كان بين وصولي إلى سنغافورة وإقلاعي منها، ساعتان- جُلْتُ

في أَبْهاء الوصول، والسوق الحرة؛ فَأَعْجَزَتاني دقةً، ونظامًا، وجمالًا، وبهاءً، واختلافًا، وبهرًا!

لن أذكر معارض الشركات الكبيرة، المدهشة؛ بحسبي بُحَيْرَة هذا الطابق العالي من المطار!

أجل بحيرة هذا الطابق العالي!

بحيرةٌ خمسة عشر مترا في أربعة أمتار، تتحرك ملتوية، تضيق وتتسع، بأسماك كبيرة ملونة، في إطار من حجارة بيضاء كبيرة، تُذَكِّرُ تِلاعَ الجبال القديمة، وأشجار مُخْضَوْضِرة، وأزهار مُزْدَهِيَة، ومقاعد مُخْشَوْشِبَة ملتبسة الملاءمة، آية من آيات الإتقان والإحسان، ونفحة من نفحات الجمال الرباني، بقيت في الإنسان من فطرة الرحمن، ينبغي لكل ذي عقل، أن يتعلق بها، وأن يعلق بها غيره!

اندهشت وقتا، ثم جلت بين المعارض أرى ما أشتري، فرأيت المعروضات كلها غالية، لا سبيل إليها إلا بالدولار، وقد خبأت مع النقود المصرية، ثلاثمئة دولار لمطالب أهمها رسم اشتراك المؤتمر. ولكنني فتشت عن كاميرا إلكترونية حديثة، حتى عرفت مكانها من أجنحة المعارض المحلِّقة، ولم أقربها!

تَفَلَّتَ الوقت حثيثا؛ فأقبلت على مدخلي المذكور ببطاقة طائرتي، ولم يعق حركتي عائق، وأنا الغريب؛ فكُلُّ شيء مُوَضَّح، والمَمَرّات مُتْعَة لِلْمارّين! وصلت، فدخلت، فأثبت نفسي، وأخذت بِطاقَتَيِ البيانات،

اللَّتَـيْنِ سـيحتاج إلـيهما مطـار جاكرتـا، ثـم قعـدت أسـتوفيهما مَكْروبًـا بِإِنْجليزيَّتِهما وعَرَبيَّتي القَـويَّتَيْن؛ حتـى فَرَغَتـا منـي، ثـم حـان الـدخول، فدخلت.

أخذت مكاني بجوار الشباك مرة أخرى، عن يسار شاب رَسْـميٍّ الهيئة، حَسَنِها، كان قد وضع معطفه على مقعدي، من بعد أن قعدت خطأً على مقعدٍ خلف مقعدي، فلما نبهني صاحبه، تقدمت إلى مقعـدي بجـوار الشاب الوسيم، فتنـاول معطفـه مـن دون أن ينـبس بكلمـة، فاسـثقلته، واستكثرت عليه ملامح الشوام التي ضَوَّأَتْ وَجْهَـه، ولكنـه طلـب مـن أحد المضيفين أن يشتري له شيئا مما رآه معروضا بمجلة الطائرة، وأعطـاه بطاقته الفيزا، فجاءه به ملفوفا، ووقع له على ورقة سحب الثمن، ثـم لمـا ذهب عنه، فك لفافته، فإذا زجاجة خمر معتقة؛ فقدرت أنـه مـن نصـارى الشام، وبقيت أستثقله؛ حتى طالبتني المضيفة بأن أحرك حقيبة كتفي التي وضعتها على الأرض إلى جهة معينة، فضحك جـاري الشـامي الملامـح، وعبر بالإنجليزية عن أنها تصطنع تدقيقات الألمان؛ فاتصلت بيننا أسباب الكلام:

- من أين؟
- من مصر.
- وأنت.
- من إيطاليا.

- "إتلي"، أم "إيتليانو"!
- "إيجبت" أم "إيجبسيانو"!

مصر تاريخ طويل!

- وجهك عربي!
- ملامح البحر الأبيض المتوسط!

كليوباترا.

- أنطونيو.
- إلى أين؟
- إلى باندونج.
- عمل؟
- أجل؛ فأنا أستاذ بجامعة القاهرة، أزور جامعة باندونج.
- وأنت؟
- عمل كذلك.

باندونج أفضل من جاكرتا؛ فجاكرتا أشد منها ازدحاما، ثم باندونج أعلى مكانا، وألطف جوا.

- أنتظر أن تكون الحرارة مرتفعة إلى الأربعين مثلا!
- هي أقل من الثلاثين!

فكيف كانت في مصر؟

- مرتفعة، ولا سيما عليك!

- ولا سيما أنني جئت من ألمانيا!
- كم لبثت فيها؟
- أسبوعين.
- لابد أن الحرارة فيها تحت الصفر!
- فوقه بعشر درجات فقط!
- تُرى كم الساعة بباندونج؟
- السادسة.

وصلنا، وخرجت من الطائرة عن الممر المعلق بها إلى المطار، فحَنَنْتُ إلى العربية التي في التنبيهات، من بعد مطار سنغافورة الذي لم أقرأ فيه حرفا عربيا، فإن سَمِعْتُه كان غريبَ الوجه واليد واللسان:

- (هذه بلادي)!

وقابلتني الموظفاتُ على أعمال دخول الوافدين، محجبات بلا زينة، حجابا موحدا، وشعرت أنه شعار مقصود- وفراغُ المطار وقد حذرني أندي هادي زحامه؛ حتى نبهني على المخرج والملتقى في الزحام!

طالبتني الموظفة بعشر دولارات، تعريفة الإقامة القصيرة؛ فغضبت أن لم يجهزها لنا المؤتمر، وحاولت جهلا أن أثبت مجانيتها من دون جدوى، وساعدني من دون فائدة، شاب مصري يتكلم الإندونيسية طليقا، ثم دفعتها، وتحركت سريعا في فراغ المطار، حتى خرجت.

هذا الشاب هناك، ذو اللائحة عليها "المؤتمر الدولي للغة

العربية"، أندي هادي بلا ريب، عرفته من قبل أن أرى لائحته، بصورته التي أرسلها إلي من بعد أن أرسلت إليه صورتي مع ملف سيرتي، ليقدمني المقدم بهذه، وليلقاني الدليل بتلك.

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام!
- رأيتَ كيف عرفتُك بالصورة!
- وأنا كذلك عرفتُك بالصورة!

شاب ظريف لطيف أندي هادي، مدرس بجامعة جاكرتا الحكومية، حصل على الدكتوراه من جامعة شريف هدايات الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا، في طبيعة القصص القرآني من خلال قصة سيدنا يوسف، ويشارك في المؤتمر ببحثه "تدريس النصوص الأدبية من خلال تحليل عناصر القصة القرآنية: قصة يوسف نموذجا".

خرجنا من المطار أنا وأندي وطالبان من طلاب اللغة العربية: محمد فؤاد الذي كان طالبا بكلية دار العلوم من جامعة المنيا، وعَديّ الطالب بالفرقة الرابعة من تخصص اللغة العربية بجامعة باندونج التربوية، ينطق محمد فؤاد اسمه شبيها بكلمة "عادي"، من دون ألف، يمزح بأنه شخص عادي!

كنت إذا مازحتهم ضحكوا كثيرا، وجاملوني، غير أنهم لم يعرفوا صَفْقَةَ الكف المصرية عند المزاح:

- نحن نكتفي بالضحك!
- ولكن أين أنتم عن كلية دار العلوم بجامعة القاهرة؟
- هي دار العلوم كتلك!
- لا؛ أين الأبناء من الآباء، أم أين التلامذة من الأساتذة، أم أين السذاجة من الخبرة!
- لم يكتمل بيننا وبين جامعة القاهرة اتفاق على قبول طلاب؛ فقد اشترطت جامعة القاهرة أن تفتتح إندونيسيا مقرا لطلابها وترعاه، ولم تفعل إندونيسيا ذلك بعد!
- أرجو أن أوصل أصواتكم إلى جامعة القاهرة!

كنا قد وقفنا حيث ننتظر الحافلة التي تحملني أنا وحدي مع ركابها الغرباء، إلى متجر باندونج الكبير، الذي ذكروا لي أننا سننتقل بالحافلة إليه، وحجز لي أندي مقعدي بها، وجاءني بالتذكرة، ثم رجع ليتلقّى الوافدين الآخرين.

لم تلبث الحافلة أن وصلت، فحملت حقيبة كتفي، وجررت حقيبة يدي، ولم أدعها للسائق إلا قريبا من حافلته، ثم قفزت إلى داخلها؛ فقد هطلت السماء، واستبشرت، فقد تركت القاهرة ضاحية للشمس، إلى حيث البرد والسحب والمطر!

زعم لي أندي أنها رحلة ساعتين، فكانت إلى أربع الساعات أقرب؛ كلما ظننت أن باندونج قد جاءت، لا تأتي باندونج، وكأنَّ على

أَرْجُلِها نَقْشَ الحِنّاء، أو على أَرْجُلِنا!

اشتغلت بتصوير المشاهد التـي لا تكـاد عـين الإنسـان تراهـا في حُلْكَةِ هذا الليل البهـيم، فكيـف بعـين المحمـول الزائغـة، وكنـت أريـد بالتصوير غالبا، الصوت المصاحب له؛ فقد كنت أعلق بما يعن لي، على مـا لا يكاد يعن لي:

- ما هذا! أما من مطبات في هذا الطريق! كيف يعيشون!

القيادة من عن يمين السيارة، والسير من عن يسار الطريق!

الانضباط يكفل سلامة السير في هذا الظلام المدلهمّ!

هذا كارفور متجر ماجد الفطيم الملياردير العربي الإماراتي!

وها هو ذا مرة أخرى!

وصلنا إلى جمع محتشد، فإذا الأم تَهَشُّ لأبنائها المنتظرين، فيُقْبلـون عليها، ويُقَبِّلون يدها، وتَبَشُّ لزوجها، فتُقْبِلُ هي عليه، وتُقَبِّلُ يده!

هذا إذن متجر باندونج الكبـير! ظننتـه فنـدقًا، وفرحـت بالمقـام الفخـم الـوثير الجميـل، فتحركـت إلى مدخلـه سريعـا، وسـألت بعـض الجالسين على مقهى به، فنبهني إلى مكتب عن يساري لا يلائمه، فناديـت به شخصا مشغولا بمكالمة، فلما أنهاها جاءني، فأطلعته على بيانات المؤتمر؛ عسى أن يعرف حقي في الفندق، فنادى شخصا آخر، ثم نبهاني جميعا على الخروج من باب هـذا المكتـب غـير الملائـم، فـإذا امـرأة عربيـة الملابـس والملامح والبشاشة، فقدرت أنها أستاذة مثلي مدعوة تنتظـر فصـل أمرهـا

مثلما أنتظر، فأقبلت عليها سعيدا بها:

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام!
- كيف حالكم؟
- أهلا وسهلا، الحمد لله!

لم أكد أستوثق من علاقتها بالمؤتمر، حتى أقبل علي سريعا رجل عربي الملامح والبشاشة، فقدرت أنه أستاذ مثلنا مشارك في المؤتمر:

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام!
- هل أنت مشارك في مؤتمر اللغة العربية؟
- نعم.
- يبدو أننا سننتقل إلى مكان آخر؛ كلمت الدكتور دودنج رئيس لجنة المؤتمر الآن، فأرسل إلينا سيارة، لتأخذنا!
- (وا ضَيْعَةَ حَقّي في الفندق الكبير)!

لم نكد نتعارف، حتى قطعت تعارفنا السيارة، فركبنا جميعا مع سائقها، وقرينه الذي يعرف شيئا من اللغة العربية، واتصل التعارف.

- أنا فلان.
- وأنا الدكتور محمد خاقاني أصفهاني، أستاذ البلاغة العربية، بجامعة أصفهان، وهذه زوجتي.

- ما شاء الله! أهي مثلك أستاذة للغة العربية؟
- لا، إنها رئيسة دائـرة بجامعـة أصـفهان نفسـها، ولكنهـا تعـرف العربية.

ولكنه قدمها فيما بعد، على أنها وزيرة الحرب (الدفاع)، فلما ذكرنا له أننا نقدمها في بلادنا، على أنها وزيرة الداخلية (الشرطة)، ذكر أَلّا فـرق كبير، بين وزارة الحرب ووزارة الداخلية!

- زاركم قريبا أستاذنا الدكتور سعد مصلوح؟
- هو أستاذ بجامعة الكويت، لما زرنا جامعة الكويت استضـافنا في بيته، وأكرمنا هو وزوجته الدكتورة الكويتيـة. لكـن هـل تعـرف الدكتور يوسف عبد الفتاح؟
- إنه أخي وصديقي، ولولاه ما انتبهت إلى هذا المؤتمر -فالمؤتمرات لا تناسبني- ولا ألقيت له بـالا؛ فـالاعتزال أغلـب عـلي! وهـو مشارك في هذا المؤتمر.
- حقا! إنه صديقنا، التقينا أكثر من مرة، وزارنا.

ولكنه يُتَـوَفّى والـده -رحمـه الله!- في أثنـاء المـؤتمر؛ فيعجـز عـن الحضور، ثم يكون الدكتور خاقاني هو الذي يبلغني!

- إنه من المجتهدين في الاشتغال باللغة الفارسية، وهو أسـتاذ الآن بجامعـة هـانكوك بسـيول، وقـد صـار مستشـار رئـيس مركـز الدراسات العربية والإسلامية، الذي يفتتحـه في أكتـوبر القـادم

بسيول، السيد عمرو موسى أمين الجامعة العربيـة، وهـو المركـز الوحيد في هذا الشأن بقارة آسيا، ملقاة عليه مهمـة إطـلاع تلـك الناحية من العالم، على الثقافة العربية الإسلامية.

هذه بطاقتي.

- وهذه بطاقتي، ولكن أليست غريبةً ممن يغلب عليه الاعتزال!
- (لو تأملتها لعرفت في كآبتها حقيقة الاعتزال)!
- إذا رأيتني أسمر، فلا تعجب؛ فإنه أثر الاشتغال بـالعلوم العربيـة وآدابها؛ وأنا مع ذلك أكتب الشعر بالعربية والفارسية!
- أحضرت مجموعة من كتبي هدية للمؤتمر، ولولا هـذا لأهـديتك منها؛ فأنـا مشـغول بالشـعر والقصـة، ومتخصـص للدراسـات النصية النحوية، وللدراسات النصية العروضية.
- أنا كذلك اشتغلت بالدراسات العروضية.
- ولقد درست اللغة الفارسية عَرَضًا، بكليتي، عـلى أسـتاذنا الحـبر الجليل الدكتور رجاء عبد المنعم جبر – أطال الله في النعمة بقاءه!

– حتى صرت أدعو دائما أنا ومحمد إقبال:

"امْنَحْني حَماسَةَ الرّوميّ

وَنارَ خُسْرو الدَّهْلَويّ

امْنَحْني صِدْقَ سَنائي وَإِخْلاصَه "!

ثم على الدكتور عبـد العزيـز بقـوش –أحسـن الله إليـه!– حتـى

صرت أترجم الشعر الفارسي في حكاية " يوسف وزليخا"، إلى شعر عربي!

وصلنا إلى حَرَم تلكوم (مركز الاتصالات) حيث سنقيم، فنزلنا من السيارة، وانتظرنا قرين السائق، أن يعرف أمر إقامتنا، فجاءنا رجل فوق الخمسين، على رأسه قلنسوة المتدينين منهم، وتَعَرَّفَ إلينا، فلم أنتبه كثيرا، ثم اعتذر عن عدم وجود أماكن بتلكوم، وأنهم سيأخذون لنا مكانا بالخارج:

- هه، لا بأس؟
- لا، بأس!
- لا، لا، اطمئنوا، لن تخرجوا؛ لقد عثروا على مكان، وإن كان خارج تلكوم أفضل من داخله؛ فأنتم هنا بعيدون عن السوق!
- (وما حاجتنا إلى السوق)!

تمشينا وأمامنا السيارة بحقائبنا، فقال ذو الخمسين والقلنسوة:

- غدًا الخميس نخرج في التاسعة صباحا إلى نزهة بالجبل حيث البركان، ثم بالعين الحارة الفوارة حيث المياه المعدنية الصحية.
- لم أنم منذ يوم كامل، فهلا تحركنا في الحادية عشرة!

ضحك ولم يجب.

صحبني ثلاثة من طلاب اللغة العربية -فقد أُشْرِكوا في أعمال المؤتمر على نحو واضح طيب، لم أعهده- حتى غرفتي رقم مئة وعشرين،

التي أخـذوا لي مفتاحهـا مـن مضـيفي المبنـى، وفتحوهـا يطمئنـون عـلى أشيائها، فوجدوا بعضا، وفقدوا بعضا، وإن لم يؤثر فيهم لا هذا ولا ذاك!

دخلتها في الحادية عشرة والنصف مساء بتوقيت باندونج، وقلت لمحبوب عثمان، أحد أولئك الطلاب:

- أريد أن أتعشى، وأن أكوي بعض ملابسي، وأن أهاتف أهلي!

لم أخـرج منـه إلا بهمـة بعـض صـحبه أن يصـحبني بدراجتـه البخارية، إلى حيث أكلم أهلي، فأما العشاء فلم يعد بالمطعم من يجهـزه لي، وقد عرفت من بعـد أن الإندونيسـيين ينـامون مبكـرا ويقومـون مبكـرا، وأنني لن أجد بعد التاسعة مساء من محل مفتوح، فذكرت القاهرة التي لا تنام، يكمل بعض ساهريها بعضـا، فمـنهم مـن يظـل إلى الثانيـة عشرـة، ومنهم من يظل إلى الثالثة، ومنهم من يناوب بين عُمّالـه فـلا يغلـق أبوابـه أبدا، وكل أولئك عندنا بروضـة مصرـ العتيقـة، فكيـف إذا ذكـرت مـن القاهرة شارع عبد العزيز بالعتبة!– وأما الكي فربما تمكنا منه صباحًا قبـل الحركة إلى الرحلة.

غـيرت ثيـابي مهـدودا، واتخـذت مـن إحـدى مـلاءات السرـير سجادة، صليت عليها المغـرب والعشـاء جمـع تـأخير، ثـم ضـبطت منبـه محمولي عـلى مـا قـدرت أنـه موعـد صـلاة الفجـر (الرابعـة والنصـف)، وابتهلت إلى النوم، متناسيا المهاتفة، معولا على ثقة أمـي بـالله، ورضـاها عني، ولكن هيهات!

لم يقترب نومي من سريرهم، لا قبل الفجر، ولا بعده!

قمت، فتجهزت سريعا جائعا، وخرجت إلى حيث تجمع بعض الأساتذة ممن عرفت وممن لم أعرف، ثم انتقلنا جميعا إلى خارج المبنى ننتظر الحركة إلى النزهة المزمعة. وقفت مع من وقف، وتعرفت إليهم، فكان فيهم الدكتور كمال عبد العزيز أستاذ البلاغة العربية بكلية دار العلوم من جامعة الفيوم، الذي يعمل بجامعة بروناي، والدكتور عبد الله من جامعة أم القرى، والدكتور خاقاني أصفهاني، وآخرون شغلني بعضهم عن بعض؛ حتى انتقلنا جميعا إلى الحافلة.

في الحافلة تَصَدَّرَ للتوجيه والتنبيه، الأستاذ أوجس سلام، مدرس اللغة العربية والعلوم الإسلامية بجامعة باندونج التربوية، الخمسيني ذو القلنسوة الذي قابلناه أمس، قائلا:

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!
- أنا فلان... يتكون اسمي من أوجس وسلام، فأما سلام فعربية واضحة، وأما أوجس فمن تفاؤل أبي بولادتي في شهر أوجسطس! أصحبكم في نزهة إلى الجبل والعين، ولكن قبل هذا نذهب إلى البنك الإسلامي، لتغيروا ما معكم من دولارات إلى روبيات تستطيعون بها أن تشتروا ما تشاؤون من طعام وشراب، وهدايا.

- (طعام وشراب، هذا أول النكث؛ فأين كفالتهم)!
- هذه النزهة على حساب المؤتمر، سيكون فيها بعض الطعام الخفيف، وفي السابعة وجبة العشاء، قبل الافتتاح، ولكم في الجمعة والسبت، وجبتا إفطار وعشاء، ثم يكون في مساء السبت اختتام المؤتمر.

كان البنك قريبا بحرم جامعة باندونج التربوية، فجلنا فيها ذهابا إلى البنك وإيابا منه، واطلعنا من معالمها على ممراتها الضيقة المحوطة بالحدائق، وطلابها المختلطين المتحلِّقين على أرض حدائقها حلقات كثيرة هنا وهناك، يتباحثون في شؤون أنشطتهم الصيفية:

- ما لهم متداخلين ذكورا وإناثا، أما يجرئهم هذا على الفاحشة!
- لا، لا، بل يتعاملون عَفْوًا رَهْوًا، لا تخطر لهم الفاحشة ببال، وتحميهم تقاليدهم الراسخة!

في البنك تتابعنا صفوفا لتغيير الدولارات، فاجتمعنا أنا والدكتور محمد خاقاني أصفهاني وأحد الأساتذة السعوديين الشباب:

- ما هذا يا دكتور!

بكم ريال إيراني تشترون الدولار؟

لقد كانت لريالكم في زمان الشاه، قيمة أكبر كثيرا مما صارت عليه فيما بعد!

- هذه حال عامة يا دكتور!

- هذه ضريبة صمودنا للبغي الأميركي الصهيوني، ونحن راضون بها يمتحن به الله -سبحانه، وتعالى!- صدق جهادنا في سبيله!

ثم أقبل علي محبوب عثمان، يعينني على ألّا أؤخر الوفد:

- من أين أنتم، يا أستاذ؟
- من جامعة القاهرة.
- ما شاء الله!
- وفي أية سنة أنت؟
- في السنة الرابعة.
- ما شاء الله! ألا تحب أن تدرس بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة؟
- هذه -يا أستاذ- أعظم أمنياتي!

لاحظنا أن الموظفين يتوقفون أحيانا عن التغيير، وأن مصاحبينا من الأساتذة والتلامذة يشرحون للممتنعة دولاراته من التغيير، أنها مختومة، وأن هذا البنك الصغير لا يستطيع تصريفها، فإذا أخذها أخذها بثمن بخس:

- غَيِّروا غير المختومة، واتركوا المختومة للبنك الكبير بوسط المدينة!
- دولاراتي مختومة، وإنما نختمها بالأردن، لضمان سلامة الورقة من التزييف!

تفقدت دولاراتي الثلاثمئة إلا عَشْر دولارات التأشيرة، فوجدت فيها مئة مختومة، فنحيتها ، وغيرت ما سواها، وكنت أظنني دفعت للتأشيرة عشرين دولارا؛ فطلبت تغيير مئة وثمانين، وكتبت الرقم ١٨٠ $، وأعطيتها المبلغ، ثم انتبهت إلى أنها مئة وتسعون، ونَبَّهْتُ الموظفة المحجبة بالبنك الإسلامي، فصَحَّحَتِ الرقم، ثم غيرت المبلغ بمليون وستمئة وتسعة وسبعين ألف روبية (١٦٧٩٠٠٠)، الدولار بتسعة آلاف وثلاثمئة وسبع وعشرين روبية! ثم لما ركبت الحافلة، جاءني محبوب عثمان بتغيير عشر الدولارات التي نسيتها من أول الحساب، ولم تصححها الموظفة إلا في إحدى الأوراق، ولم ألق لزيادتها بالا، أمانة واضحة مباركة من البنك الإسلامي، على رغم قول بعض زملاء نزهتنا، فيه، من قبل أن نصل إليه:

- البنك الإسلامي وراءنا وراءنا!

ذهبنا في سبيل الجبل، وتريثنا قليلا بمكان ما، نحمل زملاء من ماليزيا وبنجلاديش، سُكِّنوا خارج تلكوم، ويشتري أعضاء لجنة المؤتمر ما شاؤوا من مياه وطعام، وزعوا منه علينا، لكل واحد علبة مياه أكوا صغيرة، وتفاحة، وثمرة كالنبقة غريبة؛ تلهينا بها؛ حتى وصلنا إلى مَصْعَدِنا إلى الجبل، فمضينا في طريق أوليٍّ تتناثر على جانبيه محال الخدمة الغريبة، وأغرب ما فيها مطاعم صغيرة، تجهز الطعام لمن يستريح جانبا على أرض مرتفعة قليلا، مفروشة، في وسطها خِوانٌ كالطَّبْلِيَّة المصرية؛

حتى بلغنا مكانا أغرانا به أوجس سلام قائلا:

- تريدون أن تفطروا؟
- نريد أن نشرب الشاي!
- وتشربوا الشاي؟
- نعم!
- في هذا المطعم الذي عن يساركم، ما تريدون، فما رأيكم أن نفرغ من ذلك قبل صعود الجبل؟

نزلنا على مراده، فكان مطعما غريب الخارج والداخل والنظام والعمل والعمال والطعام والشراب والأوعية، وهي الغرابة ينبوع الدهشة، والدهشة ينبوع المتعة، والمتعة ينبوع الصحة!

دخلنا جميعا، ودخلت معنا طائفة ضخمة من الفتيان والفتيات، كأنهم طلاب مدرسة ثانوية خاصة جدا، بملابسهم الموحدة الجذابة، وأجسامهم النحيلة الرشيقة، وشعورهم الغزيرة الطويلة الفاحمة المسترسلة، المجتمع فيها جمال الشعر الهندي وجمال الشعر الصيني!

أخذنا مجالسنا، فإذا معي جماعة أساتذة جاؤوا معا من جامعة بروناي الإسلامية، ثلاثة مصريين (الدكتور عارف كَرْخي أبو خضيري، والدكتور قرني عبد الحليم، والدكتور حسن عبد المقصود)، وإندونيسي (الدكتور عبد الرشيد شهودي) ومعه ابنه (علي فائز).

- ما هذا الشراب الأصفر الدَّوّار على القاعدين؟

- شاي أخضر خفيف، يستعملونه بدل الماء!
- لحم العجل!
- لحم الدجاج!
- السمك المقلي!
- أختار أنا وابني السمك المشوي!
- وأنا مثلكما!

ثم جاء كُلًّا طَبَقُه وسلطَتُه، ووضع وعاء أرز طويل، من خشب الغاب (القصب)، بملعقة مثله، بين الدكتور عبد الرشيد وابنه، فلما لم يجئ غيره، عرفنا أنه مشترك، فتقاللناه فِعْلَ الجوعى، فأخلف ظنوننا، بمَغاصِه إلى عُمْقٍ لم ندركه!

تآلفت أنا والدكتور عارف منذ التقينا، شاعر كبير، أستاذ جامعي، مولع باللغات، متخصص للأدب القديم، مشغول بالأدب الشعبي، وكل ذلك خفيف علي، قريب مني؛ فخضنا كل مخاض، وشجع بعضنا بعضا على تشقيق الكلام، ولم يكن الدكتور عبد الرشيد بأقل ظرفا من المصريين، بل ربما كان أكثر مصرية، حتى إنه لما اختار كل منا أحب الطعام إلى نفسه، شَجَّعنا عليه، ثم غافلنا؛ فدفع ثمنه كله:

- يا دكتور!
- أنتم في بلدي!

ثم خرجنا لنكمل صعودنا إلى مبتغانا، فإذا طريق الأحلام

السـينيمائية، الضـيق الملتـوي المتصـاعد المحفـوف بالأشـجار الطويلـة والقصيرة، الغريبة، التي لم تمر بخيـال فـلاح مصريـ، ولا سـيما أشـجار الشاي التي كسـت المسـاحات الشاسـعة الصـاعدة بالمرتفعـات، الهابطـة بالمنخفضات؛ حتى بلغنا باحة واسعة فيها موقـف سـيارات نقـل ركـاب غريبة، في مثل حجم حاملات البضائع بشارع عبد العزيـز مـن القـاهرة، ولكنها مفتوحة من خلف غرفة القيادة كـما تنفـتح سـيارات حمـل ألـواح الزجاج، أو سيارات حمل صناديق البيبسي، ولكن فيها الكراسي بدلا مـن الصناديق والزجاج، فركبناها، فصعدت بنا أكثر؛ حتى ظننت أنها ينقطـع نفسها، ولكنها وصلت إلى القمـة، فـإذا باحـة أخـرى كبـيرة، فيهـا باعـة أشكال غريبـة مـن المنسـوجات، ومـن الخشـبيات، ومـن الصـخريات، فتلقفني شاب منهم يبيع تَكْوينَيْنِ على هيئة نابَيْ فيلٍ صَغيرٍ، يدعي أنهما من صخر البركان، مكتوبا على أحدهما "لا إله إلى الله" – سبحانه، وتعـالى!– وعلى الآخر "محمد رسول الله" –صلى الله عليه، وسلم!– سـألته أول مـا نزلت من سيارة القمة:

- بكم؟
- بمئتي ألف روبية.
- لا أريد.

لم يقتنع الشاب بأنني لا أريد، ولزمني حيثما ذهبت، ينبهنـي عـلى ما ينبغي أن أعتني بـه مـن المظـاهر السـياحية، ويُسَرِّبُ إليَّ توسـلاته أن

أشتري منه، ولولا رغبتي في شراء أشياء أخرى، لربما أرضيتُه!

وأغرب ما في تلك الأشكال الغريبة، تَكْوينٌ من عيدان الغاب (قصب البوص)، كسفينة ذات صاريَيْن، يمتد بين صارِيَيْها حَبْلٌ، تَعَلَّقَتْ مُنْخَرِمَةً به تَكْويناتٌ صغيرة متدرجة الأحجام، فيها قصب قائم وقصب نائم، تخرج من القصب النائم عيدان، يضرب البائع العود بعد العود بعد العود، متدرجة؛ فتخرج أصوات السلم الموسيقي (دو... ري... مي... فا... صو... لا... سي... دو...) - ثم أجزاء من علب بلاستيكية صغيرة، مقطوعة من أسفل فُوَّهاتها، مسدودة الفوهات بسِدادات مطاطية مشقوقة شقوقا خاصة، إذا نفخها النافخ بطريقة ما صَوَّتَتْ كما يبكي الرضيع، وإذا نفخها بطريقة أخرى صَوَّتَتْ كما يضحك! - ثم أجزاء قصبية، فيها عيدان دقيقة طويلة، إذا نُفِخَتِ القَصْباءُ وحُرِّكَتِ العيدانُ من خارج لداخل فخارج فداخل، صَوَّتَتْ كما يصدح بلبل!

ثم تمشينا إلى جهات المكان المختلفة؛ فجهة إلى مُطَّلَعٍ على مهوى البركان الخامد منذ سنة تسع وستين وتسعمئة وألف الميلادية، والدخان الباقي يتصاعد من جانبه، برائحته النتنة كرائحة سوائل مصارف المنازل، حتى إن الإندونيسيين أنفسهم ليحمون منها آنافهم – وجهة إلى سلالم إلى عُلِّيَّةٍ مسقوفة بشجر القصب، يُطَّلَعُ منها على الفضاء المطلق من فوق البركان وما حوله – وجهة إلى زقاق طويل ملتو تتوالى فيه المحال الضيقة عن يمين وشمال، بكل ما يُظَنُّ أن ينجذب إليه السائح، وأغرب ما

انجذبتُ إليه محل على عتبته أقفاص حديدية صغيرة، حُبِسَ في كل قفص فأر كالكتكوت الإنجليزي، مع أرجوحة لا يمل من الدوران فيها، ولا يدوخ، اقتربت منها لأصورها، فقال بائعها بعربية مكسرة:

- هذا ركيص (رخيص)، ما في أكل (لا يأكل)!

ولا أدري من – لا ما – هذا الفأر الذي لا يأكل مهما يكن ضئيلا – ليتني مثله – وعهدي بالفأر من فئراننا، لا يترك لنا ما نأكل!

ثم محل فيه شاب يَنْجُرُ قِطَعَ قصب غاب، ضخمة، يخرج منها أوعية ربما كان منها ذلك الذي قدم لنا فيه الأرز في المطعم!

ثم ذهبنا عن الجبل، في سبيل العين الحارة الفوارة، قال أوجس سلام يقيم علينا الحجة:

- هل تريدون الذهاب إلى العين الحارة الفوارة؟

- نعم.

- إذن يدفع كل منكم خمسة وثلاثين ألف روبية، أو ليكملها خمسين ألفا، لأنه لا ينزل إلى المياه إلا إذا دفع عشرة آلاف أخرى!

جهزت لمحبوب عثمان الذي جاءني يحصل المبلغ، خمسة وثلاثين ألفا؛ فلم يكن يخطر لي أن أنزل إلى المياه، ولا جهزت لمثل هذه المغامرة نفسي، فطالبني بالخمسين، فحددت له حدودي، فتركني إلى أستاذه أجوس سلام، يستفتيه، ولم يعد إلي، ولم يطالبني بقليل ولا كثير، مكتفيا كما تبين لي، بما دفعه زملائي، إلا أنني أظن أنه أخذ مني فيما بعد عشرة

الآلاف!

دخلنا حدائق العين الفوارة، وتركنا الحافلة ناحية، واتفقنا على ألا نتأخر أكثر من نصف ساعة، لكي نستطيع أن نعود، فنتعشى، ونجهز أنفسنا لحفل افتتاح المؤتمر. ذهبنا نجول في مَرابِعِ المكان، مستثقلين وسط هذا الجمال الباهر، أن يَسْتَعْبِدَنا نِصْفُ ساعة!

لقد أقام الإندونيسيون على هذه العين المعدنية الحارة الفوارة، مرابع من المُسْتَرَاحات الجميلة المختلفة، والماشي والمظاهر المدهشة؛ فمن بحيرات صغيرة تسبح فيها أسماك كبيرة جميلة غير ملونة، تُذَكِّرُ على حَرَجٍ أسماك بحيرة مطار سنغافورة - إلى حمامات سباحة كنت أجد بعض الشباب يخرجون منها، لينطرحوا على بطونهم، ليعالِجَ أجسامَهم بعضُ المدلِّكين - إلى شلالات بديعة تتهابط بجوارها السلالم إلى المقاعد المخشوشبة البديعة – إلى ممرات حول تلك المظاهر، ضيقة، صاعدة هابطة، غريبة الشأن، محوطة بالأشجار والأزهار!

أردت أن أصلي الظهر والعصر جمع تأخير، فتتبعت أوجس سلام، فعثرت على مسجد المكان وميضأته، فأقبلت أتوضأ، فناداني الدكتور نجم الدين أستاذ اللغة العربية بجامعة حسن الدين بولاية ماكاسار:

- تعال توضأ من هنا، فالمياه هنا من مياه العين الحارة الفوارة!

أقبلت فرحا، فتوضأت، فلما مضمضت أحسست بلذعتها

الغريبة!

- مياه مُسَكَّرة، أليس كذلك؟
- لم أشعر إلا بلَذْعة كلَذْعة الخَلِّ!
- صحيح، إنها لكذلك.

قامت الصلاة، فرَجَّحْتُ أن أدرك معهم مُتِمًّا، العصر التي يصلون، وأُعَقِّبَ بالظهر منفردا قاصرا، مخالفا الترتيب حرصا على الجماعة، تقديرا لعبد السلام العيسوي، شيخنا بروضة مصر العتيقة!

دائما هنا يؤم إمامُ المسجد، ولا يجامل أحدا بالتقديم، وإن كان عربيا! لا بأس، ولكن لا يعبأ أحدٌ بأن تكون الكتف في الكتف، ولا القدم في القدم، ولا بُنيانُ الصف مَرْصوصًا، ولا غرو؛ فلم يعد العرب يعبؤون بذلك!

في خلال هذه الرحلة اشتغل شباب الأساتذة ذهابا وإيابا، بالتعارف، والمزاح، والإِحْماضِ الذي ربما تناسوا معه من في الصحبة من زوجات بعضهم!

ولقد طغت على المزاح، مسألة الاختلاف فيما ينبغي للجنة المؤتمر أن تتولاه هي "على حسابها"، أو يتولاه كل مشارك في المؤتمر، هو "على حسابه"– حتى شغلت الدكتور محمد خاقاني أصفهاني؛ فقال فيها ما غَيَّرْتُ فيه من بعض طريقته في الإملاء، إلى طريقتي:

"قصيدتي المهداة إلى الأخ أجوس سلام

يا إخوتي، إن شئتم أن تأكلوا فهو على حسابكم

أو شئتم أن تشربوا فهو على حسابكم

أما إذا صليتم صلاتكم في أرضنا فهي على حسابنا

وإن تغديتم كبابا طازجا بشربة ساخنة

أو بِكُلا غازية باردة

فهو على حسابكم

لكنكم إذا تنشقتم هواء صافيا فهو على حسابنا

ثم إذا أردتم أن تبدأوا بجولة عابرة

إلى جَكَرْتا أو إلى باندونج أو أي مكان آخر

فهي علي حسابكم

أما إذا قررتم البقاء في مكانكم

فهو على حسابنا

مجمل ما أود أن أقوله يا إخوتي أنْ كل ما تلزمه روبية

فهو علي حسابكم

لكنّ ما لا يقتضي روبية

فهو علي حسابنا"!

ولكن أهم ما كان في خلال هذه الرحلة، هو حديث ذلك الدكتور نجم الدين، الذي عرف مصر والمصريين؛ فقد قام بيننا في الحافلة، يشرح طبيعة إندونيسيا والإندونيسيين، مستحضرا طبيعة مصر

والمصريين، التي عَرَفها؛ فتحدث عن العرب والصينيين الذين حلوا إندونيسيا جميعا، فأما العرب فائتلفوا هم وأهل البلاد، وذابوا فيهم، وأما الصينيون فاختلفوا عليهم؛ حتى رحلوا عنهم- وعن اللغة الإندونيسية، وأنها كانت تكتب بالحروف العربية، ثم صارت تكتب بالحروف اللاتينية، وأنها إحدى مئتي لغة مختلفات بإندونيسيا، ولكنها أقوى منها وأظهر عليها- وعن طبيعة إندونيسيا الجبلية، وجوها اللطيف دائما وإن مال بالجبل إلى البرودة، وسمائها الممطرة دائما، وعن الزراعة وأنها الأرز والموز والشاي والقرنفل- وعن عادات العائلات ولا سيما في قبيلته هو، وأنها إكبار الوالدين إلى حد التقديس، بحيث لا يستطيع الولد أن يتحول عنه منصرفا، بل يتقهقر إلى الوراء!

وصلنا إلى تلكوم، فأقبلت على غرفتي أتحمم، وأتجمَّل للافتتاح، ثم نزلت إلى العشاء بالمطعم الذي كان بمبنانا نفسه، فوجدت الدكتور قرني والدكتور حسن بملابس خفيفة، خارجين وعليهما أثر الغداء:

- إلى أين؟
- نلبس للافتتاح.
- ما أذكاكما! هذا أفضل.

دخلت إلى المطعم فوجدت عن يساري طعاما متواضعا جدا على مائدة صغيرة، لا أعرف فيه شيئا مُشَهِّيًا؛ فوقفت عليه مع الواقفين مضطرا، فجاءني المضيف ينبهني بالإشارة وقليل من الإندونيسية المشوبة

بالإنجليزية والعربية، على أن طعامنا بناحية أخرى:

- سيدي، عربي هناك!

لم أفهم غير إشارته؛ فذهبت مستبشرا، فإذا طعام أفضل قليلا: شَرائِحُ بطاطسَ كبيرةٌ سَميكَةٌ قليلا مَقْليَّةٌ (شِبْس)، وأرز، ولحم، وشربة خضراوات، وسلطة، ومياه، ويوسفي، نِعْمة كبيرة!

بهرتني شرائح البطاطس، فاستكثرت منها، ثم أقبلت بعد يوم كامل لم أكد آكل فيه، ولم أتعش قبله، على رغم استغرابي نكهة الطهو؛ فلم أتجاوز بشرائح البطاطس القطعة الواحدة؛ فقد صَدَّني سَهَكُها (رائحتها السَّمَكيَّة الخاصة)، لِأَعْرِفَ مِنْ بعدُ، أنها أرغفة خبز يختلط فيه طحين الحبوب المعروف لدينا، وطحين الجَمْبري المجفَّف!

ثم ذهبت إلى حيث افتتاح المؤتمر، فتلقفنا أعضاء اللجنة؛ يطالبوننا بدفع الاشتراك، وقد تفاوت ما علينا؛ إذ قد أُدْخِلَ في التقدير حق الفندق عن زيادات الإقامة، وكان منا من حضر مبكرا كالدكتور كمال عبد العزيز، ومنا من حضر متأخرا كمثلي، فرأيت فتاة اللجنة تطالب الدكتور كمال بمئة وسبعين دولارا، فيستفسر، ثم يدفع، ولم أنتظر أن تطالبني بأكثر من المئة والخمسين المتفق عليها، فبادرتها إلى التنبيه على موعدَيْ وصولي ورحيلي، لتنتبه إلى قصر إقامتي؛ فطالبتني بمئة وعشرين فقط، وأعطتني شيكا بالمبلغ مكتوبا بهيئة غريبة كهيئة المئة والخمسين؛ فقدمت لها مئة الدولار المختومة التي مَنَعَتُ منها البنك أن يَبْخَسَها،

وأضفت إليها آلاف الروبيات مما غَيَّرْتُه ولم أنفقه بعد، وأخذت من إحدى زميلاتها حقيبة المؤتمر.

أخذت مكاني من حفل الافتتاح بقصر تلكوم، وتفقدت حقيبة المؤتمر؛ فإذا برنامج الجلسات خال مني ومن بحثي، وإذا حال بعض الأساتذة المشاركين حالي؛ فاشتكيت إلى الأستاذ أجوس سلام، فسألني عن الجلسة المناسبة، فأخبرته، فأضاف إليها اسمي، ثم وعدني أن يُعَدَّلَ البرنامج صباح غد، وقد كان ما وعد.

بدأ الحَفْلُ؛ فإذا شابان فتى وفتاة، يقدم أولا الفتى فقرات الحفل بالعربية، وتترجم ثانيا الفتاة كلامه إلى الإندونيسية:

١ كلمة الحق -سبحانه، وتعالى!- للحاج محمد علي، قارئ القرآن، الذي صَيَّحَ على طريقة قراء السرادقات المصريين، في أوائل سورتي العلق ثم يوسف، ولكنه أبدل خطأً، من حروف أوائل سورة يوسف التي هي "ألر"، حروفَ أوائل سورة البقرة التي هي "ألم"، ولم ينتبه أيٌّ أحد!

٢ كلمة لجنة المؤتمر للدكتور دودنج رحمت هدايت، رئيسها، الذي عبر بالعربية عن سعادته باكتمال المؤتمر، وأثنى على المشاركات الداخلية والخارجية، وعلى التمسك باللغة العربية، أحسن اللغات.

٣ كلمة " اتحاد المدرسين للغة العربية (IMLA)"، للدكتور محمد

لطفي زهدي، رئيسه، الذي عبر بالإندونيسية ثم العربية، عن مكانة اللغة العربية الكبيرة في إندونيسيا، التي تكبر يوما فيوما، وأثنى على جهود المشاركين من الباحثين والموظفين.

٤ كلمة " جامعة باندونج التربوية (UPI)"، لنائب مديرها، الذي عبر بالإندونيسية معتمدا على مترجم، عن مكانة جامعة باندونج التربوية بين الجامعات الإندونيسية، ومكانة اللغة العربية في جامعة باندونج، وسائر معاهد التعليم بإندونيسيا، وفي العالم كله، وعن سعادته بالحاضر العربي النشيط الذي يظهر في مثل فضائية الجزيرة، وعن تمنيه أن تتمكن اللغة العربية من العلوم والآداب كما كانت دائما. ومن طرائف ترجمة المترجم الفوري إلى العربية، أنه تعثر في كلمة؛ فضحج لها الإندونيسيون ضحكا، إلا الوافدين الذين لم يعرفوا لها قَبيلا مِنْ دَبير، فلما خرجنا سألت فيها الأستاذ أوجوس سلام، فابتسم ذاكرا أنها كانت طرفة سياسية؛ خلط فيها المترجم بين اتجاهات السياسيين!

٥ كلمة الدعاء، للدكتور مامات زين الدين، الذي جمع طائفة من الأدعية النبوية الشريفة، المشهورة لدينا في القنوت وفيما بعد ختام القرآن الكريم؛ فلم يملك لجلالها بعض الحاضرين، غير رفع الأيدي بالتَّأْمين!

٦ فاصل موسيقي غنائي مسجل، استغربت أن يستسيغوه مع روح

الابتهال العالية، التي نشرتها الأدعية النبوية الشريفة -ربما كان من معالم التدين الأَعْجَمي- لمجموعة مصرية تغني صوت فريد الأطرش على ما أظن "يا حبايبي يا غايبين"، في انتظار فرقة الإنشاد الطلابية، فلم تأت؛ فاعتذر عن عدم استعدادها المقدمان.

٧ كلمة الثقافة الإسلامية الإندونيسية للدكتور هدايت نور وحيد، الذي عبر عن أَهَمِيَّةِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ في صِياغَةِ الْفِكْرِ الْإِسْلامِيِّ الْوَسَطِيِّ الْمُعْتَدِلِ؛ ففاجأنا جميعا بعربيته الصحيحة الفصيحة، وأفكاره العالية المنظمة، وأدهشنا؛ حتى كتبت في التعليق عليه: لَوْ كُنْتَ مَعي بِرَوْضَةِ مِصْرَ الْعَتيقَةِ حَيْثُ أُقيمُ، لَغَسَلْتُ عَنْ رِجْلَيْكَ! ثم أفردت كلمته وحدها بالتسجيل الكامل، والتفريغ الكتابي، وشيء من الضبط اللغوي التكميلي، إجلالا لاجتهاده، ثم نشرتها وحدها على الملأ:

"بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.

أما بعد؛

فأحييكم جميعا أيها الحضور الكريم تحية طيبة مباركة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

أولا كلنا نهنئكم جميعا بعقد هـذا المـؤتمر وهـذه النـدوة العالميـة، وندعو لكم دعوة خالصة بنجاح هذه الدورة، وهذا المؤتمر! كذلك طبعـا نحن نرحب بجميع الإخوة المشاركين، سواء كانوا من خـارج إندونيسـيا من السعودية من مصر مـن الـيمن ومـن دول إسـلامية أخـرى كماليزيـا وتركيا، ولا يفوتنا كذلك طبعا تقدير الإخوة أعضاء اتحاد مـدرسي اللغـة العربية، الذين حضروا العام وشرفونا بعقد هذه الندوة، وسعوا من أجـل تحقيق نجاحها.

وفي الواقع ليس علي أن أقوم في هذه المنصـة، ولـيس لي الحـق في إلقاء هذه الكلمات، لأنني أعرف أن أمامي أساتذة دكاترة متخصصـين في اللغة العربية تعليما وبحثا وتعميقا وتعمُّقًـا كـذلك، وكـما يقـال في الفقـه الإسلامي قاعدة إسلامية معروفة معتبرة "لا يُسْتَفْتى ومالك في المدينة"! وكلكم -ما شاء الله!- أئمة وملوك! وأغنياء عن التعريف، وأغنيـاء عـن مثل هذه النصائح التي سألقيها أمامكم؛ فـ"إذا وُجِدَ الماء في الواقـع بَطَـلَ التيمم"!- ولكن أستاذنا الفاضـل رئـيس النـدوة واتحـاد مـدرسي اللغـة العربية، الأستاذ الدكتور محمد لطفي زهدي، شَرَّفَنـي بالمشـاركة في هـذه الندوة المباركة، وهو أخ عزيز كنت معه منـذ أن كنـت أدرس في الجامعـة الإسلامية بالمدينة المنورة، وإلى الآن بيني وبينه علاقة قويـة؛ فلـيس لي بـد من أن أقبل تكليفه لي وتشريفه في الوقت نفسه، بالمثول أمامكم مـن أجـل

إلقاء هذه الكلمة حول اللغة العربية وأهميتها، ولا سيما في صياغة الفكر الإسلامي المعتدل، والفكر الإسلامي الوسطي.

لماذا هذا الموضوع بالذات؟

كلنا نعلم أن اللغة العربية هي لغة القرآن، والآيات القرآنية هي التي أخبرتنا بأن هذه الأمة "أُمَّةً واحِدَةً"، و"أُمَّةً وَسَطًا"، فإذا كانت اللغة العربية وعلاقتها بالقرآن الكريم، أعطت صيغة معينة لهذه الأمة، لها سمة بهذه الأمة، فإن السمة الأساسية هي كونها وسطا أو وسطية، وهذه الوسطية في الواقع كما أن لها علاقة باللغة، في الواقع في نظري تتعلق كذلك بناحية التخيل الذي هو تخيل إسلامي وسطي، وتتعلق كذلك بالحياة الإنسانية الوسطية، لأن مصطلح الوسط في الواقع ليس مصطلحا يمكن أن يقبل على أنه مصطلح ديني إسلامي فقط، ولكن كذلك يمكن أن يفهم على أنه مصطلح إنساني عالمي مقبول لدى جميع الإنسانية.

هناك مقولة في الفكر الإسلامي معروفة لدى جميع الدارسين للفكر الإسلامي، وهي أن العادة مُحَكَّمَةٌ أو مُعْتَبَرَةٌ، أو كذلك ما يتعلق بقدسية العُرْف، وكذلك ما يتعلق بقدسية الاجتماع، فهذه القواعد كلها تنبئنا بشيء أساسي هنا، وهو إمكانية اللقاء بين ناس وناس آخرين، بين أمة وأمة أخرى، بين منتسبين ومنتسبين آخرين، بين مسلمين ومسلمين آخرين.

وعلى ذلك فنحن نعيش الآن في العـالم، حيـث إن هنـاك ترويجـا للضغط على الوسطية، للضغط على الذين يعيشون بهذا الدين، هنـاك مـا يسمى بحركة الإرهاب، هناك ما يسمى بحركة الانغلاق وعدم الاتصال بالآخرين، وهذه التهم في الواقع تهم مُلَفَّقَة، وليس لها رصيد من الصـحة في الواقع الحقيقي إذا قرنت بما هو المطلوب قرآنا وإنسانا، ولكن هذا هـو الوضع الذي نعيشه الآن، والذي يلقاه الإسلام، وكلنا نذوق مـن مـرارة هذه التهم.

ونحن كلنا أمة إنسانية أمة إسلامية، كُرِّمْنـا بهـذه اللغـة العربيـة، كُرِّمْنا كذلك بهذا الوحي القرآني المحمدي، وإذا ظهر ذلك فـإن الله -عـز وجل!- قد سهل لنـا طريـق العقيـدة، مـن أجـل تفهـم القـرآن، واللغـة العربية، من أجل تطبيقها في مجالات الحياة المتعددة؛ وعـلى ذلـك أنـا أرى أننا إذا أردنا أن نحيـا بـالفكر الإسـلامي الوسـطي، أو بـالفكر الإنسـاني الوسطي، فاللغة العربية هي من الإبواب الرئيسية التي عن طريقها ندخل إلى تفهم حقيقة الحيـاة وحقيقـة الوسـطية، ولا سـيما إذا عـدنا نحـن إلى القرآن؛ فسنجد أن القرآن هو ذلك الكتاب الذي ليس كتابا وَحْيِيًّا آخِـرًا، آخر ما نُزِّلَ على رسل الله -عز، وجل!- فقـط، ولكنـه مـع ذلـك كتـاب عربي مبين، يأتي لنـا بكثـير مـن الأوصـاف الأساسـية، مـن أجـل الحيـاة السعيدة بين أمة وأمة، وبين الأديان الثلاثة.

وإذا جئنا نحن إلى إندونيسيا فسنجد أنها ليست هي هـذه الدولـة التي معظم سكانها مسلمون فقط، وليست كذلك هي هـذه الدولـة التـي مورِسَتْ فيها كثير من المفاهيم من أجـل فهـم القـرآن، ومـن أجـل فهـم التدين، ومن أجل فهم الحيـاة كـذلك- بـل سـنجد أن هنـاك كثـيرا مـن المذاهب ومن المدارس ومن الاتجاهات، يحاول أصحابها أن يفرضوا علينا فهمهم الخاص عن طريق تفكيرهم الخاص الـذي أقحمـوه عـلى الآيـات القرآنية.

من آخر ما سمعنا أن هنـاك بعـض النشـطاء في بعـض المـذاهب الفكرية في إندونيسيا -وقد تكون هذه المذاهب معروفة ومنتشرـة خـارج إندونيسيا- قد قالوا بأن القرآن ليس وحيـا إلهيـا، إنـما هـو عمـل جمـاعي يشترك فيه كل من الله -عز، وجل!- وجبريل -عليه السلام!- ومحمـد -صلى الله عليه، سلم!- ويستدلون على هذه المقولة بالآية القرآنية "إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَه لَحافِظونَ"!

قال هذا المفكر الإندونيسي: إن النص القرآني يـأتي بهـذه الصـيغة "إِنّا نَحْنُ"، "إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَه لَحافِظونَ"، هذه الصيغ كلها هي جماعية، هذا على قدر فهمه هو، دليل قاطع بأن القرآن ليس عملا آحاديا، وحيا من الله - عز، وجل! - نزل إلى رسوله -صلى الله عليه، وسلم!- بل عمل يشترك فيه كل مِنَ الله، وجبريل، ومحمد، صلى الله عليه، وسلم!

ماذا يريدون أن يصلوا في النتيجة الأخيرة؟

إنما جاؤوا بهذا الفهم القاصر ليقولوا إن هذا القرآن عمل إنساني، ليس عملا مقدسا إلهيا، وبما أن القرآن عمل إنساني يشترك فيه كثير من الناس بعد رسول الله، يشترك فيه الصحابة يكتبون ويسجلون، ثم بعد ذلك ينشر على جميع العالم الإسلامي مطبوعا، ويشترك في هذه العملية عُمّالُ الطِّباعة المشتركون في العملية الطباعية، ثم كلنا نحن نشترك في نَقْل هذا القرآن!

يريدون أن يصلوا إلى أنه إذا كان هذا القرآن عملا إنسانيا، يعني ذلك أنه خاضع للزمان وللمكان، خاضع كذلك للتفسير الزماني والمكاني، خاضع كذلك لئلا يرجع إليه نهائيا ما دام عملا إنسانيا كغيره من الأعمال الإنسانية!

ولكن بفضل الله كما ثبت سلفيا، لا يُمَكِّنُ الله -عز، وجل!- أية محاولة تحريفية، من تحريف القرآن والتأويل، بل يقيض الجهابذة الذين يَتَوَلَّوْنَ التصحيح، ويوضحون المفهوم الصحيح تجاه هذه الأمور التي حاول الخبثاء الجهلاء المدعون تحريفها، وحاولوا كذلك تَعْوِيجَها، من أجل يصلوا إلى نتيجة هي في الواقع نتيجة غير صحيحة.

هناك مَنْ يُفَنِّدونَ في الواقع مثل هذه المقولة الخاطئة؛ فَيَسير فَهْمُ القرآن في مَجْراه الصحيح.

<u>ولكن كيف يعرف أن هذا الفهم صحيح أو غير صحيح، وسطي أو غير وسطي، إنساني أو غير إنساني؟</u>

في الواقع التعرف عن طريق اللغة العربيـة، والعـودة إلى الكتـب المعتبرة في اللغة العربية، هي خير معين وخير مسـاعد للوصـول إلى مثـل هذا الفهم الوسطي الصحيح.

ولكي لا يستطيع الناس والدارسون، ولا يتمكنون من العودة إلى مثل هذه الأساليب الصحيحة المعتبرة، والفهم الوسطي لمثل هذه الآيـات القرآنية، إلا عن طريق التعلـيم والتـدريب، ولا يمكـن أن يكـون هنـاك تعلـيم وتـدريب صـحيحان، يمكـن عـن طـريقهما الوصـول إلى نتـائج صحيحة- إلا عن طريق المدرسين والمعلمين، الذين لهـم هـذه القـدرات العملية على المستوى الرفيع، من أجل التعلم الصحيح والتدريب البـارع، في توصيل هذه المفاهيم الصحيحة الوسـطية إلى جميـع الدارسـين، ثـم إلى جميع المتعلمين، ثم إلى جميع المسـلمين، ثـم عـن طريـق الفهـم الصـحيح والعمل الصحيح من المسلمين، تصل هذه المفاهيم القرآنية الصحيحة إلى جميع الناس.

ومن أجل مظاهر من سوء فهـم القـرآن، متعلقـة بالشـكل غـير الوسطي، وبالشكل الإرهابي، وبالشـكل الانغلاقـي- قـال خصـومنا إن التاريخ القرآني تاريخ تشددي، تاريخ غير وسطي- واستدلوا عـلى ذلـك بأن ما جرى في المجتمع الإسلامي، هو هذا الفهم المغلق، هو هـذا الفهـم غير الوسطي.

إن من الصعب جدا علينا أن نقول لهم إن المقبول عالميا والمقبـول منطقيا، ليس ما فُهِمَ خطأ عن التدين، عن الدين، عن لقائنا، عن العلم - بل المفهوم منطقيـا وعالميـا، هـو المفـاهيم الأساسـية المقبولـة والمؤكـدة والثابتة، التي عن طريقها يعرف الناس الذي نريد نحـن أن نفهمـه. فـإذا رجعنـا إلى هـذه القاعـدة فسـنجد أن حقيقـة القـرآن وعلاقتهـا بالعمـل الإسلامي والعمل الإنساني، ليست هـي ذلـك الفهـم المعـوج والخـاطئ حول القرآن، ولكن أن نعلم:

كيف يفهم رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- القرآن؟

كيف يطبق القرآن؟

كيف يعلم القرآن لأصحابه؟

كيف عن طريقه نجح رسول الله -صـلى الله عليـه، وسـلم!- في صياغة الفهم الإسلامي المعتدل، الفكر الإسلامي الوسـطي، وتصـحيح الأفكار المنحرفة، الأفكار المتشددة، الأفكار المتطرفة؟

كيـف صـحح مفـاهيم بعـض أفكـار الـذين جـاؤوا إلى بيـوت أزواجه، يسألون عن كيفية تعبد رسـول الله -صـلى الله عليـه، وسـلم!- وكانوا يطبقون مفاهيمهم الخاصة؟

لما علم رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- ما حصل، سرعان ما ذهب إليهم، ودعاهم إلى تصحيح مفاهيمهم وتصحيح فكـرهم، وأقسـم

بالله: "أَما وَاللهِّ، إِنِّي لَأَخْشاكُمْ للهِّ وَأَتْقاكُمْ لَه، لكِنِّي أَصومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ مِنّي"!

عن مثل هذه الحادثة وعن مثل هذا الحديث، أرانا رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- كيف يفهم الإسلام، وكيف يفهم القرآن، وكيف يعلم القرآن لأصحابه، وعن طريقه يصحح بعض الأخطاء التي قد تحدث من الأفكار ومن الأفهام، وكلنا نقتدي برسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- في فهمنا للقرآن، وفي فهمنا للغة العربية، وفي تعليمنا وتعلمنا للغة العربية، وعن طريقه كذلك -إن شاء الله- سنستقبل النجاحات في تعميم هذه الأفكار الإسلامية المعتدلة، ودحض تلك المحاولات الآثمة التي تأتي بالمفاهيم القرآنية غير الصحيحة، التي عن طريقها تكون المفاهيم غير الوسطية، وإن تكفل الله -عز، وجل!- بحفظ القرآن، وبوسطية فهم القرآن، وبالأمة الوسط، كما هو محفوظ في القرآن الكريم.

وجزاكم الله خيرا كثيرا على هذه المناسبة الكريمة، وجزاكم الله خيرا على مشاركتكم في هذه الندوة!

وإذا عقدت هذه الندوة هنا في مدينة باندونج، وكلكم فيما أعتقد -ولا سيما الأساتذة المشاركون الذي جاؤوا من الدول العربية الإسلامية، ومن الدول المجاورة- تعرفون أن هذه المدينة، هي المدينة التي عقد فيها حفل توقيع مؤتمر باندونج، وهو المؤتمر الذي عن طريقه نشأت إيحاءات استقلال الدول الإسلامية، والدول العربية، وغيرها - فأدعو الله - عز،

وجل! - أن تظهر بعد هذه الندوة إيحاءات أخرى، من أجل انتشار اللغة العربية وتعليمها وتثقيفها، وكذلك انتشار الفهم الوسطي للإسلام والقرآن!

وجزاكم الله خيرا كثيرا! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

٨ كلمة الدكتور عبد الرحمن بن جميل القصاص، في بحثه عن "توظيف لغة القرآن الكريم في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها"، الذي تمنيت أن يُفَصِّلَ تأثير لغة القرآن الكريم أصواتا وصيغا ومفردات وتراكيب، في تعليم اللغة العربية أصواتا وصيغا ومفردات وتراكيب– وعجبت أن يُسَفِّهَ من كلام العرب الجاهليين شِعْره ونَثْره، رفعا لمكانة القرآن الكريم وهي رفيعة، وكلامهم نفسه من مراجع تفسير القرآن الكريم– واستنكرت أن يجعل أئمة العربية من غير العرب، وإنما العربية اللسان والتفكير؛ فمن تكلم العربية وفكر بها فهو عربي، وأي عربي أحسن عروبة من الدكتور هدايت نور وحيد!

٩ كلمة فرقة الإنشاد الطلابية، لطالبتين، لا ريب في أنهما بتخصص اللغة العربية، ولكنهما -ولله الحمد كله!- تأخرتا عن موضعهما العجيب بعد الدعاء لعدم استعدادهما! قعدتا على أرض المسرح، وضربت إحداهما بعودين على آلة مسطحة، مرصوصة القطع المعدنية المتفاوتة الأحجام، شبيهة بالتي كنا نستعملها بمدرسة

شجرة الدر الابتدائية، من مدينة بني سـويف بصـعيد مصرـ، في موسـيقا طـابور الصـباح وحصـة الموسـيقا!– وغنـت الأخـرى بالإندونيسية غناء بطيئا خاصا، ربما كان من المعاني الإسلامية!

١٠ كلمة الشاي والقهوة، وقد أُخِّرَتْ إلى مـا بعـد نهايـة الاحتفـال، وكانت بغرفة خلفية، صُفَّتْ فيها المناضد عليها أنواع من الطعـام الخفيف، وخَزّان مياه سُخْنة، وأكواب، وأكياس شاي، وليمـون. وقـد عرفـت أن الإندونيسـيين يبـدلون الليمـون مـن الشـاي، ويفضلون عليه كذلك الأعشاب المُقَوِّية!

بغرفة الشاي هذه لقيت الأستاذ الماليزي الدكتور صوفي بن مـان الأمة، الذي أطلعني سعيدا على أن اللغة العربية صـارت مقـررا إجباريـا ببلاده، وأنـه كـان ممـن عملـوا عـلى ذلـك بـوزارة التعلـيم – والأسـتاذ الإندونيسي تولوس مصطفى، رئـيس فـرع رابطـة الـدعاة الإندونيسـيين بجوجا كارنـا مـن ولايـة جـاوة، الـذي كـان عـلى علـم واسـع بمصرـ والمصريين وجامعة القاهرة وكلية دار العلوم، فأنست له:

- ما ألطف اختياركم رمز اتحاد مدرسي اللغـة العربيـة (IMLA)؛ فنطقه دال بالعربية على " إِمْـلى"، مقصـور " إِمْـلاء"، المصـطلح العربي على ظواهر لغوية عربية مختلفة علما وتعليما!
- صحيح صحيح!

ثم حدثتـه عـن إعجـابي بالـدكتور هـدايت نـور وحيـد، الـذي

حرصت على السلام عليه، والدعاء له قبل أي أحد، ثم رأيت الإندونيسيين يسرعون إليه، ويقبلون يده، وغيرهم يتهللون له، ويعبرون عن إعجابهم به؛ فأطلعني على مكانته الكبيرة بإندونيسيا والعالم الإسلامي كله:

- إنه رئيس مجلس الشورى، إن بإمكانه أن يعزل الرئيس الإندونيسي! ثم إنه نائب الدكتور يوسف القرضاوي باتحاد علماء المسلمين العالمي -ولكنني نفى لي هذه النيابة، في أكتوبر من ٢٠٠٧م، الدكتور وصفي عاشور، أحد تلامذة الدكتور يوسف القرضاوي!- ثم إنه مؤسس رابطة الدعاة الإندونيسيين التي أرأس أحد فروعها، بل مؤسس كثير غيرها من الجمعيات والمؤسسات الإسلامية.
- عن طريقك إذن أحب أن أعرفه أكثر.
- لدينا مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية، بالعربية والإنجليزية؛ فهل تشاركنا فيها؟
- ولكن أبحاثي في علوم العربية وآدابها!
- لا بأس!
- إذن أرسل إليك بحثي لهذا المؤتمر!
- لا بأس، أهو مجهز لنقله إلى فلاشي.
- هات فلاشك آتك به غدا وعليه البحث.

كنا نتكلم مبتهجين بحقيقة الأخوة التي بيننا على ترامي أبعاد المسافات، ونأكل معا، وأشرب أنا الشاي الأحمر، ويشرب هو الليمون بالماء السُّخْن؛ حتى اكتفينا، وتركته على الوعد بالبحث على فلاشه.

وفي غرفة الشاي لقيت كذلك الأستاذ منذرا، السوداني الفاضل، معلم اللغة العربية، المتزوج من باندونجية أول ما تزوج:

- سبحان الله، كيف ائتلفتما!

(هِيَ شاميَّةٌ إِذا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذا اسْتَقَلَّ يَماني)!

- سبحان الله! مُسْلِمان، عَرَفَتْ من العربية، وعَرَفْتُ من الإندونيسية؛ فلم لا نأتلف!

- أنجبتَ منها؟

- ثلاثة أبناء.

- وكيف وجدتها؟

- خير زوج، فالإندونيسيون طيبون.

- ولكن تقاليدكما مختلفة!

- كان الأمر أسهل منه في السودان.

كنت أكلمه ممتلئا عروبا وإسلاما، مكتسيا تودده خالصا؛ حتى استأذنته، وخرجت؛ فإذا مَعْرِضٌ قريب: كتب وأقراص وأشرطة، في تعليم العربية والإسلام، وملابس على وَفْقِ قِطَعِ زيِّهم الثلاث: العليا والوسطى والسفلى- فأقبلت أتفقد شيئا أشتريه لأسرتي، فإذا منذر خلفي

يبتسم قائلا:

- هي على أحجامهم، غير مناسبة لأحجامنا!
- معقول!
- وأنا حين أشتري لأهلي بالسودان، أبحث عن قطع بالحجم العائلي!
- فكيف أفعل؟
- تذهب إلى سوق البلد.
- أهي قريبة؟
- تركب لها مسافة قصيرة، وتنبه السائق على اسم المكان فقط.
- وفي الإياب؟
- هذا الإياب هو المشكلة، لأنك لا تركب من المكان نفسه، بل تمشي إلى مكان آخر.
- يا ربي!
- أستطيع أن أصحبك، وبيتي قريب.
- أكرمك الله! ولكن متى نذهب؟
- وقتكم غدا مشحون حقا!
- إما أن نذهب بين الجلسات أو بعدها؛ فسأرحل صباح السبت.
- انتبه إلى التاسعة مساء، موعد إغلاق المحال!
- لا حيلة إلا أن أضيع بعض الجلسات؛ فهي تملأ الوقت كله، إلا

وقت صلاة الجمعة! لا بأس، ألقاك غدا.

- ولابد أن تبكر إلى الحافلة التي ستقلك إلى مطار جاكرتا؛ فلا تضمن أثر الزحام نهارا!
- أتحرك لها إذن في السابعة صباحا؛ هذا أحسن.
- أندي...، أندي...، كيف حالك؟
- الحمد لله!
- أسافر صباح السبت؛ ينبغي أن أكون الثانية عشرة في مطار جاكرتا، والحافلة التي زعمت أنها لا تأخذ من جاكرتا إلى باندونج، غير ساعتين، أخذت ليلا أربع ساعات! والنهار أشد ازدحاما؛ فكيف سيكون الأمر؟
- تتحرك حوافل مطار جاكرتا من عند متجر باندونج الكبير، كل ساعة؛ فماذا ترى؟
- ينبغي أن ندرك حافلة السابعة؛ لا نعرف كيف سيكون الازدحام!
- سأنبه على محمد فؤاد، أن يأتيك في الموعد -إن شاء الله- لينتقل بك إلى هناك.
- أحسنت، بارك الله فيك! ثم لدي مشكلة أخرى!
- خير، إن شاء الله؟
- لم أُطَمْئِنْ أسرتي بعد؛ فهلا عثرت لي على من يصحبني إلى مكان

أكلمهم منه!

- أستطيع أن أوصلك بدراجتي البخارية، ولكن هذا المكـان نفسـه مركز اتصالات!

- انتظر قليلا حتى أرى لك.

ذهب أندي هادي بعدما اضطره كَرَمُ منذر، ثم ناداني إلى مجموعة من لجنة المؤتمر، فسلمت عليهم، ثم أعطاني محمولا من محاميلهم:

- محمول مَنْ هذا؟

- محمول اللجنة!

فشل الاعتماد على هذا المحمول، فعثـر عـلى محمـول آخـر ظننتـه محموله:

- وهذا؟

- كل محاميلنا ملك اللجنة!

ضحكنا أنا وهو واللجنة المتحلقة، ثم ظهرت لنا مشكلة ضرورة فتح الخط الدولي –وليس عندنا مثل هذا النظام– فكلم التحويلـة، حتـى عرف رقم الفتح، ثم كلمت أبي وأمي، فتبدد قلقهما، ولم أكد أبـدأ؛ حتـى اضطرب التواصل، فاستقر، فاضـطرب؛ فأحسسـت ألا حاجـة بي، ولا بهم، ولا بأندي واللجنة– إلى أكثر من تَحيّات حَياتي!

- شكر الله لكم! أنـدي، بـالله، أرجـو ألا يتـأخر محمـد فـؤاد عـن السابعة!

- إن شاء الله!

ذهبت إلى غرفتي، وفتحت حاسوبي، وصليت المغرب مع العشاء جمعا وقصرا، ونسخت البحث إلى فلاش الأستاذ تولـوس مصـطفى، ثـم وصلت فلاشي المُسَجِّلَ لشحنه، ثم ضبطت منبه محمـولي لصـلاة الفجـر، وفتشت في التلفاز عن شيء، ثم مللت القنوات والإرسال؛ فأغلقـت كـل شيء، وأطفأت النور، وتناومت حتى قمت لصلاة الفجـر، ثـم تناومـت حتى قمت للخروج.

تجهـزت، وذهبـت للإفطـار، وانتحيـت جهـة مكاننـا السـابق، ووجدت خبز الجمبري والأرز واللحم والسلطة، فأصبت مـا تَيَسَّرَ، ثـم سعيت إلى قصر تلكوم، فلقيت في طريقي الأستاذ يسرينج سنوسي باسو، من جامعة حسن الدين، بولاية ماكاسار، شابا فتيا، وسـيما قسـيما، مـريح الملامح:

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام!

مضينا معا؛ حتى إذا قاربنا قصر تلكوم، ولم أكن أحفظ المـدخل، أشرت له أستشيره:

- نميل؟
- نميل إلى، أم نميل على؟
- بل نميل إلى!

دخلنا، ولم أنتبه إلى تَوْزيع الجلسات على قصر تلكوم وعلى غرفة الشاي؛ حتى أوشكت أن أفرغ من الجلسة الأولى؛ فإذا مدير الجلسة التالية، الذي عرفت منه أن جلستي بغرفة الشاي، وهي أصغر من هذا المسرح طبعا- وأندي هادي، الذي احتجت إليه؛ فكلفه مدير الجلسة التالية أن يأخذني إلى جلستي، فذهبنا، ووجدنا السابقة عليها، قائمة لم تنته بعد، فعدت إلى حيث كنت، وتَعَهَّدَ أندي أن ينبهني إذا انتهت.

استمعت في هذه الجلسة الأولى بقصر تلكوم، إلى الدكتور عباس عبد الحليم، يتكلم في "ملامح التفكير الأسلوبي في البلاغة العربية"، وكان كلامه مألوفا- ثم إلى الدكتور زياد الزعبي، يتكلم في "تأثير شعر الغزل العربي في الشعر الألماني في العصور الوسطى"، وكان كلامه طريفا لطيفا- ثم إلى الدكتور عارف كرخي أبو خضيري، يتكلم في "النصوص الأدبية في منهج الأدب العربي للطلاب غير العرب في المرحلة الجامعية: دراسة نظرية تمهيدية"، وكان كلامه طريفا لطيفا- ثم إلى الدكتور حسن عبد المقصود، يتكلم في "استخدام القصص الفكاهية في تعليم اللغة العربية لغير العرب"، وكان كلامه مألوفا- ثم إلى الدكتور قرني عبد الحليم، يتكلم في "قراءة نقدية في ديوان فلامنكو للشاعر عارف كرخي أبو خضيري"، وكان كلامه في زميله دليلا مثيرا على ظهور فضل الدكتور عارف، علما وفنا!

ثم ذهبت عن هذه الجلسة إلى جلستي، لأجد شباب الأساتذة

الذين اشتغلوا في رحلة الحافلة ذهابا وإيابا بالتعارف والمزاح والإحماض، ظـاهرين عـلى الجلسـة بمِـراحِهم وجُـرأتهم بمكانـة بلادهـم في نفـوس الإندونيسيين، يستطردون إلى أفكار غير متمكنة في مسائل المؤتمر!

اشتملت الجلسة على ثمانية متحدثين، ولم تتسع منصتها إلا لأربعة منهم؛ فكانوا يتتابعون إليها واحدا واحدا!

نبه أندي هادي الدكتور أحمد مـرادي، الأسـتاذ بجامعـة جـاكرا الحكومية، مدير الجلسة، على مشاركتي، فرحب بي، فصـعدت، وقعـدت صامتا متلددا، بجوار الأستاذ الماليزي أبو سعيد محمد عبد المجيد، يـتكلم في "أساليب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها"، وكان قد أوجـز مـن بحثه، لوحات، على برنامج البوربوينـت الـذي جهـزت عليـه مثلـه، ثـم ذهب يقرأ ما في كل لوحة دون نقص ولا زيادة، صاحب القـراءة صـخبا وشديدا، وكأنما حُذِّرَ مِـنْ صَـمَمِ المستمعين! ولكـن أَشْـهَدُ لقـد كانـت فصاحة قراءته بالعربية إلا صَخَبَها، فوق فصاحة تَحَدُّثِ الدكتور هدايت نور وحيد، بها، ولكن أين تلك من هذه!

ثم جاءني الكلام وقد حضرت صلاة الجمعـة، فخـيرني الـدكتور أحمد مرادي، أنا والمستمعين بين الجلسة وبين الصلاة، على أن يكون الأداء سريعا إذا اخترنا الجلسة؛ فآثرنا الصلاة، لنـؤوب في الواحـدة والنصـف؛ فنُمَكَّنَ من الكلام كيف شئنا!

أوثر في جمعة السفر أن أصليها ظهرا وقصرا؛ فذهبت إلى غرفتي،

فـإذا هديـة مجانيـة عليهـا ورقـة بــ(FREE): شَرابُ الفانتـا، وتفاحـةُ الحمراء، وشيكولاتة البسكويت، وأصابع الشّيتُس!

أَيَّةُ سَحابَةٍ زاجِلَة، في مَفازَةٍ قاحِلَة!

صليت الظهر والعصر، ثم أكملت بالهدية إفطاري الغريـب، ثـم تناومت قليلا ضابطا منبه محمولي على نصـف سـاعة لا يُنْتَظَـرُ فيـه نـوم؛ فنمت حقا؛ فكانت هذه النومة، هدية ربانية، أهدى سبيلا، فقد صحا من قبلُ يوماي وليلتاي، وكنت مقبلا بعد دقائق على جلستي، فكان النوم من أوائل التوفيق!

توضأت على عادتي كلما خرجت من بيتي، ثم حثثـت خطـاي إلى مكان جلستي، فصادفت الأستاذ يُسرينج سنوسي باسـو، الـذي صـحبته صباحا، قد فتح حاسوبه المحمول:

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- كيف حالك؟
- الحمد لله!
- جلستك هذه القادمة؟
- لا، التي بعدها.
- وماذا تعمل؟
- أنا أُدَرِّسُ بالجامعة استخدام الحاسوب في تعليم اللغات ولا سيما

اللغة العربية، وأقدم بحثي في هذا الإطار.

- هلا أطلعتني على طرف منه!
- هكذا...؛ أصطنع الآن برنامجا يأخذ بيد المتلقي إلى فهم فروق ما بين متشابهات، تتفاوت سهولة وصعوبة، من خلال مواقف حاضرة كموقف افتتاح هذا المؤتمر مثلا؛ فهنا صورة يسأل البرنامجُ المتلقي عن شيء فيها، ثم يُقَوِّمُ له إجابته؟
- هذا عمل مهم، نتمنى أن نضيفه إلى مقررات كليتنا!
- ولكنني لا أجد العربي الذي أنهل منه حقائق العروبة ومجازاتها!
- هذه بطاقتي، راسلني إلكترونيا، أكن في خدمتك.
- عذرا؛ ليست معي بطاقاتي، ولكنني سأكتب لك بريدي على ورقة الاتحاد.
- خطك جميل بالإنجليزية وبالعربية!
- لا، بل خطي العربي قبيح، أتمنى أن أحسنه هو ومهاراتي العربية كلها؛ فالعروبة مهمة لنا كثيرا جدا.
- أكمل لي بيانات عملك.

قطع علينا الكلام حضور الدكتور أحمد مرادي مدير جلستنا، فانتقلتُ إلى المنصة أنا والثلاثة الباقون من جلستنا الثُّمانيَّة التي لم يتسع لها وقت ما قبل صلاة الجمعة، فانتهت عندي.

قدمني الأستاذ مرادي، فسَلَّمْتُ، وبَسْمَلْتُ، وحَمْدَلْتُ،

وسَبْحَلْتُ، وأقبلت أَهْدِرُ بشعر عبد السلام بن رغبان ديك الجن، وشعرٍ لي قديم، وأختدع المستمعين بدعوتهم إلى نقد النصين المتواردين؛ حتى أرى رأيي في تعابيرهم ورسائلهم، ثم هَوَّنْتُ عليهم الأمر، بأن هذا هو ما فعلته في بحثي، بطلاب السنة الأخيرة من تخصص اللغة العربية بكلية التربية من جامعة السلطان قابوس، ثم أطلعتهم على مُلَخَّص بحثي، ثم تَنَقَّلْتُ بين لَوْحات خُلاصات فُصوله، ثم بين لوحات نتائج خبرتي بالتعلم والتعليم، ثم بين لوحات منهجي في سياسة طلاب العلم، ثم بين لوحات تدرجي بالطلاب في مقامات فقه القراءة والكتابة، التي وضعتها تطبيقًا لمنهج سياسة طلاب العلم – حتى نبهني مدير الجلسة على الوقت!

ذهبت أقعد في مكان الدكتور جسوري محمد شمس الدين، الشاب الماليزي، الذي أراد أن ينتقل إلى أمام حاسوب الجلسة، ليجهز مادته – فمال علي الدكتور أحمد مرادي:

- بحثك جيد!
- أُرْسِلُه إليك، إن شاء الله!

وبعد قليل ملت عليه ببطاقتي وفيها بريد لي إلكتروني قديم، أضفت إليها خلفها بريدي الإلكتروني الحديث؛ عسى أن نتراسل بما يجمع بيننا على منهل ثقافي واحد.

قُدِّمَ الدكتور عرسان الرافيني بالجامعة الهاشمية بالأردن، فتكلم في "تدريس اللغة العربية: تحديث المنهج"، كلاما من بابة التيسير، غير

مـألوف، ثـم تكلـم الـدكتور مهـدي بـن مسـعود الأسـتاذ المـاليزي، في "اكتساب اللغة الثانية: الماليزي نموذجا"، كلاما طريفا لطيفا، وكان رزينًا محنكا ظريفا، ذكر في عوامل أخطاء الماليزي في اللغة العربية، اخـتلاف مـا بين خصائص لغته وخصائص اللغة العربية أحيانا، مـن مثـل عـدم تثنيـة المعدود، على اسمه مباشرة؛ فيقول: اثنان كراسة مثلا، لا كما يقول العربي: كراستان، ثم تمازح:

- ربما يقول العربي الآن: اثنان كراسة!

يومئ إلى ما يشيع الآن ببلاد الخليج العربية، فرد أحـد الأسـاتذة السعوديين الشباب:

- لا، يا دكتور، أخذناها منكم!

ثم تكلم الدكتور جمسوري محمد شـمس الـدين، في "صـعوبات تعلم اللغة العربيـة لـدى طـلاب العلـوم الإنسـانية (علـم السياسـة) في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا"، كلامًا طريفا لطيفا كذلك، فملت على الدكتور مهدي بن مسعود وقد أعطيته كذلك بطاقتي:

- تِلْميذُك؟

- بمنزلة تلميذي!

ولما تطاول وقت هذه الجلسة الثُّمانيَّة المنقسمة على قسمين: رباعي قبل الصلاة، ورباعي بعدها - اعتذر الدكتور أحمد مرادي عن عدم تمكنه من إتاحة وقت للمناقشة، لكيلا نجور على أوقات الجلسات الآتية، ودعا

إلى شراء كتاب المؤتمر بثمانمئة وخمسين ألف روبية، مَنْ أراد أن يتأمل أبحاثه، فأقبلت أفتش فيه عن بحثي، وفَرِحْتُ لِفِقْدانه!

انفضت الجلسة إذن، ولم أشتغل بحضور غيرها؛ فقد كنت مكروبا بسفر الغد، ولمّا أُجَهِّزْ هدايا أسرتي!

وصلتُ إلى غرفتي، فَنَضَوْتُ عني ثياب المؤتمر، وتخيرت للسوق ثيابا، ثم أقبلت أحث الخطا؛ فإذا قطر السماء الإندونيسية يتساقط خفيفا مليئا عريضا، يمس الأرض فيتفرطح وكأن القطرةَ حُبْلى قَطَراتٍ وَضَعَتْها حولي، ثم ثقيلا، ثم شديدا، ولم أنتظر اشتداده؛ فقد كنت بلغت جامع المورو صلاح بتلكوم، فدخلت ولم أُصَلِّ فيه من قبل، فصَلَّيْتُ تَحِيَّةً، ثم أَذَّنَ للعصر مؤذن لا أراه، فخَمَّنْتُ أنه مُسَجَّل، ثم خف القطر؛ حتى سكت؛ فذهبت عن الجامع؛ فقد كنت صليت العصر - مع الظهر جمعا وقصرا.

تَناسَيْتُ صحبة منذر، وتَذاكَرْتُ نصيحة الدكتور عبد الرشيد:

- إذا خرجت من تلكوم، فخذ يسارا؛ حتى تصادف المتجر الكبير.

خرجت من المُجَمَّع، وأخذت يسارا أخبط خبط عشواء، أتفقد المظاهر الغريبة، فلم أعثر على أي متجر كبير؛ حتى انتبهت إلى محل لوازم رياضية، أحسن حالا مما حوله، فدخلت، فحياني العمال بملامح وجوههم، وحييتهم، ثم فتشت لأولادي عن قطع ملابس وسطى وسفلى، وعن ألعاب، ثم حاولت أن أخرج بتخفيض، فلم أفلح مع

العمال الحاضرين، ولا مع العاملة العارفة شيئا من الإنجليزية لا العربيـة، التي أحضروها لي، إلا فيما كتب عليه التخفـيض مـن قبـل، فأخـذت مـا جمعته، وذهبت من بعد أن سألتها عن مكان المتجر الكبـير؛ فنبهتنـي عـلى ضرورة الركوب إليه.

ذهبت أماما، فلم أجد إلا المحال الإندونيسـية الخاصـة الغريبـة، من مثل المتاجر والمطاعم والمشاغل والنوادي، ومن النوادي نادي الشبكة العنكبوتية، الذي يخلع رواده أحذيتهم من قبل أن يدخلوه، ويقعدون على أرض مفروشة، أمامهم حواسيب على مناضد عالية!

وقفت زاهدا في الأمام، راغبا في سيارة تقطع لي مسافة ما مشيت، فلما وقفـت سـألت سـائقها عـن المتجـر الكبـير، فلـم يعرفـه، ورطـن لي بالإندونيسية، فقطعت الحوار بشكره وتركه يذهب بنظرات بعض ركابـه إلى الكائن الغريب فيَّ، ثـم أبـت ماشـيا في الشـارع الضـيق المزدحمـة فيـه سيارات الجهتين من دون أن يجور بعضها على بعـض؛ حتـى وصـلت إلى تلكوم، ثم تجاوزته يمينا، أمرُّ على مثل تلك المحـال الإندونيسـية الخاصـة الغريبة، حتى وصلت إلى الشارع الكبـير، فأخـذت يسـارا عـلى ظـن أنـه اليسار المقصود أصلا بنصيحة الدكتور عبد الرشـيد، مكروبـا بانعكـاس طريقة السير عندهم، حتـى وصـلت إلى جامعـة بانـدونج التربويـة التـي زرناها من قبل، وغَيَّرْنا مِنْ بنكها دولاراتنا.

وقفت عندئذ خائفا، راغبا في سيارة تقطع مسافة ما مشيت، فلـما

وَقَفَتْ سألت سائقها:

- تلكوم؟

فأشار لي بالموافقة، فركبت عن يساره، لأنه أوسع ما في السيارة المصنوعة على أجسامهم، مثلما صنعت ملابس معرض المؤتمر، التي أَنْذَرَني عَدَمَ ملاءمتها مُنْذِر!

اجترأت على تفقد الناس من شباك السيارة، فانتبهت أكثر ما انتبهت إلى طلاب المدارس الثانوية وطالباتها بأجسامهم النحيلة الصغيرة، وأزيائهم المتبرجة؛ حتى وقف السائق تحت لائحة التنبيه إلى تلكوم يمينًا، وأشار إلي أَنْ سيسير أماما، وطريقي أنا اليمين، فنزلت مشيرا إليه أَنْ كَمِ الأجرة، فقال ما لم أفهم، فلما رأى حيرتي، أخرج لي ورقة بألف روبية تساوي لدينا خمسين قرشا مصريا أو أقل، فأعطيته مثلها!

لم أستحسن أن أؤوب بما معي من مئات آلاف الروبيات، من قبل أن أنفقها فيما خرجت له، فذهبت أماما، ومررت كذلك على غرائب المحال الإندونيسية، وصادفت في جزيرة الطريق شابين يَسْأَلانِ بالغناء، على كوب نُحاس فيه بعضُ المال: واحدٌ يضرب على قيثارة، وآخرُ يغني غناء غَرْبيًّا، فلم أَسْتَحِلَّ أن أتصدق عليهما!

تقدمت قليلا، فعثرت على بائع حلوى، يحمل على ظهره عصا، يتعلق بها من طرفيها وعاءان بحبال مناسبة، يُذَكِّرُ بائع البوظة قديما بقريتنا، كان أحدهما مفتوحا، والآخر مغلقا؛ حتى يفرغ الأول- يُخْرِجُ من

الأول إلى طبق نحاسي مجهز، كُراتٍ بيضاءَ وحمراءَ، تعوم في شراب، ثم يقطر عليه من زجاجة، ما يشبه العسل، ومن أخرى، ما يشبه العصير!

ثم تقدمت قليلا، فعثرت على بائع خبز الجمبري، يَصُفُّه مُنَظَّمًا على ظهر مخزن عربته، وكأنه خبيز اليوم، لم يفرغ من بيعه بعد!

ثم تقدمت قليلا، فعثرت يسارا على مبان كبار أحسن حالا مما رأيت من قبل، فقطعت الطريق، ثم تقدمت لأدخلها الأول فالأول؛ فإذا متجر بقالة وأشياء أخرى، فدخلته، وجلت فيه أرى كيف ينظم مثله الإندونيسيون، فرأيتهم مثلا يتيحون لباعة منفصلين عنهم، أن يبيعوا أشياءهم أمام مدخله، ثم رأيتهم يقطعون أجزاء الدجاج، ويرتبون بعضها بجوار بعض على منضدة واحدة، يكاد لا يفصل بينها فاصل، ثم صعدت إلى فوقه، فرأيت امرأة في ثياب الحرس الرسمية اللطيفة، وأُمًّا ورَضيعَتَها مُحَجَّبَتَيْنِ بمثل ملابس معرض المؤتمر!

تفقدت الدور الثاني؛ حتى عثرت على جانب الأحذية المنزلية، وسيارات الألعاب الصغيرة، والأدوات الكتابية، فاشتريت منها.

ثم خرجت أتنقل؛ فإذا متجر ملابس أطفال، فدخلته، فنبهتني الحارسة على شيء، فلم أنتبه، ثم نبهتني مشيرة إلى أكياس مشترياتي أن أضعها في الأمانات، فانتبهت، ثم ذهبت أجول فيه، أميز الملابس المطلقة من شرط الأحجام والتقاليد الإندونيسية؛ حتى عثرت على قطع قليلة، بين غرائب كثيرة!

ثم خرجت أنتقل؛ فإذا مطعم بيتزاهت غربي، فرضيت بالإياب إلى تلكوم، مارا بغرائب إندونيسية أخرى، من مثل مشاوي اللحوم والأسماك معا المفتوحة على المارة، ومطاعم الدجاج المسلوخ المسلوق المُبَهَّر المعلق من طرف رأسه مصفوفا، وكأنه حصاد كتيبة إعدام إرهابية- ومن مثل السائل المُعَوَّق المتربع على الأرض برجل عليلة فوق رجل صحيحة، على الكوب النحاسي نفسه، فإذا وُضِعَ له فيه شيء خطفه سريعا خطفا، ليظل فارغا يدعو المارين، فوضعت له ثلاث قطع، كل قطعة -أظن- بمئة روبية، ثم ندمت أَنْ لم أُعْطِه غيرها، وأحتفظ بها، لأضمها إلى مجموعة عملاتي التي أجمعها منذ ثلاثين سنة إلا قليلا!

وصلت تلكوم مع أذان المغرب، فدخلت الجامع، ووضعت الأكياس عن أقصى يمين الصف الأول، ثم انسلكت في الجماعة، ثم لما فرغنا، تَعَجَّلْتُ صلاة العشاء وحدي جمعا وقصرا، ثم ندمت أن وجدت جماعة المصلين تجتمع عليها، فلما فرغت أنا، استندت إلى الجدار، وجعلت أتأمل المصلين، فوجدت الجماعة التي خسرتها مستمرة بإمام إندونيسي جميل الصوت، وخلفها بعد ثلاثة صفوف جماعة أخرى!

مهما يكن اختلاف أحوال المصلين في بلادنا العربية، لا تتعدد الجماعات، إلا سهوا أو خطأ، إلا أن تترك الجماعةُ الحديثةُ المكانَ، للجماعة القديمة، إلى مكان آخر من الجامع، لا تُرى فيه معها!

وكلما رأيت مسالك إخواننا المسلمين الإندونيسيين تأكدت لدي

مقالة أستاذنا محمود محمد شاكر -رحمه الله!- "لا تَكْتَمِلُ مَعْرِفَةُ الْإِسْلامِ إلّا بِمَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ"، أو كما قال، رحمه الله! وأحسست أنها من فهم قول الحق - سبحانه، وتعالى! -: "لَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدِّينِ وَلِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرونَ"! وكذلك كانت كلمة الدكتور هدايت نور وحيد، السابقة، نفع الله به!

ذهبت أخرج من الجامع، فوجدت الطالبات يصلين بركنهن على يمين الخارج، في جلابيب صلاتهن البيضاء الربانية، وربما دخلت المتبرجة هي وزميلها، يتكلمان، فتميل يسارا، ويذهب أماما!

فلما خرجت وجدت بعض الأساتذة الإندونيسيين وأستاذا كويتيا بمعهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، من جامعة الكويت (الدكتور إبراهيم محمد)، فجاذبتهم الكلام فيما اضطرني إلى الانسلال من جلسات المؤتمر إلى السوق وحدي، ثم فيما عجبت له من اضطراب نظام المؤتمر: برنامجه الذي خلا أمسِ مني، وكتابه الذي خلا اليومَ من بحثي:

- لكنهم وعدوا أن يخرجوا بقية الأبحاث في كتاب ملحق.
- أسافر عنهم غدا، فليبحثوا عمن يشتريه!

ذهبت عنهم إلى غرفتي، ثم تخففت مما حملت، ثم نزلت إلى المطعم؛ فقد استهلكني المشي. فوجدت الدكتور عارف كرخي أبو خضيري والدكتور قرني عبد الحليم، فدعوتهما أن نأكل معا، فأصبنا من خبز الجمبري والأرز واللحم والسلطة ومياه العلب ذوات المِشَفّات، ثم

قعدنا عن جلسات المؤتمر زهدا فيها بعدما رأينا من اضطراب نظامها!

انضم إلينا بعد قليل الدكتور حسن عبد المقصود، ثم الدكتور كمال عبد العزيز، ثم الدكتور عرسان الرافيني، ثم خضنا في كل علم وفن، ثقيل وخفيف؛ حتى هجم علينا من الإندونيسيين وشباب الأساتذة العرب، بعقب المؤتمر، مَنْ صَخِبَ في المطعم بما سموه حفل سمر، بين عزف وغناء وإنشاد، وبرع الخليجيون مرة أخرى في الإنشاد، واستولوا على إقبال الإندونيسيين– ولكنني خرجت من هذا اللقاء، بمعرفة الدكتور عارف.

رجل عالم فنان صعيدي، لا تدل ملامحه الصعيدية القاسية، على خصاله الفنية الرقيقة، وحواره العلمي اللطيف!

ثم جاءنا أندي هادي ومحمد فؤاد، وجمعتنا جميعا الصور التذكارية:

- أندي، هذا محمد فؤاد، أرجو ألا يتأخر عن السابعة من صباح غد!
- تأمل؛ قد كتبت تفاصيل مواعيدكم أنتم والأساتذة جميعا!
- أكرمك الله!
- وهذان نوح وعارف، طالبان بالفرقة الثالثة من تخصص اللغة العربية، سيكونان عندك في السابعة.
- ومحمد فؤاد؟

- لديه عمل يمنعه!

ثم ذهب بهما، وطال مجلسنا؛ حتى شهد الجالسون أنه أفضل أعمال هذا المؤتمر! ولكنه انتهى، وودع كل منا الآخر، وافترقنا، وفي طريقي من المطعم وجدت مجلسا آخر للدكتور محمد حُوَّر أستاذ النقد بجامعة اليرموك، والدكتور زياد الزعبي، والدكتور عرسان الفيلاني، والدكتور فائز القرعان، وربما كان معهم الدكتور عباس عبد الحليم. تمنيت أن أجالسهم حتى مطلع الفجر؛ فَلا يزال بي إلى إخواني العرب والمسلمين جميعا، ولا سيما العلماء والفنانون- شوق وحنين لا يفتران، ولكنني خشيت أن أُثْقِلَ عليهم!

صعدت آسفا إلى غرفتي، وجهزت حقيبتي، وضبطت محمولي، وتناومت حتى صلاة الفجر، ثم تناومت حتى السادسة والربع؛ فإذا الباب يطرق، فأفتح؛ فإذا نوح وعارف -خافا ألا أكون تجهزت- فنخرج معا، فأمر على المطعم، محتاجا، زاهدا في الإفطار الإندونيسي، إلى حيث سيارة زميل لهما ثالث، من طلاب اللغة العربية كذلك.

انطلقنا ننهب الطريق الذي ستره عني الليل من تلكوم إلى متجر باندونج الكبير، والدنيا كلها باكرة يقظة نشطة، فكنت أصور كل طريفة إندونيسية لم أصورها من قبل، ولا رأيتها، من مثل غلبة الدراجات البخارية على وسائل الانتقال في الشوارع، ومن مثل الدراجات الهوائية ذات الأرائك الأمامية المستعرضة، ومن مثل أسواق باندونج الداخلية

الممتلئة خضراوات وفواكـه ومسـتلزمات إندونيسـية، وصـورت منـاظر بعض الشوارع الطويلة المحفوفة بالأشجار الملتقية الأعالي كمثل ما كانت عليه شوارع القاهرة الفاخرة "ثم زالت وتلك عقبى التعدي":

- أليس اليوم السبت إجازة في باندونج؟
- بلى.
- فلم كل هذه الجموع؟
- يذهبون إلى التسوق.
- وهل نمر بمتاجر كبيرة؟
- متجر باندونج الكبير نفسه، مُتَسَوَّقٌ كبـير جـدا، يـذهب النـاس إليه!
- وهل أستطيع أن أشتري منه؟
- تفتح محاله في التاسعة!
- أين ترى ذلك المبنى الذي التقى فيه سوكارنو ونهرو وجمال عبـد الناصر سنة ١٩٥٥م، لتأسيس جبهة عدم الانحياز؟
- لقد مررت معنا عليه منذ قليل، وتركناه الآن خلفنا!
- أظن أنه مزار سياحي، ليتنا وجدنا وقتا لزيارته، ولسـوف يـزوره المشاركون بالمؤتمر اليوم، ولم يمنعني غير سفري!
- نحن نسميه جدون ساتي!
- وما معناه بالعربية؟

- لا مقابل له في العربية!
- بل معناه اللحم المشوي على الـ...
- على المشكاك، نسمي هذه الحديدة المشكاك، فهو لحم المشاكيك!
- نعم لحم المشاكيك!

وصلنا قبيل السابعة والنصف، فوجدنا الحافلة توشك أن تتحرك –ولا ريب في أنها حافلة السابعة، تَأَخَّرَتْ؛ فأدركناها؛ وقد كنا عَجِلْنا لحافلة الثامنة– فقطعوا لي تذكرتي على حساب لجنة المؤتمر كما اتفقنا، ونبهوني على بوابة السفر إلى سنغافورة (D)، بإندونيسية تمنيت أن أحفظها، وأراد السائق التحرك، فودعتهم، وقفزت إليه.

جهزت نفسي لرحلة طويلة أطول مما كانت ليلا، أي ذات أربع ساعات أو أكثر؛ فاشتغلت في طريق الحافلة بتأمل طبيعة البلد، وتصوير أهم مناظرها، فلم أجد أهم من مزارعها المستمرة على الجبال والسهول؛ فإذا كانت الجبال كانت أشجار الشاي المتشابكة، وإذا كانت السهول كانت حقول الأرز المنبسطة، وربما اصطفت على الحواف، أو استقلت بأنفسها أشجار السَّرْو المُتَكَبِّرة– ولا أهم من قراها المختبئة في أحضان مزارعها، ببيوتها المثلثة الأسقف المزدوجة الطوابق المختلفة باختلاف أحوال أصحابها سعة وضيقا– ولا أهم من بحيراتها المسكونة بمزارع السمك ذوات الجدران من فِلَقِ أعواد الغاب (القصب الأجوف). وكلما اندهشت بمنظر من تلك، جاءني أشد منه إدهاشا؛ حتى خرجنا من

الريف إلى الحضر، فإذا أبنية شاهقة، وطـرق نظيفـة منظمـة؛ حتـى بلغنـا مطار جاكرتا.

مررنا على رصيف البوابات الطويل اللطيف، قد ازدحمـت عليـه جماعات الناس جماعة جماعة، كل جماعة على بوابة سـفرها؛ فكنـت أتأمـل الأسر الإندونيسية كيف تبدو، مُتَحَفِّظَةَ المظهـر، أو مُتَحَرِّرَتَـه، أو مختلطـة المظهر بتحفظ الكبار وتحرر الصغار، وكلهن أسر مسـلمة؛ حتـى جـاءت بوابتي؛ فنبهني السائق ومساعده، ونزلـت، وتحـيرت قلـيلا، ثـم دخلـت مستدلا بـ" D٢".

وصلت بُعَيْدَ العاشرة، وموعدي الثانية عشرة، فلم أشأ أن أحرج نفسي بالدخول مع الداخلين إلى الباحات الداخلية، فجلت ذهابا وإيابـا، أتفقد المكـان الـذي لم أره في وصـولي، وربـما لا أراه بعـد اليـوم، وأتفقـد الناس، وما الأماكن إلا الناس!

هذه طائفـة مـن الفتيـات والسـيدات، تلـبس الملابـس البيضـاء الإسلامية، كأنهن الملائكة، فقدرت أنهن في سبيل الاعتمار، وهـذه سـيدة متبرجة تَشْتَفُّ المياه بالمِشَفَّةِ، حتى إذا ما انتهـت قامـت إلى السـلة فألقـت زجاجتها، وهذا مطعم:

- (... أريد أن أفطر...)!

أدخل، وآخذ علبة بيبسي، وكيس بسكويت، وأدفـع ثمانيـة عشرـ ألف روبية! وهذا بنك:

- (... معي قرابة مئة وسبعين ألف روبية ونيـفٍ، أريـد أن أغيرهـا إلى دولارات...)!
- معك ثلاثة آلاف روبية أخرى؟
- لا.

فيرد علي البَنْكيُّ السبعين ألفًا ونيفا، ولا يأخذ غـير مئـة الألـف، ليعطيني عشر دولارات، وخمسين روبية تقريبا!

وهذه فتاة محجبة تقف على محل هـدايا، فأقبـل عليهـا، أتفقـد مـا عندها، وأساومها، ناسيا حدود ما معي، فتسألني بالإنجليزية:

- لمن تريد؟
- لابنتي.
- كم عمرها ؟
- خمس عشرة.
- تأمل هذا العقد بمئتي ألف، وهذا السوار بمئـة وخمسـين، وهـذا بمئة، وذاك، وذلك...!
- عذرا عذرا!

أذهب عنها أجول؛ حتى تكتمل الاثنتا عشرة، فأدخل أفتش عن الطيران السنغافوري، فأنتبه إلى شاب صغير يفتش قبلي، فأتتبعه، فـيهجم على مكتب فارغ، ويعرض أوراقه في لمح البصر، ويمضي، فـإذا المكتـب لرجال الأعمال، فأتركه إلى مكتب فارغ بجواره، فإذا هو لهم كذلك، وأُنَبَّه

على طابور الدهماء، فأنضم إليهم!

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام. معك حقائب للوزن؟
- لا.
- هـذه بطاقـة " جاكرتـا سـنغافورة"، وهـذه بطاقـة " سـنغافورة القاهرة".
- جميل.
- أريد منك مئة ألف روبية.
- لماذا؟

فترطن لي بما لا أفهم، فأشير لها إلى أن ليس معي ما يكملها، فهـل أذهب لتغيير الدولارات إلى روبيات، فتوافقني، وتمسك عنـدها بطـاقتي الطـائرتين، فأذهـب، فآخـذ بعشرـ الـدولارات، أقـل ممـا بـذلت فيهـا الروبيات، ثم أعود لأكمل للمضيفة مئة الألف، ثم أهـم بالمضيـ، فـترى حقيبة اليد:

- ينبغي لك أن تترك هذه الحقيبة!
- ولم لا أحملها؛ ألا ترين كم هي خفيفة!
- ينبغي ألا تزيد على عشر كيلوات.
- أظنها كذلك.

نزنها معا، فتكون أربعة عشر كيلو، فأتركها لها مستريحا منها، ثـم

أسألها عن جهة انتظار الطائرة، لأمضي إليها، وأمر في الطريق بسوق مطار جاكرتا الحرة، لأجد محال هدايا خشبية وشبه خشبية، لم أر مثلها من قبل، فأدخل أبهاها، أفتش عن هدايا بستة وستين ألف روبية وخمسمئة، فأعثر على عقد خشبي بخمسة وعشرين ألفا، وسوار خشبي ملائم للعقد بخمسة عشر ألفا، وسوار خشبي منفرد بخمسة عشر ألفا، وسوار بلاستيكي منفرد بعشرة آلاف؛ فيتم الحساب خمسة وستين ألف روبية، لتبقى ورقة بألف وقطعة بخمسمئة، فأعطي الورقة عاملا يتكلم العربية، نبهني على الصلاة، ودلني على المصلى -فجمعت العصر إلى الظهر قصرا- وأستبقي القطعة لمجمع عملاتي!

جميل مُنْتَظَرُ طائرة "جاكرتا سنغافورة"، من حوله الجدران الزجاجية المطلعة على المطار من أمام، المحفوفة بالخضرة من يمين وشمال، المشغولة بالمضيفات ذوات الأزياء الخاصة!

دخلنا إلى الطائرة، فكان مكاني بين غَريبَيْنِ، سلمت فلم يردا، وبقيا غَريبَيْنِ، فقعدت، وانعكس ما سلف بطائرة "سنغافورة جاكرتا"، ولكنني الآن في رائعة النهار، أرى كل شيء واضحا جدا من بدء لمختتم، أتشوف إلى سنغافورة لأتأمل خصائصها من فوق لتحت، ومن خارج لداخل؛ حتى ظهرت المراعي الخضراء الطويلة العريضة المقسمة تقسيما ملتويا دقيقا، المحفوفة بالبحيرات، المشقوقة بالبحيرات، المختلطة بالبحيرات، المشغولة البحيرات بمزارع السمك، والسفن، والحيتان أو

الدلافين، ثم ظهر سيدي المطار، في حاشيته من أشـجار السَّرْـو المُتكِّـبرة، بمسارات طائراته المُخَيَّرة بين الطـرق المُسَـفْلَتة، والجزائـر المخضرـة، ثـم حطت الطـائرة، ودخلنـا إلى جنـاح الوصـول، الطـاغي الجـمال، البـاغي المعارض.

الوقت هذه المرة قصير جدا بين الوصـول والرحيـل، فأسرعـت أفتش عن كاميرا إلكترونية، هدية زوجتي، أعـرف أنهـا تسرـها، فعثـرت عليها بمئتين وثلاثة وعشرين دولارا وثلاثين سـنتا، فأقبلـت أسـأل عـن بنك المكان، فدُلِلْتُ عليه، فسألت البَنْكيَّـة أن تعطينـي مبلـغ الـدولارات المطلوب للكاميرا، بما يعادلها من العملة المصرية، فقالت:

– لا، لا، لا نتعامل إلا بأميركي الولايات المتحدة أو السنغافوري!

أسرعت إلى القائم على الكاميرا، أشكو له، فقال:

– استعمل الفيزا، أو اسحب بالكارت!

– لا أملك لا هذا ولا ذاك، إلا النقود المصرية!

فلم يملك إلا أن يأسى لحالي!

ارتحـت باليـأس، فأسرعـت إلى حيـث طـائرتي، فاختلفـت عـلي الجهات، فجعلت أختصرها بالأرضين المتحركة، غـير مرتـاح إلى المنـاظر الباهرة؛ حتى بلغت المكان المذكور على بطاقة الطائرة، فوجدته مغلقا!

سألت بعـض العـمال، فـدلوني عـلى أن في الأمـر تغيـيرا، وأننـي يمكنني أن أتأكد من اللائحة الإلكترونية المضـيئة، فعرفـت منهـا صـحة

كلامهم، وكان المكان الجديد بجوار القديم، فمررت إليـه، فانتبهـت مـن المكان القديم، إلى عامل يكنس زجاجا مكسورا، فعرفت سبب تغييره، ثم رأيت الزحام والطابور الطويل، فعرفت أنها طـائرة القـاهرة، فوقفـت في آخر الطابور، والناس من حوله يائسون، قاعدون على أرائك الانتظار.

رميـت بصريـ إلى أول الطـابور، فـإذا الموظفـون بعـد جهـاز الحقائب، يفتشون الناس رجالا ونساء، فعرفت سبب الزحام، فلما كنـت في مكانهم ولم أُفَتَّش، حَرَصْتُ عَجَبًا أَنْ أُصَوِّرَ نَموذجًـا مـن تفتـيش كـلا الجنسين!

لم يبق وقت؛ فكان كل من يفرغ من عبـث المفتشـين والمفتشـات، يمضي إلى الطائرة. أخذت مكـاني بجـوار شـاب مصريـ، كأنـه لا يحـب الغرباء، ولا يحبونه، بيني وبينه مقعد فارغ يزيدنا غربة، وأخرجت كتـاب "التفكير فريضة إسلامية"، للعقاد، الذي كنت أقرؤه في مكتبتي بروضـة مصر العتيقة قبل سفري، فجاءتني في خلال ذلك المضـيفة السـنغافورية، ترطن بالإنجليزية؛ حتى فهمت أنها تتوسل إليَّ أن أنتقل إلى مكان شخص آخر، ليأخذ مكاني هو وشخص آخر معه لم يتح لهما القعود معـا، فسـألتها عن تطرف المقعد الذي ستأخذني إليه، ففهمت، وأكدت لي أنه كما أريد!

لم أكن أدري أنه ستكون لي بذلك يد عليها طـولى طـول الرحلـة؛ تكثر أولا من شكري عليها، ثـم تكثـر دائـما مـن الحفـاوة بي فـيما تقدمـه الطائرة من خدمات! ولم أتحرج من هذه الحفاوة، بل استعملتها في بعـض

المطالب، فلم تتأخر، إلا مرة واحدة، ربما شَغَلَتْها فيها عني شواغل أخرى!

أقبلت أنظر في كتاب العقاد، فوجدته يخوض في جمع فلاسفة المسلمين بين العقل والإيمان، فبخلت به، وتركته لسيد المقام، من بعد أن وزعت علينا المضيفة السماعات الضرورية!

لم أكن أدري أن من الأفلام المحفوظة بذاكرة تلفازي، أفلاما عربية، فتشاغلت بفيلم أميركي خفيف؛ حتى لمحت طفلة مصرية شيطانة تتابع فيلما عربيا، فرجعت أقلب الأفلام حتى عثرت على الفيلم الذي كانت تراه، مكتوبا اسمه بالحروف اللاتينية، وكان فيلما خفيفا، فلما فرغت منه قدرت أن ثمت غيره، فأصبت، وكان فيلما ثقيلا، ولم أكن رأيت أيا منهما من قبل، ثم فتشت عن غيرهما فعثرت على فيلم أميركي ثقيل غير مترجم، فتابعته؛ حتى وصل بي إلى مطار القاهرة!

كنت أتقلب يمينا ويسارا، فوقا وتحتا، لا أنام ولا أرتاح، واستسهلت الحركة بتطرف مقعدي، ولا سيما إلى الوضوء لصلاتي المغرب والعشاء، على حين أَحْرَجَ جاريَّ الزوجين السنغافوريين مَوْضِعا مَقْعَدَيْهِما، ولكنني كنت دائما أزيل عنهما الحرج، وأتلطف إليهما، وأسألهما دائما عن رغبتهما في الخروج؛ حتى علقا عليَّ أملهما في حل مشكلة حقائبهما، وهما المنتقلان بعد يومين في القاهرة إلى إصطمبول!

خرجنا جميعا من الطائرة إلى المطار، قبيل الحادية عشرة بتوقيت

القـاهرة، مـن مسـاء سـبت ٢٥/ ٨، في احتفـال مـن الزِّحـام والزُّكـام والسُّخام، وكنت أسأل لهما، وأجتهد دون جـدوى في مصـلحتهما؛ حتـى قالت السيدة وكانت أجرأ على الحوار، وأعلم بالإنجليزية من زوجها:

- شكرا لك، ITS OK!

وقفنا جميعا بين بطاقات البيانات المطلوبـة، المتنـاثرة، وكنـت قـد أخذتها بمطار سنغافورة، وملأتها، واشتغلت بمحمولي الذي فتحتـه مـن بعد إغلاقه بالطائرة إلزاما، فإذا رسالة أخي الـدكتور فرحـان المطـيري في بعض المسائل اللغوية، فأجيبها بعد فوات الأوان، ثـم تغلبنـي يـدي عـلى مهاتفة أسرتي بوصولي وأنا المغرم بالمفاجأة- ثم سلمت البطاقـة الضـابط المسـؤول، ومضـيت أبحـث عـن مسـار الحقائـب، الـذي نَحَّـوْه بعيـدًا، وأعلمونا أنها حقائب أربع طائرات، فطمأنت نفسي وبعـض الـواقفين في هذا الموقف الكريه؛ حتى رأيت حقيبة يدي، فأخذتها خارجا، ثم ذكـرت السؤال عما أُخِذَ مني بمطار جاكرتا، فدللت على مكاتب شركـة الطـيران السنغافورية، فتحيرت؛ حتى وصلت إليها حاملا حقيبـة كتفـي، سـاحبا وحاملا حقيبة يدي التي كانت قد انكسر عمودها من قبل، فلم أعثر فيها ولا في المكان كله على أحد، ولكنني عرفت بعدئذ بالمهاتفـة، أنهـا ضريبـة المطار، يضيفها مطار القاهرة إلى التذكرة، ويأخذها غـيره وحـدها، مـثلما فَعَلَ مَطارُ جاكرتا!

خرجت، فركبت حافلة المطار، إلى حيث لاحقتني سيارة ظننتهـا

لأحد زملائي، رآني في ثَوْبٍ حالٍ ضَيِّقَةٍ، فـأبى إلا أن يَخْلَعَنـي منهـا، ولا سيما أن بدت لي ملامحه قريبة:

- شكرا شكرا!
- إلى أين؟
- منيل الروضة.
- اركب، ولن آخذ منك إلا ما تعطيه سائق أي تاكسي.
- نعم!
- كم تعطيه؟
- عشرين جنيها!
- يا رجل، حرام عليك!
- خمسة وعشرين!
- سآخذ منك خمسة وثلاثين.
- سأعطيك ثلاثين!
- سأفتح لك المكيف!
- لا أريده!
- فاركب إذن!
- أعجبتني سماحتك، وبمثلها تعمل؛ فلا تقف ترعى المواقف!
- هذه سيارتي كـما تراهـا جديـدة، ولـدي سـيارتا تاكسيـ علـيهما سائقان، أعامل شركة الليموزين، فتكلمني في التوصيلة، فأخرج

أنا بسيارتي هذه إليها حرصا عليها.

- يعملان عليهما الأربع والعشرين ساعة؟
- ولماذا هذا البغي! يعمل كل على سيارته، نوبة واحدة، ثماني ساعات، فماذا سأستفيد إذا هلكت السيارتان!
- جميل! ولكن أين السائق المؤتمن!
- مستحيل الوجود! لا أعني سرقة وارد السيارة، بل أعني سرقة السيارة نفسها، وهي أشد! تُفَكُّ أَجْهِزَتُها، وتباع قِطَعُها، وتوضع مكانها قطع أخرى مُسْتَهْلَكَةٌ، ثم يُسْتَغْنى عنها من دون أن يَظْهَر لهذا سبب!
- آه علينا وعلى بلادنا! نملك ما يملكه أي شعب متقدم، ولكننا نحتاج إلى تربية أنفسنا على معاني الإخلاص والإتقان، في ضوء منهج عام من التخطيط والإدارة والرقابة!
- طبعا نملك ما يملكه أي شعب متقدم! ماذا تعمل، يا أستاذ؟
- أستاذ جامعي.
- أهلا وسهلا! أنا خريج سياحة وفنادق، أعرف الإنجليزية والروسية، عملت بالغردقة، ثم بدبي، في شركات دولية، لم يكن للعامل فيها إلا الإتقان؛ فقد كان يخاف الرقيب المختفي، الذي يعاقب المقصر، ويثيب المجتهد!
- ما شاء الله، لا قوة إلا بالله! ركبت مرة مع سائق تاكسي، من

المخترعين، كان مدعوا حينئذ إلى مؤتمر الشركة العالمية التي قدم لها اختراعه، ليعرضه!

- يا سلام!
- ولكن ما اسمك؟
- مصطفى.
- وأين تسكن؟
- قريبا منك بدار السلام.
- وما رقم محمولك؟
- هو هذا....
- هل أستطيع أن أعتمد عليك في توصيل أولادي إلى مدارسهم قريبا، بدلا ممن يوصلهم؟ إنهم ثلاثة، وربما انضاف إليهم بعض زملائهم، فكان لك مبلغ لا بأس به! لقد كانوا أربعة، ثم تركتهم أختهم إلى مدرسة قريبة من البيت، ثم يدركهم أخوهم الصغير بعد سنتين -إن شاء الله- فيعيدهم أربعة، وهكذا...!
- تحت أمرك، ولا تفكر في المال!
- بارك الله فيك!

ورأيت ذلك من التوفيق في مختتم الإياب إلى بلادي المُضَيَّعة، التي لن يقيم حالها إلا الأخلاق الكريمة والهمم العالية!

- جمال، تعال، احمل هذه الحقيبة، وهذه الثلاثون جنيها -يا أستاذ

مصطفى- وإن كان ينبغي أن تتفضل عليَّ بالزيارة!

- شكرا، أكرمك الله!
- السلام عليكم!
- وعليكم السلام!
- حمدا لله على السلامة! لم تُطِلِ الغَيْبَة يا دكتور!
- الله يسلمك! لكن أَطَلْتُ المسافة!
- السلام عليكم! لا أدري لِمَ لَمْ أصبر حتى أفاجئكم على عادتي!
- عرفنا وصولك من المطار!
- ولكنني أفاجئكم الآن بما حَمَلْتُه لكم من ذكريات!
- وكيف وجدت الوقت!
- بَرَكات مؤتمر باندونج!

الشُّعَراءُ وَالنَّحْويّونَ

الخلاف بين الشعراء والنحويين (علماء النحو) قديم مستمر : يُخَطِّئُ النحويون أقوال الشعراء ، ويُسَفِّهُ الشعراء أحلام النحويين ، والغاوون مذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء !

ولا يعرف الشوق إلا من يكابده !

وقد كابدت بحياتي طلب الشعر والنحو ، وطلب علمي الشعر والنحو ؛ فلا أحكم هنا إلا بما عانيت ، في مسألة مطروحة دائما وكأن طرحها فرض كفاية على مثقفي كل زمان ومكان ؛ وهل أشرف مما نقوم جميعا فيه الآن من زمان ومكان !

ولقد خطرت لي في هذه المسألة ، أفكار أربع ، يمكنني بها أنا وأنتم أن نتجاذب أطرافها ؛ عسى أن نركن من فهمها إلى ركن وثيق :

- *الشِّعْرُ وَالنَّحْوُ :*

– *حقيقةُ وجود كل منهما في الكلام ، وما يجتمعان عليه ، وما يفترقان فيه .*

- *عِلْمُ الشِّعْرِ وَعِلْمُ النَّحْوِ :*

– *منهجُ البحث عن حقيقة كل منهما ، المفضي إلى نظريات ضابطة .*

- *الشّاعِرُ وَالْفَصيحُ :*

- *حقيقةُ وجود كل منهما في المتكلمين ، وما يجتمعان عليه ، وما يفترقان فيه .*

- **عالِمُ الشِّعْرِ وَعالِمُ النَّحْوِ :**

- *حقيقةُ وجود كل منهما في الباحثين ، وما يجتمعان عليه ، وما يفترقان فيه .*

إننا إذا تأملنا كل فكرة من هذه الأفكار حق تأملها ، واتفقنا في نقدها على قول فصل – وضعنا علاقةَ بَيْنِ الشعراء والنحويين (علماء النحو) ، في موضعها الصحيح ؛ فعَرَفَ كُلٌّ حَدَّه ، فَوَقَفَ عِنْدَه !

١

حدثنا أبو تميم عبد الحميد بسيوني وكان مستشار جابر الصباح أمير الكويت الأسبق ، أنه شهد مجلس أستاذنا محمود محمد شاكر ، وقد أقبل محمود حسن إسماعيل – وكلهم معاصرون ماتوا في أثناء هذا القرن الهجري الخامس عشر ؛ رحمهم الله جميعا رحمة واسعة ، ولم يَفْتنّا بعدهم ، ولم يحرمنا أجرهم ! – ينشد من شعره المجلسَ الجليل ، وفيه الحسّاني حسن عبد الله – عفا الله عنه ! – يَتَسَقَّطُ له ، حتى لَقَطَ شيئا صاح به عليه؛ فغضب محمود حسن إسماعيل .

قال أبو تميم : فلما كان المجلس التالي ، بَدَرَ إسماعيلُ بقصيدته من الشعر الحر " الوَهَجُ وَالدّيدانُ " ، يقول :

" تَفْعيلَتانْ

ثَلاثُ تَفْعيلاتْ

وَسَبْعُ تَفْعيلاتْ

وَأَحْرُفٌ تُعانِقُ الْأَلْحانَ بِالْأَحْضانِ وَالرّاحاتْ

تُدَفِّقُ النّورَ عَلى حَفائِرِ الْأَمْواتْ

شَلّالَ موسيقا بِلا قَواعِدٍ مَرْسومَةِ الرَّنّاتْ

مَعْصومَةِ الْإيقاعِ دونَ حاسِبٍ مُزَيَّفِ الْميقاتْ

يَعُدُّها مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجيءَ بِالْأَسْبابِ وَالْأَوْتادِ وَالشَّطْراتْ

تَشُقُّ بابَ الرّوحِ لا تَسْتَأْذِنُ الْإِصْغاءَ وَالْإِنْصاتْ

وَلَيْسَ في إِعْصارِها سَبّابَةٌ تُعَذِّبُ الْهالاتْ

وَلا فُضولُ الْمَوْتِ وَهْوَ يَسْأَلُ الْحَياةَ عَنْ تَوَهُّجِ السّاحاتْ

وَلا فُضولُ اللَّيْلِ وَهْوَ يَسْأَلُ الْفَجْرَ لِماذا تَنْسَخُ الرُّفاتْ

ضَجَّ الْبِلى مِنْ صَيْحَةِ الْإِشْراقِ في تَشَبُّثِ الْمَواتْ

وَانْتَفَضَتْ هَياكِلٌ مَرْصوفَةُ الطُّقوسِ مِنْ تَناسُقِ الْأَشْتاتْ

وَكُلُّ ما فيها قَرابينُ تُقَدِّسُ الرِّمامَ في كُلِّ حَصادٍ ماتْ

مَصْلوبَةُ الْجُمودِ وَالرُّكودِ وَالْهُمودِ وَالسُّباتْ

عَلى مَطايا زَمَنٍ مُهَرَّأِ الْأَكْفاتْ

تَحَرَّكَتْ في غَبَشِ الْكُهوفْ

جَنائِزًا في لَحْدِها تَطوفْ

مَشْلولَةَ الْمَسيرِ وَالْحِراكِ وَالْوُقوفْ

كَأَنَّها لِتُرَّهاتِ أَمْسِها رُفوفْ

أَوْ أَنَّها لِكُلِّ نورٍ شَعَّ في زَمانِها حُتوفْ

تُريدُ شَلَّ الْوَهَجِ الْعَصوفْ

بِأَعْيُنٍ ضِياؤُها مَكْفوفْ

وَأَلْسُنٍ نِداؤُها مَعْقوفْ

تَهاتَرَتْ مَخْدورَةً مِنْ سَمْتَةِ الْعُكوفْ

وَراعَها تَمَزُّقُ السُّجوفْ

وَخَيْبَةُ التَّكْرارِ وَالدُّوارِ في الْقيعانْ

فَأَنْشَبَتْ هُذاءَها في الْقَشِّ وَالْعيدانْ

وَالْحُبُّ عَنْ عَمائِها مُغَلَّفٌ نَشْوانْ

وَوَعْيُها مِنْ غَشْيَةٍ غَفْلانْ

وَطَرْفُها مِنْ عَشْيَةٍ ظَمْآنْ

لِكُلِّ ما لَمْ يَبْقَ فيهِ قَبَسٌ لِخُطْوَةِ الْإِنْسانْ

سُبْحانَ رَبِّ النّورِ مِنْ تَحَرُّكِ الْأَكْفانْ

سُبْحانَهُ سُبْحانْ

مَنْ أَيْقَظَ الدّيدانْ

أَنْغامُ هذا الطَّيْرِ ما لَقَّنَها بُسْتانْ

وَلا حَداها حارِسٌ يَقْظانْ

وَلا بِغَيْرِ ما تَجيشُ نارُها تَحَرَّكَتْ بَنانْ

مِنْ ذاتِها وَوَحْيِها رَحيقُها الصَّدْيانْ

الرّافِضُ الْإيماءَ لِلْوَراءِ يَمْتَصُّ خُطا الرُّكْبانْ

الرّافِضُ الْقِياسَ في الصَّدى وَفي الْمَدى وَفي اللِّسانْ

وَفي هَوى التَّنْغيمِ وَالتَّفْخيمِ وَالتَّرْنيمِ وَالْإِرْنانْ

تَدَفَّقَتْ لا تَعْرِفُ التَّطْريزَ في تَوَهُّجِ الْأَلْحانْ

وَلا خِداعَ السَّمْعِ في تَبَرُّجِ الْحُروفِ لِلْآذانْ

وَلا لِخَطْوِ اللَّحْنِ قَبْلَ سَكْبِهِ مِنْ نايِها ميزانْ

أَسْكَرَها خالِقُها قَبْلَ انْبِثاقِ اللَّحْنِ بِالْأَوْزانْ

تَحَرَّرَتْ فَما بِها لِلْقالَبِ الْمَصْبوبِ قَبْلَ كَأْسِها إِذْعانْ

زَخارِفٌ مَطارِفٌ مَتاحِفٌ لِقِشْرَةِ الْأَكْوانْ

قَواقِعٌ بَراقِعٌ بَدائِعٌ زَيّافَةُ الْأَلْوانْ

جَلَّ عَزيفُ النّايِ أَنْ يَقودَهُ إِنْسانْ

وَجَلَّ روحُ الْفَنِّ عَنْ تَناسُخِ الْأَبْدانْ

فَالشِّعْرُ شَيْءٌ فَوْقَ ما يَصْطَرِعُ الْجيلانْ

روحٌ تَرُجُّ الرّوحَ كَالْإِعْصارِ في الْبُسْتانْ

بِزَفِّها وَحَرْفِها وَنورِها الْمُمَوْسَقِ النَّشْوانْ

وَخَمْرِها الْمَعْصورَةِ الرَّحيقِ مِنْ تَهادُلِ الْأَزْمانْ

لِكُلِّ جيلٍ كَأْسُه لا تَفْرِضُوا الدِّنانْ

مَلَّ النَّدامى حَوْلَكُمْ عِبادَةَ الْأَكْفانْ

فَجَدِّدوا أَرْواحَكُمْ لا تَظْلِمُوا الْميزانْ

فَالشِّعْرُ لَحْنٌ مِنْ يَدِ الرَّحْمنْ

سُبْحانَهُ سُبْحانْ

مُلْهِي النُّسورِ عَنْ خُطَا الدّيدانْ " . (ديوانه)

ومن تأمل هذه التعبيرات حق تأملها : " حاسِبٍ مُزَيَّفِ الْميقاتْ" ، " سَبّابَةٌ تُعَذِّبُ الْهالاتْ " ، " فُصولُ الْمَوْتِ " ، "فُصولُ اللَّيْلِ"، " تَشَبُّثُ الْمواتْ " ، " تَناسُقِ الْأَشْتاتْ " ، "تَحَرُّكِ الْأَكْفانْ " ، "تَناسُخِ الْأَبْدانْ " ، " عِبادَةَ الْأَكْفانْ " ، "خُطا الدّيدانْ " - رأى كيف عَرّاهُ للملأ ، ثم سَلَحَ عليه ! بل كيف زَلْزَلَه ، وأَضَلَّه عن نفسه ، ثم تركه في بَيْداء ! فأَيَّةُ مَذَمَّةٍ لم يَصُبَّها عليه ! وأَيَّةُ مَحْمَدَةٍ لم يَسْلُبْها منه !

فتُرى كيف اختلفا اختلافا شديدا وكان ينبغي أن يأتلفا ، حتى إذا أخطأ إسماعيل خَطَأً انْتَهَزَه الحَسّانيُّ نُهْزَةً باردةً ؟ وماذا كان ذلك الخطأ ولا مَصْلَحَةَ في التَّشْنيعِ به ، حتى أَكْمَدَه عليه هذا الكَمَدَ ، واستعداه هذه العَداوة ؟

قال المظفر العلوي المتوفى سنة ٦٥٦ الهجرية : " يَنْبَغي لِلشّاعِرِ أَلّا يُعادِيَ أَهْلَ الْعِلْمِ ، وَلا يَتَّخِذَهُمْ خُصومًا ؛ فَإِنَّهُمْ قادِرونَ عَلى أَنْ يَجْعَلوا إِحْسانَه إِساءَةً ، وَبَلاغَتَه عِيًّا ، وَفَصاحَتَه حَصَرًا ، وَيُحيلوا مَعْناهُ ، وَيَنْتَقِضوا ما بَناهُ ! فَكَمْ مِنْ أَديبٍ أَسْقَطَ أَهْلُ الْعِلْمِ حُكْمَ أَدَبِه ، وَأَخْمَلوا

مِنْ ذِكْرِه ما تَنبَّلَ بِه ! وَلَوْ عَدَدْناهُمْ لَأَفْرَدْنا لَهُمْ كِتابًا ! وَللهِ عَمّارٌ الْكَلْبيُّ حَيْثُ يَقولُ :

ماذا لَقيتُ مِنَ الْمُسْتَعْرِبينَ وَمِنْ قِياسِ نَحْوِهِم هذَا الَّذِي ابْتَدَعوا
إِنْ قُلْتُ قافِيَةً بِكْرًا يَكونُ بها بَيْتٌ خِلافَ الَّذي قاسوهُ أَوْ ذَرَعوا
قالوا لَحَنْتَ وَهذا لَيْسَ مُنتَصِبًا وَذاكَ خَفْضٌ وَهذا لَيْسَ يَرْتَفِع
وَحَرَّضوا بَيْنَ عَبْدِ اللهِ مِنْ حُمُقٍ وَبَيْنَ زَيْدٍ فَطالَ الضَّرْبُ وَالْوَجَعُ
كَمْ بيْنَ قَوْمٍ قَدِ احْتالوا لِمَنْطِقِهِمْ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَلى إِعْرابِهِمْ طُبِعوا
ما كُلُّ قَوْلِيَ مَشْروحًا لَكُمْ فَخُذوا ما تَعْرِفونَ وَما لَمْ تَعْرِفوا فَدَعوا
لِأَنَّ أَرْضِيَ أَرْضٌ لا تُشَبُّ بِها نارُ الْمَجوسِ وَلا تُبْنى بِهَا الْبِيَع

وَلَعَلَّ أَهْلَ الْعِلْمِ يَأْتونَ إِلَى الْمَعانِي الْمُسْتَحيلَةِ وَالْأَلْفاظِ الْمُخْتلَّةِ ، فَيُقَوِّمونَ أَوَدَها بِعِلَلِهِمْ ، وَيُصْلِحونَ فاسِدَها بِمَعْرِفَتِهِمْ؛ وَمَنْ هذِه سَبيلُه فَما يَحْسُنُ أَنْ يُغْضَبَ وَلا يُقْشَبَ ؛ فَرُبَّ داهِيَةٍ وَقَعَ عَلى مَنْ هُوَ أَدْهى مِنْهُ".

(نضرة الإغريض)

ولو قد حضر المظفر العلوي مجلس أستاذنا ذاك ، لعرف كيف يَقْدِرُ الشعراء من النَّحْويّين (علماء النحو) على أكثر من ذلك ، ولَعَطَفَهُمْ عليهم بإغرائهم بخِدْمَتِهِمْ لهم كما فعل أخيرًا ببعض كلامه ، لا بتَهْديدِهم وهم الْمُمْتَلِئون بأنفسهم ، بأن يَهْتِكَ النَّحْويّونَ أستارَهم ظُلْمًا وعُدْوانًا ويَفْضَحوا أسرارَهم بَغْيًا وبُهْتانًا ! ثم العجبُ له يستشهد بشعر عمارٍ ينعى

فيه على النَّحْويّينَ (علماء النحو) تَعْنيتَهم له ، من غير استكانة لهم ولا إقرار بسلطانهم ! أم تُراه يُخَوِّفُ الشعراء بالكَمَدِ الذي وَجَدَه عَمّارٌ، من حيث كان السعيدَ منهم من وُعِظَ بأخي صَنْعَتِه – حتى يُقرّوا ويَسْتكينوا !

لقد كان ينبغي للمظفر العلوي ، أن يشتغل بجوامع ما بين طائفتي الشعراء والنَّحْويّينَ (علماء النحو) تَرْغيبًا ومُؤالَفَةً وإِصْلاحًا ، أكثرَ منِ اشتغاله بفوارق ما بينهما تَرْهيبًا ومُخالَفَةً وإِفْسادًا !

٢

مَثَلُ اللغة المعينة مَثَلُ بنيان الإنسان المعين ، ومَثَلُ شِعْرِ اللغة المعينة مَثَلُ بنيان إنسانٍ وُلِدَ من ذلك البنيان السابق ، ومَثَلُ نَحْوِ اللغة المعينة مَثَلُ جِهازٍ مُعَيَّنٍ في البنيان السابقِ الوالد مُسْتَمِرٍّ إلى البنيان اللاحقِ المولود .

ومَنْ تَأَمَّلَ بُنيانَ الشعر وَجَدَ بُنيانَ اللغة : جِهازَ أَصْواتِها وَمَقاطِعِها الصَّوْتية ومعانيها ، وجِهازَ صِيَغِها الصَّرْفية ومعانيها ، وجِهازَ مفرداتها المُعْجَميّة ومعانيها ، وجِهازَ تَراكيبها النَّحْويَّة ومعانيها – ورأى كيف تمتزج في الجهاز الواحد مبانيه ومعانيه ، وفي البنيان الواحد أجهزتُه كلُّها – امتزاجَ الأشباح والأرواح ، لِتُؤَدّي رسالةً واحدة لا تُؤَدّى إلا بذلك امْتِزاجًا فامْتِزاجًا ، مثلما يُؤَدّي عَمَلَه الإنسانُ نفسُه صاحبُ هذه اللغة ؛ وكُلُّ عَمَلٍ مُوَفَّقٍ يعمله الإنسان – واللغة عَمَلُه الفَذُّ – ففيه طَبيعَتُه البُنْيانيَّة ؛ " لَعَنَ اللهُ مَنْ هَدَمَ بُنْيانَه " !

وإذا جمعنا تُراثَ لغة ما ، استطعنا أن نميز الشعر منه ، لأنه جزء محدد - ولم نستطع أن نميز النحو ، لأنه عنصر مُتَأَصِّلٌ في مُرَكَّب هذا التراث كله ؛ ومن ثم يعمل النحوُ في بُنْيان الشعر وغيره من البُنْيانات اللغوية المولودة ، ويَتَكَوَّنُ بُنْيانُ الشعر من جهاز النحو وغيره من الأجهزة اللغوية المستمرة ؛ فبين الشعر والنحو عُمومٌ وخُصوصٌ مُطْلَقانِ!

٣

وكذلك نستطيع أن نميز بالعموم والخصوص المطلقين ، الشاعرَ والفَصيحَ بعضَهما من بعض ؛ فأولهما المشتغل بإنتاج الشعر ، والآخر المشتغل بإنتاج النحو ، والشاعرُ يجب أن يكون فَصيحًا ، أي أن يستعمل جهاز النحو من اللغة التي يقول فيها شعره ، والفَصيحُ يجوز أن يكون شاعرًا ، وأن يكون غير شاعر ، ولكن يجب أن يكون أَيَّهما ، ليقول من اللغة ما يستعمل فيه جهاز نحوها .

وإنما يكون الشاعرُ والفَصيحُ - ويَبْرَعان ، ويَفْرَعان - بمَلَكَةٍ فَنّيَّةٍ يستوعب بها كل منهما تُراثَه على منهج من مناهج الارتياح الإيحائي ، سَعْيًا إلى مَيْلٍ وُجْداني من مُيول التَّرْجيحات الذَّوْقيّة - ويجري مجراه اتِّباعًا فابْتِداعًا ؛ فتتحول مَلَكَتُه الفنّيَّةُ من مرحلة الاستعداد ، إلى مرحلة القدرة، حتى مرحلة المهارة ، أي من مرحلةٍ يُتْقِنُ فيها عمله واعيا أنه يتقن أو

يحاول الإتقان ، حتى مرحلةٍ يتقن فيها عمله غافلا عن أنه يتقن أو يحاول الإتقان!

كلامُ الحق - سبحانه ، وتعالى ! - ورسولِه - صلى الله عليه ، وسلم ! - وصحابتِه - رضي الله عنهم ! - ثم كلامُ سحبانِ وائلٍ وقُسِّ بن ساعدة وأكثمَ بن صيفيٍّ وغيرِهم ، ثم كلامُ الشافعي والجاحظ وعبد الحميد وابن المقفع والأصفهاني والتوحيدي وغيرِهم ، ثم كلامُ الطبري وعبد القاهر الجرجاني والمعري وغيرِهم ، ثم كلامُ ابن خلدون وابن تيمية وابن القيم والقاضي الفاضل والصفدي وغيرِهم ، ثم كلامُ الجبرتي والسبكي وابن عبد الوهاب وغيرِهم ، ثم كلامُ المنفلوطي والعقاد والمازني وسيد قطب والرافعي ومحمود شاكر وحمد الجاسر والطنطاوي والبهبيتي وغيرِهم ، ثم كلامُ المسعودي ويحيى حقي وعبد الحليم عبد الله ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وفتحي غانم ومصطفى محمود وزكريا تامر وعبد الرحمن منيف وعلي أبو المكارم وغيرِهم !

وكلامُ شعراء المعلقات والمفضليات والأصمعيات والحماسات والجمهرات وغيرِهم ، ثم كلامُ شعراءِ رسول الله - صلى الله عليه ، وسلم! - وشعراءِ صحابتِه ، ثم كلامُ جرير والفرزدق والأخطل والكميت وغيرِهم ، ثم كلامُ أبي العتاهية وصالح بن عبد القدوس وبشار وأبي نواس وغيرِهم ، ثم كلامُ ديك الجن وعلي بن الجهم وأبي تمام والبحتري والعَكَوَّك وابن الرومي والمتنبي وأبي فراس والمعري وغيرِهم ،

ثم كلامُ التطيلي وابن خفاجة وابن سهل وغيرهم ، ثم كلامُ ابن حمديسَ والبهاء زهير وابن سناء الملك وغيرِهم ، ثم كلام ابن غنام وابن عثيمين والساعاتي وغيرِهم ، ثم كلام البهلاني وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والزبيري وغيرِهم ، ثم كلام الشابي وإبراهيم ناجي وعلي طه ومحمود إسماعيل ومحمود شاكر وحمزة شحاتة والنجفي والجواهري وغيرهم ، ثم كلام عمر أبو ريشة والسياب ونازك وأمل دنقل ومحمود درويش ومحمد الفيتوري وحسن قرشي ومهران السيد وعبد اللطيف عبد الحليم وغيرِهم.

مادة بعضها من بعض ، وبعضها يدل على بعض مشهورًا ومغمورًا ، لا يرضى إلا أن يُحْشَر معه - ينبغي لكلٍّ من طالِبَيِ الشعر والفَصاحَةِ العَرَبيَّيْنِ ، أن يبحث عنها ، ويستوعبها ، ويتحقق بها ، ويلهج بذكرها ؛ فيلتبس بها ظاهرا وباطنا ، حتى يقَلِّدها عفوًا ، أو يتَناساها قصدا ! فإن قلدها انضاف إلى مذهب أصحابها ، وإن تناساها انطلق إلى مَذْهَبٍ ينفرد به حتى ينضاف إليه فيه غيرُه !

٤

ونستطيع أن نميز بالعموم والخصوص المطلقين كذلك ، عالمَ الشعر والنحويَّ (عالمَ النحو) بعضهما من بعض ؛ فأولهما المشتغل بالبحث عن حقيقة وجود الشعر ضَبْطًا لنظرياته ، والآخر المشتغل بالبحث عن

حقيقة وجود النحو ضَبْطًا لنظرياته، وعالم الشعر لا يستغني عن علم النحو ، والنحويُّ (عالم النحو) لا يكتمل إلا بعلم الشعر .

وإنما يكون عالمُ الشعر والنحويُّ (عالم النحو) - ويَبْرَعان، ويَفْرَعان - بمَلَكَةٍ عِلْميَّةٍ يستوعب بها كل منهما تراثَه العلميَّ على منهج من مناهج التأمل الظاهرية أو الباطنية ، سَعْيًا إلى نظرية ضابطة من نظريات ترتيب المقدمات والنتائج - ويجري مجراه كذلك اتِّباعًا فابْتِداعًا ؛ فتتحول مَلَكَتُه العِلْميَّةُ كذلك من مرحلة الاستعداد ، إلى مرحلة القدرة ، حتى مرحلة المهارة .

كتبُ البيان والتبيين والحيوان والأغاني وغيرِها ، ثم كتبُ الصناعتين والوساطة وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وشرح الحماسة وشرح ديوان المتنبي وغيرِها ، ثم كتبُ العمدة والموازنة وعيار الشعر والمثل السائر ومنهاج البلغاء وغيرِها ، ثم كتبُ الديوان وفي الميزان الجديد ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا ونمط صعب ونمط مخيف وأباطيل وأسمار والنقد الأدبي الحديث وغيرِها ، ثم كتبُ قراءة الشعر والصورة في الشعر العربي والرمز والرمزية في الشعر المعاصر وواقع القصيدة العربية وحركة الشعر الحديث في سورية وعن بناء القصيدة العربية الحديثة وتشريح النص وغيرِها !

وكتبُ الكتاب والمقتضب ومعاني القرآن والأصول وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات وشرح المفضليات وغيرِها ، ثم كتبُ

الخصائص وسر صناعة الإعراب والمقرب والبحر المحيط وغيرِها ، ثم كتبُ الأمالي وشرح المفصل وشرح الكافية وخزانة الأدب ونتائج الفكر وغيرِها ، ثم كتبُ الاقتراح وهمع الهوامع والألفية وشرح الأشموني وحاشية الصبان وحاشية الشهاب وشرح بانت سعاد والمغني وغيرِها ، ثم كتبُ النحو الوافي واللغة العربية معناها ومبناها والبيان في روائع القرآن وخصائص الأسلوب في الشوقيات وبناء الجملة العربية والنحو والدلالة والجملة في الشعر العربي ومدخل إلى دراسة الجملة العربية ونظام الجملة في شعر المعلقات وغيرِها !

مادة بعضها من بعض كذلك ، وبعضها يدل على بعض مشهورًا ومغمورًا ، لا يرضى إلا أن يُحْشَر معه – ينبغي لكلٍّ من طالِبَيْ علم الشعر وعلم النحو العربيين ، أن يبحث عنها ، ويستوعبها ، ويتحقق بها ، ويلهج بذكرها ؛ فيلتبس بها ظاهرا وباطنا ، حتى يقَلِّدها عفوًا ، أو يتَناساها قصدا ! فإن قلدها انضاف إلى مذهب أصحابها ، وإن تناساها انطلق إلى مَذْهَبٍ ينفرد به حتى ينضاف إليه فيه غيرُه !

٥

بهؤلاء جميعا وأمثالهم على مسيرة التاريخ الثقافي ، تكون فنونُ اللغة وعلومُها دائما ، وتحيا حياة طيبة ، ثم على آثارهم يسعى غيرُهم من أصحاب اللغة ، إِكْبارًا لهم ، ووُثوقًا بهم ، ولا يقبلون فيهم لَوْمَةَ لائِمٍ !

وأنى لهم أن يُخْطِئوا مَرامِيَهُمُ اللغوية بأعمالهم على أيِّ وجه كان الخطأ ، فيُليموا وهم الموهوبون المُوَفَّقون إلى تثقيف مواهبهم ، المشتغلون دائما بأعمالهم ، المُتَطَوِّرون من حال إلى أحسن منها !

ولكننا نتكلم من ذلك في مسألة خطأ الشاعر والفصيح ؛ فخطأُ عالم الشعر ربما ينبني على خطأ الشاعر نفسه ، وخطأُ النحوي (عالم النحو) ربما ينبني على خطأ الشاعر والفصيح كليهما ! بل نستطيع أن نكتفي من هذا بالكلام في خطأ الشاعر ؛ فالفصيحُ نفسه ربما يكون هو الشاعر نفسه ، كما شرحت فيما سبق !

٦

لقد رأى بعض العلماء المعاصرين أن الشاعر يخطئ أحيانا مَرْماه اللغوي ، وأن خطأه حَدَثٌ واقعي ، يدل على غفلة تفكيرية بأثر اضطراب أو شرود أو جهل . وأبى ذلك غيرُهم من المعاصرين ، بأنَّ خطأه وَجْهٌ مُهْمَلٌ من الصواب ، يَدُلُّ على خَطْرَةٍ فكرية طارئة لم تتمكن من العادات الجماعية بعد !

وليس المذهبان بجديدين ؛ فلقد كان عبد الله بن أبي إسحاق المتوفى سنة ١١٧هـ - وهو وابنه زيد هما المذكوران في شعر عمّار السابق ذكره - وتلميذُه عيسى بن عمر المتوفى سنة ١٤٩هـ ، وأبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ ، وتلميذُه يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢هـ - كلُّهم من أئمة النحويين (علماء النحو) ، وكان الأَوَّلانِ أَمْيَلَ إلى تخطئة

الشاعر إذا خالف القاعدة ، وكان الآخِران أَمْيَلَ إلى تصويبه واعتماد ما خالفهما فيه والقياس عليه . ولقد دَرَجَ البصريون مَدْرَجَ الأَوَّلَيْنِ ، ودَرَجَ الكوفيون مَدْرَجَ الآخِرَيْنِ ؛ " وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها " !

قال القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢هـ : " دونَكَ هذِهِ الدَّواوينَ الْجاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلاميَّةَ ؛ فَانْظُرْ : هَلْ تَجِدُ فيها قَصيدَةً تَسْلَمُ مِنْ بَيْتٍ أَوْ أَكْثَرَ لا يُمْكِنُ لِعائِبٍ الْقَدْحُ فيهِ ، إِمّا في لَفْظِه وَنَظْمِه ، أَوْ تَرْتيبِه وَتَقْسيمِه ، أَوْ مَعْناهُ ، أَوْ إِعْرابِه ؟ وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَ الْجاهِلِيَّةِ جُدّوا بِالتَّقَدُّمِ ، وَاعْتَقَدَ النّاسُ فيهِمْ أَنَّهُمُ الْقُدْوَةُ وَالْأَعْلامُ وَالْحُجَّةُ - لَوَجَدْتَ كَثيرًا مِنْ أَشْعارِهِمْ مَعيبَةً مُسْتَرْذَلَةً، وَمَرْدودَةً مَنْفيَّةً ! لكِنَّ هذَا الظَّنَّ الْجَميلَ وَالِاعْتِقادَ الْحَسَنَ ، سَتَرَ عَلَيْهِمْ ، وَنَفَى الظِّنَّةَ عَنْهُمْ ؛ فَذَهَبَتِ الْخَواطِرُ فِي الذَّبِّ عَنْهُمْ كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَقامَتْ فِي الِاحْتِجاجِ لَهُمْ كُلَّ مَقامٍ ! وَما أَراكَ - أَدامَ اللهُ تَوْفيقَكَ ! - إِذا سَمِعْتَ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ :

يا راكِبًا بَلِّغَ إِخْوانَنا مَنْ كانَ مِنْ كِنْدَةَ أَوْ وائِل

فَنَصَبَ بَلِّغْ - وَقَوْلَه :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللهِ وَلا واغِل

فَسَكَّنَ أَشْرَبُ - وَقَوْلَه :

لَها مَتْنَتانِ خَظاتا كَما أَكَبَّ عَلى ساعِدَيْهِ النَّمِرْ

فَأَسْقَطَ النّونَ مِنْ خَظاتانِ لِغَيْرِ إِضافَةٍ ظاهِرَةٍ - وَقَوْلَ لَبيدٍ :

تَرّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذا لَمْ أَرْضَها أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمامُها

فَسَكَّنَ يَرْتَبِطَ وَلا عَمَلَ فيهِ لِلَمْ – وَقَوْلَ طَرَفَةَ :

قَدْ رُفِعَ الفَخُّ فَماذا تَحْذَري

فَحَذَفَ النّونَ – وَقَوْلَ الْأَسَديِّ :

كُنّا نُرَقِّعْها وَقَدْ مُزِّقت وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرّاقِع

فَسَكَّنَ نُرَقِّعُها – وَقَوْلَ الْآخَرِ :

تَأْبى قُضاعَةُ أَنْ تَعْرِفْ لَكُمْ نَسَبًا وَابْنا نِزارٍ وَأَنْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَد

فَسَكَّنَ تَعْرِفَ – وَقَوْلَ الْآخَرِ :

يا عَجَبًا وَالدَّهْرُ جَمٌّ عَجَبُهْ

مِنْ عَنَزيٍّ سَبَّني لَمْ أَضْرِبُهْ

فَرَفَعَ أَضْرِبُهُ – وَقَوْلَ الْفَرَزْدَقِ :

وَعَضُّ زَمانٍ يا ابْنَ مَرْوانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ الْمالِ إِلّا مُسْحَتًا أَوْ مُجَلَّف

فَضَمَّ مُجَلَّفًا (...) ثُمَّ تَصَفَّحْتَ مَعَ ذلِكَ ما تَكَلَّفَهُ النَّحْويّونَ لَهُمْ مِنَ الِاحْتِجاجِ إِذا أَمْكَنَ ، تارَةً بِطَلَبِ التَّخْفيفِ عِنْدَ تَوالِي الْحَرَكاتِ ، وَمَرَّةً بِالْإِتْباعِ وَالْمُجاوَرَةِ ؛ وَما شاكَلَ ذلِكَ مِنَ الْمَعاذيرِ الْمُتَمَحَّلَةِ ، وَتَغْييرِ الرِّوايَةِ إِذا ضاقَتِ الْحُجَّةُ ؛ وَتَبَيَّنْتَ ما راموه في ذلِكَ مِنَ الْمَرامِي الْبَعيدَةِ ، وَارْتَكبوا لِأَجْلِه مِنَ الْمَراكِبِ الصَّعْبَةِ ، الَّتي يَشْهَدُ الْقَلْبُ أَنَّ الْمُحَرِّكَ لَها وَالْباعِثَ عَلَيْها ، شِدَّةُ إِعْظامِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَالْكَلَفُ بِنُصْرَةِ ما سَبَقَ إِلَيْهِ الِاعْتِقادُ وَأَلِفَتْهُ النَّفْسُ (...) شَكَكْتَ في أَنَّ نَفْعَ هذَا الْحُكْمِ عامٌّ ، وَجَدْواهُ شامِلٌ ، وَأَنَّ الْمُتَقَدِّمَ يَضْرِبُ فيهِ بِسَهْمِ الْمُتَأَخِّرِ ، وَالْجاهِلِيَّ يَأْخُذُ مِنْهُ ما يَأْخُذُ

الْإِسْلاميُّ ، وَأَنَّه قَوْلٌ لا حَظَّ لَه فِي الْعَصَبيَّةِ ، وَلا نَسَبَ بَيْنَه وَبَيْنَ التَّحامُلِ" .

(الوساطة)

لقد أراد القاضي الوساطة بين المتنبي وخصومه ، فاقتص آثار الشعراء مُخْطِئِينَ ، حتى يُبَرِّئَ المتنبيَ بعُموم البَلْوى ، ثم يَحْكُمَ بضرورة الاعتماد في تقدير الشاعر المُخْطِئِ ، على الغالب عليه ؛ فإن غلب عليه الصوابُ وَجَبَ تَصْنيفُه في طائفة المُصيبين ، وإن غلب عليه الخطأُ وجب تَصْنيفُه في طائفة المُخْطئين ، فأما عِصْمَتُه فَرَأْيٌ فائِلٌ لا يراه لنفسِه الشاعرُ نَفْسُه إلا أن يكون مَهْووسًا ، وهو الإنصافُ !

٧

ولكنْ فات القاضيَ الجرجانيَّ أنه ينبغي ألا يرى لنفسه العصمةَ كذلك النحويُّ (عالم النحو) نفسُه - وأنا أَرُدُّ عَجُزَ كلامي هنا على صَدْرِه - فربما خَفِيَ عليه مرادُ الشاعر اضطرابًا أو شُرودًا أو جَهْلا كذلك ؛ فاستعجل التخطيء كما استعجل الشيخ القاضي نفسُه تخطيء بعضِ ما أورد على الشعراء !

قال ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣هـ : " حَكى الصّاحِبُ ابْنُ عَبّادٍ في صَدْرِ رِسالَةٍ صَنَعَها عَلى أَبي الطَّيِّبِ ، قالَ : حَدَّثني مُحَمَّدُ بْنُ يوسُفَ الْحَمّاديُّ ، قالَ : حَضَرْتُ بِمَجْلِسِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ طاهِرٍ ، وَقَدْ حَضَرَه الْبُحْتُرِيُّ ، فَقالَ : يا أَبا عُبادَةَ ، أَمُسْلِمٌ أَشْعَرُ أَمْ أَبو نُواسٍ ؟

فَقالَ : بَلْ أَبو نُواسٍ ، لِأَنَّه يَتَصَرَّفُ فِي كُلِّ طَرِيقٍ ، وَيَبْرَعُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ : إِنْ شاءَ جَدَّ ، وَإِنْ شاءَ هَزَلَ ، وَمُسْلِمٌ يَلْزَمُ طَرِيقًا واحِدًا لا يَتَعَدّاهُ ، وَيَتَحَقَّقُ بِمَذْهَبٍ لا يَتَخَطّاهُ . فَقالَ لَه عُبَيْدُ اللهِ : إِنَّ أَحْمَدَ بْنَ يَحْيى ثَعْلَبًا لا يُوافِقُكَ عَلى هذا . فَقالَ : أَيُّها الْأَميرُ ، لَيْسَ هذا مِنْ عِلْمِ ثَعْلَبٍ وَأَضْرابِه مِمَّنْ يَحْفَظُ الشِّعْرَ وَلا يَقولُه ؛ فَإِنَّما يَعْرِفُ الشِّعْرَ مَنْ دُفِعَ إِلى مَضايِقِه . فَقالَ: وَرِيَتْ بِكَ زِنادي ، يا أَبا عُبادَةَ ! إِنَّ حُكْمَكَ فِي عَمَّيْكَ أَبِي نُواسٍ وَمُسْلِمٍ ، وافَقَ حُكْمَ أَبِي نُواسٍ فِي عَمَّيْهِ جَريرٍ وَالْفَرَزْدَقِ ؛ فَإِنَّه سُئِلَ عَنْهُما، فَفَضَّلَ جَريرًا ، فَقيلَ لَه : إِنَّ أَبا عُبَيْدَةَ لا يُوافِقُكَ عَلى هذا ، فَقالَ : لَيْسَ هذا مِنْ عِلْمِ أَبِي عُبَيْدَةَ ؛ فَإِنَّما يَعْرِفُه مَنْ دُفِعَ إِلى مَضايِقِ الشِّعْرِ " .

(العمدة)

وهذه عادةُ الشعراء التي يُدافعون بها عادةَ النحويين (علماء النحو) تلك ، ويُؤَرِّثُ نارَها طلابُهما الغاوونَ الْمُذَبْذَبون بينهما كليهما جميعا معا ، حتى إذا سَكَتَ عن كل منهما الغضبُ خالصةً نيَّتُه للحق ، وبَرِئَ من التَّسَرُّع صافيةً نفسُه من الغُرور - قال في الآخرِ غيرَ ما قال ؛ فقال فيه الآخرُ غيرَ ما قال ؛ فاجتمع الشمل في خدمة اللغة فَنًّا وعِلْمًا : يعتمد الشاعرُ من النحوي (عالم النحو) ، على أَرْضٍ قَويَّةٍ راسِخَةٍ ، فيُؤَصِّلُ بنيانَ فَنِّه ، ويتعلق النحويُّ (عالمُ النحو) من الشاعر ، بِسَماءٍ قَويَّةٍ سامِقَةٍ ، فيُفَرِّعُ بنيانَ عِلْمِه !

حَرَكَةُ الْأَسْماءِ الْعَرَبيَّةِ

١

مساء الأحد الأول من كل شهر عربي بمجلس قَصْرٍ ضَخْمٍ فَخْمٍ، تنعقد أَحَديَّةُ الأستاذ الدكتور سليمان الرحيلي عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة من المدينة المنورة (صالونه الثقافي) . وليلة الأربعاء ٢٦/٦/١٤٣١هـ = ٩/٦/٢٠١٠م ، هاتفني صاحب الأَحَديَّة في أن أختار مسألةً أحاضر بها ضيوفه هذا الأحد القادم ١/٧ (ليلة الاثنين) ، ويحاورونني فيها :

- أَمْثالُكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ ، لا يَجوزُ أَنْ يَمُرّوا عَلَيْنا وَيُحْسِنوا إِلَيْنا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ نُؤَدِّيَ لَهُمْ بَعْضَ حُقوقِهِمْ عَلَيْنا؛ وقد رأينا أن نصطاد الْعُصْفورَيْنِ بِحَجَرٍ واحِدٍ !

فهمت أنه لقاء وعشاء ، وقبلت دعوته الكريمة ، ووعدته أن أختار ما يناسب عموم المثقفين ، وطمأنته بأنني أعرف النظام، فنفى قلقه من ذلك ، وانتظر أن أحدد له المسألة الخميس .

حِرْتُ فيما أحاضر وقد تَوَرَّطْتُ ولا وقت :

- لا حيلة إلا أن أعيد محاضرة قديمة !

مررت في خزانة حاسوبي العامرة ، فبَرَزَتْ لي محاضرتي " قرابة الأدب " التي نشرتها بالجزء الثاني من " نجاة من النثر الفني" ، ثم

انْسَلَخَتْ منها فكرةُ موازنةٍ في دقائق تجربة الشوق إلى مكة المكرمة ودقائق التعبير عنه ، ولاسيما أننا في المدينة المنورة أختها البرة – شرفهما الله تعالى ! – بين قصيدتي محمد رجب البيومي وأبي همام عبد اللطيف عبد الحليم ، ثم انْسَلَخَتْ من هذه فكرةُ تزويرِ معاني الأسماء من خلال قصيدة أحمد بسام ساعي " في هوى الإرهاب " وما أشبهها ؛ فإذا الفكرةُ قد انْسَخَلَتْ، فَسَطَعَتْ (سياسة التسمية ... فلسفة التسمية ... حركة التسمية ... حركة الأسماء العربية) ! أرسلت إلى صاحب الأَحَديَّة رسالة جَوّاليّة (مَحْموليّة ، نَقّاليّة ، خَلَويّة ، مُبَيْليّة) ، أُحَدِّدُ العنوان (حَرَكَةُ الْأَسْماءِ الْعَرَبيَّةِ) ، لأُلْزِمَ بتَوْفِيَتِهِ نَفْسي . ثم لم أَكَدْ أفكر فيه حتى زارني صديق كريم لم أره منذ ربع قرن ، وانقطعت له حتى لم ننم ليلتنا ، وترددنا على الحرم بسيارته ، نصلي ، ثم نخرج فلا نعرف السبيل بالسيارة ، فنذرع من المدينة المنورة حَلْقَةً مُفْرَغَةً !

أفلتت مني ليلتا الجمعة والسبت إلا قليلا ، فتَعَجَّلْتُ الفراغ . ثم طلبتُ من صاحب الأَحَديَّة أن يوصي بي مِنْ رواد الأَحَديَّة مَنْ يُقارِبُني سَكَنًا ؛ فحملني إليه من بعد صلاة العشاء ، الأستاذُ الدكتور ياسر نور ، الشاب اللطيف المكرم ، أستاذ التاريخ المشارك بجامعتي طيبة والمنصورة، فإذا المجلس حافل ، طوع يديه التمر والماء والمناديل الورقية والقهوة العربية والشاي الأحمر والشاي الأخضر ! أجلسني صاحب الأَحَديَّة بصدر المجلس ، وجلس عن يميني ، وأجلس أكبر ضيوفه علما وفضلا

عن يساري من دون أن أدري ، ثم جلس غَيْرُنا حيث انتهى به المجلس . قدمني صاحب الأَحَديَّة بما تَيَسَّرَ له ، ثم أتاح لي أربعين دقيقة .

٢

شكرتُ لصاحب الأَحَديَّة هذا التقدير الكبير ، ورجوت أن أُوَفَّقَ إلى ما يُمْتِعُ الضيوف ويُغْريهم بالمشاركة ، واعتذرت عن تقصيري المُتَوَقَّع ، بقصر مدة الاستعداد لَمقامٍ يستحق الإحاطة الكاملة ، وبكوني لغويا أديبا مسكينا لا يقوم لعلماء الحضارة ، ولا يملك لها غير فَهْمٍ شِعْرِيٍّ تَخْييليٍّ مِسْكينٍ ، يراها فيه شجرةً جَذْرُها المَعْنويّاتُ وفَرْعُها المادّيّاتُ ، ولا حَياة للفرع إلا بالجذر ولا سُطوع للجذر إلا بالفرع ، وليست المعنويات غير الثقافة (العقيدة وما انبنى عليها من علوم ومعارف وخبرات وأقوال وأفعال وإقرارات منذ اعْتُقِدَتْ) ، التي تجري في خلاياها لغتها الخاصة مجرى النُّسْغ الدافق . ثم وعدت الضيوف بالإيجاز ، عَجْزًا لا قُدْرَةً ، ورغبةً في الإنصات إليهم ، ولاسيما أنني انتويت أن أشارك بكلمة الليلة في ندوة دولية مقبلة ، ولا أستغني في تطويرها عن تعليقاتهم . ثم ذكرت لهم أنني عَنْوَنْتُ الكلمة بـ" سِياسَةُ الْأَسْماءِ الْعَرَبيَّةِ " ، ثم خِفْتُ أن يَفْهموني صَوابًا (أن يُصيبوا فَهْمي) ، فوضعت " حَرَكَةُ " موضع " سِياسَةُ " !

٣

أُحِبُّ مِنَ الْأَسْماءِ ما وافَقَ اسْمَها وَأَشْبَهَه أَوْ كانَ مِنْهُ مُدانِيا

جَميلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَعْمَرٍ الْعُذْريُّ

مما يجوز أن تسمعه هذه الأيام إذا استحسنت لبعض آبائنا من أسماء أبنائهم العربية ، واستقبحت لغيرهم من أسماء أبنائهم العجمية :

– دعونا من الأسماء العربية ! حدثونا عن الأفعال العربية ! إلامَ نَظَلُّ مخدوعين بتراث الأسماء العربية الجوفاء الصاخبة ! إذا فعلنا أفعال الملائكة ، لم يَضُرَّنا أن نَتَسَمّى بأسماء الشياطين !

فإذا فمك الذي انفتح لتَذَوُّق فَرْقِ ما بين حُسْن عُروبة الاسم وقُبْح عُجْمته ، قد جَمَدَ على الحَجَرِ الذي أَلْقَمَكَ إياه الأبُ الذي لم تستحسن اسمَ ابنه العَجَميَّ ، وكأنك اعتقدت عقيدة فاسدة ، ثم انطلقت تفسد الحضارة الإنسانية !

سبحان الله ! ما أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبارِحَةِ !

ألم يكن من معالم خداع الصَّهايِنة في زمان ذِلَّتهم للغربيين ، أن حَرَّفوا أسماءهم العبرية ، إلى أسماء غربية – وإن بقيت معروفة لأهل العلم – واخْتَفَوْا بها في سَواد الغربيين ، حتى إذا ما الْتَبَسَت الأسماءُ الْتِباسًا تامًّا ، ظهرت الأفعال الفاسدة المفسدة ، وأظهرت معها الأسماء الخفية !

أَتُرى ذلك العربيَّ المستعجمَ ، يَسْتَنُّ بسنة الصهاينة ، أم يَتَمَنّى أن ينخدع الغربيون مرة أخرى !

ليت ذلك الساخرَ من الأفعال العربية ، الساخطَ على الأسماء العربية - عرف أن تعريب الأسماء هو طريق تعريب الأفعال ، إذًا لتحولت حاله ، وتغير مقاله ! ليته ذكر كيف عَلَّمَ الحقُّ - سبحانه ، وتعالى! - آدمَ " الْأَسْماءَ كُلَّها " ، ثم غَلَّبَه بعلمها على ملائكته ، ثم أَهْبَطَه بعد حينٍ إلى الأرض ، حيث احتاج إلى معاملة تلك الأشياء المُسَمّاة ؛ فاشتق منِ اسمِ كل شيءٍ يعامله ، فعلَ معاملته ، فَلاءَمَه أحسنَ مُلاءَمَة ، وظل يفعل ذلك، حتى رسخت له فيه ملكةٌ .

رُبَّما أَشارَ إِلى هذِهِ الْمَلَكَةِ الْبُستيُّ بِقَوْلِه :

تَنازَعَ النّاسُ فِي الصّوفِيِّ وَاخْتَلَفوا قِدْمًا وَظَنّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصّوف
وَلَسْتُ أَمْنَحُ هذا الِاسْمَ غَيْرَ فَتًى صافى فَصوفِيَ حَتّى لُقِّبَ الصّوفي [٩٣]

---

[٩٣] تَأَنَّيْتُ بعد إنشاد البيتين أشرح للضيوف كيف ضَعَّفَ البستي نسبة الصوفيِّ إلى الصوف ، على رغم أنها النسبة الصحيحة ، وأن في اشتقاق تصوف يتصوف من الصوف ولستُ بصوفي ، بيانَ نشأة الأفعال من الأسماء على النحو المذكور المعتمد على بعض تفسيرات العبارة القرآنية ؛ فإذا صَوْتُ إمام المداحين سيد النقشبندي ، يملأ المكان ، يُصَوِّفُني على رَغْمي : مَوْلايْ ، يا مَوْلايْ ... ، فأَصْمَتُّ هاتفي ، وقلتُ: عَجَبًا ! مَنْ أَعْلَمَ مُهاتِفِي أنني الآن في حديث اشتقاق تَصَوَّفَ يَتَصَوَّفُ فهو مُتَصَوِّفٌ!

ثم مضى بنو آدمَ بمَلَكَةِ أبيهم على سُنَّتِه ، واتسعت لهم الأرض ، وتفرقوا ذكورا وإناثا وشعوبا وقبائل ، واختلفوا ألسنة وألوانا ، ولكنهم بقوا ينتبهون إلى وُجود الشيء ، فيُسَمّونه ، ثم يعاملونه باسمه ، فيشتقون منه أفعال معاملتهم له ، فإن لم يُسَمّوه أنكروه ، وكأنه لم يكن ، أو كأنهم لم ينتبهوا إليه ، حتى ظهرت فيهم على اختلافهم ، لغةُ " لا مِساسَ " ، لغةُ الحديث عن الشيء المنكر ، لغةٌ يتجنب فيها بنو آدم تسمية الشيء إذا أنكروه ، وكأنه إذا سُمِّيَ حضر من غياب أو ظهر من خفاء ، مَخوفًا كان أو مَكْروهًا أو مُسْتَثْقَلًا !

ذَكَروا أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَالْأَشْتَرَ النَّخَعيَّ الْتَقَيا يَوْمَ الْجَمَلِ ، فَاخْتَلَفا ضَرْبَتَيْنِ : ضَرَبَهُ الْأَشْتَرُ فَأَمَّه ، وَواثَبَه عَبْدُ الله فَاعْتَنَقَه فَصَرَعَه وَجَعَلَ يَقولُ :

اقْتُلوني وَمالِكًا وَاقْتُلوا مالِكًا مَعي

وَما كانَ النّاسُ يَعْرِفونَه بِمالِكٍ ، وَلَوْ قالَ الْأَشْتَرَ ثُمَّ كانَتْ لَه أَلْفُ نَفْسٍ ، ما نَجا مِنْها بِشَيْءٍ ، وَما زالَ يَضْطَرِبُ في يَدَيْ عَبْدِ اللهِ حَتّى أَفْلَتَ[٩٤]!

---

[٩٤] زعمت للضيوف أن عبد الله بن الزبير ربما استثقل لقب مالك (الأشتر النخعي) ، الذي كان قد ملأ الدنيا لسيدنا علي – كرم الله وجهه ! – تَشَيُّعًا وفُروسيَّةً وغَلَبَةً ، وشغل الناس ؛ فلم يستطع أن ينطقه ، وكأنه إذا نَطَقَه سَلَّمَ له بذلك الصيت الباهر !

إن أطراف المعاملات الفاعلة ثلاثة : [أنا ، وأنت ، وهو]، ينبغي ألا يَزْهَدَ أيٌّ منا في نسبة عمله إلى نفسه باسمه ؛ وإلا حَلَّ مَحَلَّه أَيٌّ من الطرفين الآخرين ؛ فتَعْرَجُ المعاملات ، ويضطرب قانون الفعل ، ويظهر الفساد في الأرض ؛ فـ" إِنَّ الْمُتَشَبِّعَ بِما لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زورٍ " !

زَعَموا أَنَّ تاجِرًا اقْتَرَضَ مِنْ جُحا ، وَاسْتَمْهَلَه مُدَّةً ، فَلَمّا انْقَضَتْ أَقْبَلَ الضّاحِكُ الْباكي يَتَقاضاهُ : أَنا جُحا ! فَأَنْكَرَهُ التّاجِرُ ، فَاتَّهَمَ مَلابِسَه ، فَذَهَبَ فَغَيَّرَها ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَتَقاضاهُ ، فَأَنْكَرَه ، فَاتَّهَمَ مَلابِسَه ، فَذَهَبَ فَغَيَّرَها، ثُمَّ أَقْبَلَ يَتَقاضاهُ ، فَأَنْكَرَه ، فَاتَّهَمَ مَلابِسَه ، فَذَهَبَ فَغَيَّرَها ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَتَقاضاهُ ؛ فَأَنْكَرَه : وَاللهِ لَوْ خَرَجْتَ مِنْ جِلْدِكَ لَمْ أَعْرِفْكَ[٩٠] !

من ثم ينبغي أن نسمي الأشياء العربية أسماءً عربية – وكل شيء انسلك في نظام الحياة العربية ودار فيه فهو عربي يستحق أن يسمى اسما عربيا – وألا نُحَرِّفَ هذه الأسماء العربية عن مواضعها ، مهما أغرتنا أحوال الضعف والقوة ؛ فإن الأيام دُوَلٌ ، فلو سميناها أسماءً عَجَمِيَّةً – لا قدر الله ! – ثم دالت دولة العجم ، لم ندر بأي وَجْهٍ نَلْقَى الأسماء العربية !

وأهم الأشياء لنا وأغلاها لدينا وأكرمها علينا ، أبناؤنا أكبادنا التي تمشي على الأرض . ينبغي أن نسميهم أسماء عربية صحيحة حسنة ،

---

[٩٠] لقد صار اسم جُحا غير العربي ، عَلَمًا عالميًّا مُطْلَقًا ، يُمَثِّلُ بهذا المقام للعالمين ، كيف يتَّحِدُ فِعْلُ الإنسان (الإقراض) واسْمُه (جحا) ، حتى ليَتَحَرّى ظالمُه إِنْكارَ فعله بإِنْكارِ اسمه !

وأن نشرح لهم معانيها ومبانيها وبواطنها وظواهرها ، قليلا قليلا ، بما يَتَيَسَّرُ لهم ولنا ، وإلا زَهِدوا فيها ، تسألهم عنها ، وما مِنْ مُجيبٍ ، وكأنها أسئلة غير مُقَرَّرة عليهم ، فإذا أَلْحَحْتَ تَبَرَّؤوا لك منها ، حتى تتركهم ناعِمينَ بجهلهم !

قُلْتُ لِوَسامٍ الْمِصْريِّ الَّذي يَضُمُّ أَوَّلَ اسْمِه وَحَقُّهُ الْفَتْحُ : ما وَسامٌ ؟ فَلَمْ يَعْرِفْ ، وَالْوَسامُ الْوَسامَةُ كَالسَّماحِ وَالسَّماحَةِ ! وَقُلْتُ لِطَلالٍ السُّعوديِّ : ما طَلالٌ ؟ فَلَمْ يَعْرِفْ ، وَرُبَّما ظَنَّه مِنْ آثارِ الدِّيارِ ، وَالطَّلالُ الْهَيْئَةُ الْحَسَنَةُ ! وَقُلْتُ لِمِرْفَتَ الْمِصْريَّةِ : ما مِرْفَتُ ؟ فَقالَتِ: اسْمٌ مِنَ الْأَسْماءِ التُّرْكيَّةِ ! فَقُلْتُ لَها : إيفاتْ إيفاتْ ! وَهُوَ مَرْوَةُ مُحَرَّفًا تَحْريفًا تُرْكيًّا ! وَقُلْتُ لِأَسْماءَ السُّعوديَّةِ : ما أَسْماءُ ؟ فَقالَتْ : أَسْماءُ ! أَلا تَعْرِفُ الْأَسْماءَ ! أَنَا الْأَسْماءُ ! فَقُلْتُ لَها : وَماذا في جَمْعِ اسْمٍ ! وَأَسْماءُ فَعْلاءُ مِنَ الْوَسامَةِ ، مِثْلُ حَسْناءَ مِنَ الْحُسْنِ [٩٦] !

فكيف نُسَمّي الأسماءَ العربية ، أَنَنْقُلُها أم نَرْتَجِلُها [٩٧] ؟

---

[٩٦] سَخِرْتُ للضيوف بأنني عَدَلْتُ في جَهْلِ الأسماء بين أبنائنا المصريين والسعوديين ، ولو كنت في غير هذا المقام لأكثرتُ من أسماء أبنائنا السعوديين ، أو لاقتصرتُ عليها!

[٩٧] غَيَّرْتُ هذا السؤال أشرحه للضيوف : أَنَجِدُ الأسماء في سياقاتها ، فنأخذها لنسمي بها ، أم نستحدثها من غير أن نأخذها من سياقات ؟ واستطردت إلى تسمية الآباء أبناءهم بما كانوا يحبون أن يَتَسَمَّوْا ، كاسم ابني "بَراء" ، الذي سَمَّيْتُه إياه وهو أَحَبُّ إليَّ مِنِ اسمي على جَلاله !

وكيف نَصونُها ، أَنُوَرِّثُها أم نُعَلِّمُها [98] ؟

وكيف نُعامِلُها ، أَنُرَدِّدُها أم نَتَذَوَّقُها [99] ؟

قالَ عَبْدُ اللهِ الْبَرَدّونيُّ في قَصائده :

هُنَّ أَنّى ذَهَبْنَ وَجْهُ بِلادي جِئْنَ عَنْه وَجِئْنَ مِنْهُ اخْتِصارا

أَيُّ أَسْمائِهِنَّ أَشْذى نَثيثًا أَيُّ أَوْصافِهِنَّ أَشْهَى ابْتِكارا

قَدْ أَرى هذِه تَعِزًّا وَتَبْدو تِلْكَ صَنْعا هاتيكَ تَبْدو ذَمارا

تِلْكَ تَبْدو بَيْحانَ هاتيكَ إِبًّا تِلْكَ لَحْجًا هذي تَلوحُ ظَفارا

قَدْ أُسَمّي هذي سُعادًا وَأَدْعو هذِه وَرْدَةً وَهذِي النَّوارا

هُنَّ ما شِئْتُ مِنْ أَسامٍ وَإِنّي كَيْفَما شِئْنَ لي أَموتُ اخْتِيارا [100]

إن التسمية ظاهرة ثقافية لغوية اجتماعية متغيرة ، تتحرك حركة تاريخية جغرافية دائبة ، ربما ظنها بعض الناس حركةً عَمْياءَ عما يحدث لها ، ولو تأمل لوجدها مُتَعامِيَةً لا عمياء – أو ربما ظنها حركةً صَمّاءَ عما يصخب بها ، ولو تأمل لوجدها مُتَصامَّةً لا صماء؛ فما أكثر ما جادل

---

[98] ثم غَيَّرْتُ هذا السؤال كذلك أشرحه للضيوف : أنوصي أبناءنا بالأسماء التي يسمونها أبناءهم ، أم نعلمهم حقائقها ودقائقها ؛ فيتعلقون بها أسماءً لأبنائهم لا مَذْهَبَ عنها ؟

[99] ثم غَيَّرْتُ هذا السؤال كذلك أشرحه للضيوف : أنكتفي بكثرة استعمال الأسماء ، أم نتعلم الطَّرَبَ لسماعها والاستمتاع بنطقها ؟ واستطردتُ إلى مثال أبي الأسود الدؤلي اللغوي الشاعر الإمام ، الذي كان يجد للكلام في حَلْقِه ، مثلما يجد للطعام !

[100] نبهت الضيوف على ما في هذه القصيدة ، من بَداعة تحريك الأسماء العربية !

الطاغوت في أسماء الله الحسنى ، فلما وجدها في أذكار الصباح والمساء ، تَسَمّى بها !

أَلَمْ يَتَسَمَّ مُسَيْلِمَةُ الْكَذّابُ ، رَحْمنَ الْيَمامَةِ[101] !

من ثم ينبغي تعميم الثقافة اللغوية الاجتماعية ، التي تُحَرِّكُ التسميةَ حَرَكَتَها الطبيعية ؛ فَإِنَّ التَّسْمِيَةَ لا تُفْرَضُ ولا تُحَرَّمُ، بل تُساسُ !

أَلَمْ يُحَرِّمِ الْفَرَنْسِيُّ اسْمَ عَبْدِ الْقادِرِ وَالصُّهْيونِيُّ اسْمَ أَحْمَدْ ياسينْ ! فَماذا كانَ ؟ خَرَجَ جيلانِ مِنَ الْمَواليدِ لَيْسَ لِأَيٍّ مِنْهُمْ مِنِ اسْمٍ إِلّا عَبْدَ الْقادِرِ وَأَحْمَدْ ياسينْ ، جِهادًا بِالْأَسْماءِ في سَبيلِ الْجِهادِ بِالْأَفْعالِ[102] !

٤

ثم فتح صاحبُ الأَحَديَّة بابَ التَّعْليقات ، فكان كلُّ ضيف إذا بَدَأَ شَكَرَه ، وربما شَكَرَ المُحاضر ، وكنتُ كلما تكلم ضيف سألتُ عن اسمه صاحبَ الأَحَديَّة لأكرمه به ، فيَذْكُرُ ويَنْسى ، ثم لما أقبلتُ أعلق عليهم بأسمائهم ، وجدته يُصيبُ أيضا ويُخْطِئُ !

---

[101] عَجَّبْتُ الضيوف من حال هذا المتنبئ ، يكفر بالرحمن – سبحانه ، وتعالى ! – ويدعي النبوة ، ثم يجد اسمَ الرَّحْمن زينةَ كُلِّ لِسان ؛ فيَتَسَمّى رَحْمنَ اليمامة !

[102] لقد أعان المقامُ أهلَ الجزائرِ الأبيةِ وفلسطينَ المحتلةِ ، دون أعدائهم الجهلة – على حُسْنِ سِياسَةِ تَسْمِيَةِ الاسْمَيْنِ الكريمين الحُرَّيْنِ !

ولم أكن أظن أن يبادر إلى التعليق أكثر الضيوف ، فكنت أكتب أطراف أفكارهم على أَظْهُرِ ورقة مَثْنِيَّةٍ كتبتُ على وجهها ما مَهَّدْتُ به ، فلما امتلأت أَظْهُرُها انتقلت إلى وجهها ، فخَلَّلْتُ ما فيه !

فرحتُ بكثرة التعليقات دليلَ نجاح ، وأثنيتُ على أصحابها باستفادتي منها ، وقَدَّرْتُهم بتَذَوُّقِ ما سَجَّلْتُ لهم ، وزيادة أَدِلَّته أو مظاهره. وأستحسن الآن أن أُلْحِقَ تعليقَ كل ضيف تعليقي عليه ، لكيلا تنقطع عَلاقَةُ أطرافِ الأفكار .

تكلم الدكتور منصور سائلا : هل تتغير أصداء الأسماء بتغير الأزمان ؟ وما مدى قبول التصريح بالأسماء المستقبحة ؟ فذَكَّرني عادة جدتي - رحمها الله ! - أن تَمْنَعَني مِنْ ذِكْرِ بِنْتِ عِرْسٍ ، إلا بالأميرة ، وكأنَّ بِنْتَ عِرْسٍ تفرح بتَأْميرها ، فتَعِفُّ عن طيورها ، أو كأنني إذا سَمَّيْتُها حَضَرَتْ فافترست طيورها . وذَكَّرَني عادةَ المصريين أن يَتَجَنَّبوا تسمية مرض السرطان ، وكأنه إذا سَمَّوْهُ أصابهم !

ثم تكلم الدكتور عبد الباسط بدر مُنَبِّهًا على تطور دلالة الأسماء الحضارية ، الواضح في قوائم أسماء الطلاب والطالبات على توالي السنوات - ومشيرا إلى عادة العرب القديمة تسمية أبنائِهم الأسماءَ القبيحة وعبيدِهم الأسماءَ الحسنة ، وجاعلا تطور التسمية من مقاييس الغزو الحضاري ؛ فأعجبني أن نقيس بتطور التسمية درجة الغزو

الحضاري ، وذكرت كيف ظهر في أسماء بناتنا إِبّان رئاسة رونالد ريجان الرئيس الأميركي الأسبق ، اسم " نانسي " زوجته !

وعَلَّقَ صاحب الأَحَديَّة أن العرب القدماء كانوا يسمون أبناءهم لأعدائهم وعبيدهم لأنفسهم ، مُنَبِّهًا على أن من معالم التواصل الحضاري اجتماع الأمم على بعض الأسماء كـ" سَمير"؛ فذكرت أن من العار أن صار بعض آبائنا يتعمدون إخفاء أبنائهم في غيرهم ، بمثل " آدم " ، و"مريم " ، و" يوسف " ، من الأسماء المشتركة ، على جلالها !

ثم تكلم الدكتور عبد الله مؤكدا كلام صاحب الأَحَديَّة ، ومشيرا إلى أثر الأحوال السياسية في حركة التسمية في العقود الأخيرة ، ومُنَبِّهًا على ما يجده الآن من عودة واضحة إلى الأسماء العربية الأصيلة ، ومُتَمَسِّكًا بأثر مِهَن العائلات في تسمية أبنائهم (النَّجّار ، الحَدّاد ، الصّائِغ) ، ومُسْتَطْرِفًا من معالم حَجْب التسمية عند البدو ، أنهم يتشاءمون عند العَدِّ مِنْ رَقْم سَبْعَة ، فيسقطونه خشيةَ ما فيه مِنْ إيحاءٍ بدعائهم المشهور : اللهْ يِسْبَعْك؛ فخطر لي أن يكون دُعاءً بسَطْوَة السَّبُع ، فخالفني إلى أنه دعاء بإصابة السَّبْع الموبِقات (المُهْلِكات) !

ثم تكلم الدكتور راضي مؤكدا كلام الدكتور عبد الباسط، ومستطردا إلى عجائب أسماء البدو ، وتسمية بعضهم ابنته " جَزْمَة " ، من الجَزْم أي القَطْع ، ولم يخطر له قَطُّ تَلاقي النِّيَّة القاطعة والنَّعْل المقطوعة ! – ومُذَكِّرًا بتغيير رسول الله – صلى الله عليه ، وسلم ! – الأسماء القبيحة

إلا ما أَبى أصحابُها ؛ فأشرتُ إلى باب تغيير الأسماء القبيحة من صحيح البخاري .

ثم تكلم الدكتور ياسر نور رادًّا مشكلة تسمية الأسماء العربية ، إلى مشكلة اللغة العربية على وجه العموم ، ومستحضرا كلام ابن خلدون في وَلَعِ المغلوب بتقليد الغالب ؛ فأثنيت له على توحيد الظاهرة الباطنة وراء المظاهر المختلفة .

ثم تكلم الدكتور أحمد الزعبي مشيرا إلى طريقة الماليزيّين الغريبة في تسمية أبنائهم ، بفتح المُصْحَف عَفْوًا ، واختيار ما تقع عليه عَيْنُ المُسَمّي ، حتى سَمَّوْا أحد ذكورهم مرة " ناقَةَ اللهِ وَسُقْياها " – وذاكرا كيف وَلِعَ الناس بتركيب الأسماء مضافةً إلى " الدّين " ، إعجابا بنور الدين زنكي ؛ فحكيت له في مثل ذلك عن الدكتور علي جمعة مفتي مصر ، أن عَيْنَ مُسَمّي بِنْتِه ذلك ، وَقَعَتْ مَرَّةً على " الزّانِيَةُ وَالزّاني " ، فسماها " الزّانِيَة " ، ثم نَبَّهْتُ على أنني سمعت ذلك منه قبل تَولّيه منصب الإفتاء !

ثم تكلم الدكتور حامد الخطيب مُنَبِّهًا على أثر تعميم التناول في شدة اختلاف التعليقات ، ومتمنيا لو خَلَصَتِ الكلمة للبحث اللغوي ؛ فاستنكرت عليه أن يَسُدَّ عليَّ باب تلك الفوائد المختلفة المؤتلفة ، وتَمَنَّيْتُ أن لو كان أفادني بتعليق جُغْرافِيٍّ – ولكنه بَخِلَ علي – وبَيَّنْتُ أن أفضل المحاضرات أكثرها إثارة للأسئلة !

ثم تكلم الدكتور مختار الفيجاري ، على أثر تنبيه الدكتور الخطيب، مُسْتَغْرِبًا محاولة تقعيد علاقة الأسماء بالمسميات ، وهي علاقة اعتباطية مستحيلة التقعيد ؛ فلم أنكر النظرية العلمية ، ولكنني لم أر لاستغرابه موضعا ؛ فأنا أتأمل مرحلة من الفعل اللغوي بعد التي يشير إليها ، وأنسب إليها ظاهرة التسمية ، وأدعو إلى تَوْجيهها .

ثم تكلم الدكتور محمد الصفراني ، مؤكدا كلام الدكتور مختار ، ومضيفا اقتراح المنهج الثقافي لدراسة الأسماء من غير تمسك بعلاقة الدال بالمدلول ؛ فتلاعبت له قليلا بنسبة هذا المنهج الغَذّاميَّة ، ولكنني استحسنت المصطلح جدا ، إذا اتجه الوجهة الصحيحة .

ثم تكلم الأستاذ محمود العربي مندهشا بالمحاضرة التي أوحت "حَرَكَةُ " في عنوانها ، بأنها في تصريف الأسماء ، فإذا هي في فلسفة التسمية! فأثنيت على إحساسه الصادق ، وفهمه الدقيق .

ثم تكلم الدكتور أحمد الخراط مُنَبِّهًا على أن التَّسْمِيَة بَحْرٌ لا ساحل له ، تزدحم فيه الروافد ، وتختلف ، وتختلط - ومشيرا إلى أن عجائبها لا تنقضي ولا تختفي ، بل يعانيها كلَّ يوم مِمّا يُسْتَفْتى فيه ، حتى لقد وجد النزاعات تَشْتَجِرُ بين الأهلين تَعَصُّبًا لاسم على اسم - ومستطردا إلى خبر والي المدينة الذي أعجبه اسم زَيْد ، فسماه أبناءه الثلاثة، ثم مَيَّزَ بعضهم من بعض بعلامات الإعراب رَفْعًا وجَرًّا ونَصْبًا ؛ فواحد

"زَيْدٌ " ، وواحد " زَيْدٍ " ، وواحِدٌ " زَيْدًا " ! - وداعيا إلى التواصي بالتأني في التسمية ؛ فجعلتُ دعوته بمنزلة استخلاص خُلاصة كلمتي .

ثم تكلم الأستاذ زَبْن - هكذا ذكره لي بالباء صاحب الأَحَديَّة ، وفي الحديث المرفوع عن أبي هريرة " إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْمُؤْمِنَ الَّذي لا زَبْنَ لَه" ، أي لا شِدَّةَ في الحق ، وأصل الزَّبْن الدَّفْع ، وقد سَمَّوْا زَبّانَ ، فأما زَبْنٌ فطريف - مؤكدا أثر البيئة في التسمية ، ومستدركا أن لدينا قاعدة نرجع في التسمية إليها ، وسنة نبوية نسير عليها - ومتمثلا بشكوى الأب المشهورة عقوق ابنه ، إلى سيدنا عمر - رضي الله عنه ! - التي دَحَضها الابن بأشياء عَقَّه بها أبوه فعَقَّه ، منها قُبْحُ الاسْمِ ؛ فذَكَرْتُ ما في الموطأ برواية يحيى الليثي ، من شواهد إلهام سيدنا عمر ، أَنَّه قالَ لِرَجُلٍ : مَا اسْمُكَ ؟ فَقالَ : جَمْرَةُ ، فَقالَ : ابْنُ مَنْ ؟ فَقالَ : ابْنُ شِهابٍ ، قالَ : مِمَّنْ ؟ قالَ : مِنَ الْحُرَقَةِ ، قالَ : أَيْنَ مَسْكَنُكَ ؟ قالَ : بِحَرَّةِ النّارِ ، قالَ : بِأَيِّها ؟ قالَ : بِذاتِ لَظى ، قالَ عُمَرُ : أَدْرِكْ أَهْلَكَ فَقَدِ احْتَرَقوا ؛ فَكانَ كَما قالَ !

وقد كنت أنشدت الضيوف هذا البيت منسوبا إلى المتنبي، وفي نفسي ظَنٌّ أَنْ يكون لأبي نواس :

أَلا فَاسْقِني خَمْرًا وَقُلْ لي هِيَ الْخَمْر وَلا تَسْقِني سِرًّا إِذا أَمْكَنَ الْجَهْر

أستشهد به لتَلَذُّذ الشاعر باسم الخمر كما يَتَلَذَّذُ بجسمها ، فنسبوه إلى أبي نواس ، وأنكر عليَّ الدكتور عبد الباسط بدر بأنه إنما أراد المجاهرة!

تَمَنَّيْتُ أن لو كنت عَجَّبْتُهُمْ قليلا من عنايتهم الواضحة بخَمْريّات أبي نواس – وهذه الرائية من أبشعها مُجونًا – وأن لو أَضَفْتُ إلى البيت بيته الآخر :

أَثْنِ عَلَى الْخَمْرِ بِآلائِها   وَسَمِّها أَحْسَنَ أَسْمائِها

إذًا لَقَوِيَ الرأيُ الذي رأيتُه ، ولكنني اكتفيت عندئذ بأننا يجوز لنا أن نخلع البيت من قصيدته ، لنفهمه كما نشاء !

٥

ثم ختم المجلسَ صاحبُ الأَحَديَّة ، واعتذر عن تأجيل اللقاء القادم إلى شوال ، ودعانا إلى مجلس العشاء ، وطلب نسخة كلمتي لنشرها.

غسلنا أيدينا ، ودخلنا إلى غرفة مُجَهَّزة ، وُضِعَتْ على أرضها صِحافُ الطعام ، لكل أربعة صَحْفَةٌ ، في كل منها مقدار كبير من الأرز الأسيوي على رأسه مقدارٌ مناسب من اللحم العربي ، ومن حولها أطباق الفاكهة ، لكلٍّ من الأربعة طَبَقٌ فيه موز ومشمش وبرتقال . كان معي على صَحفتي الدكتور مختار والدكتور ياسر وزميل لنا سعودي من أصل شامي لا يكاد يتكلم . أَثَرْتُ الدكتور مختارًا إلى ما جادلني فيه ، ولم نتفق على شيء ، وتكلم السعودي هذه المرة ، فأوحى إليَّ باستنكار رأيي في اسمي !

هكذا إذن !

لقد تتابع الضيوف إلى مجلس الطعام من غير أن يحاول أحدٌ منهم السلام عليَّ إلا الدكتور الخطيب وإلا الأستاذ خالد الطويل الصحفي بجريدة الوطن الذي أراد بياناتي ؛ فظننتُ ذلك من استغراب الوافد الجديد ، فإذا هو من استنكار رأيه المُشْتَطِّ في اسمه الكريم ، ولقد علم الله مني غير ذلك !

اتهمت نفسي ، فلم أرتح ليلتي حتى كتبت لصاحب الأَحَديَّة قبل الفجر هذه الرسالة الجَوّاليّة (المَحْموليّة ، النَّقّاليّة ، الخَلَويّة ، المُبَيْليّة) :

سعادة العميد

سلام الله عليكم

وشكر الله لكم

وجعله الله في موازين حسناتكم

كان كل شيء طيبا إلا اضطراب تعبيري عن مشاعر الأب عند تسمية ابنه لقد أردت أنه إذا سئل ماذا كنت تحب أن يكون اسمك لو لم يكن كما هو لقال تعصبا لا أحب إلا ما سماني أبي ولكنه يعبر بتسميته ابنه أحيانا عن رغبة دفينة في أن لو كان تسمى هو اسم ابنه ولكنني عبرت بما يوحي بكراهة اسم محمد -معاذ الله - فلزم الاعتذار وإن لم يعتب علي أحد

محمد ج صقر

الطَّائِفَةُ الْبَاغِيَةُ

(١)

إن الذي خلق الشعراء وأَمْلَى لهم في التحصيل والتفكير والتعبير حتى أَشْرَفُوا على الناس من القمر، لَقادرٌ على أن يخلق النقاد ويُمْلي لهم في التأمل والاستيعاب والتمييز حتى يشرفوا على الشعراء والناس جميعا من الشمس! بل لولا مثلُ هؤلاء النقاد ما كان مثلُ أُولَائِك الشعراء؛ فهم الذين بعثوهم مِنْ رُقاد، ونبَّهوهم مِنْ غَفْلة، وعَطَفُوا عليهم من إِعْرَاض.

وإنما أَهْلَكَ الأدباءَ قَبْلَنا أنهم كانوا إذا أخطأ فيهم الشاعرُ الكبيرُ تَحَرَّجَ من تخطيئه الناقدُ الكبير؛ فحَمَلَ خطأَه النقادُ الصغار على أحسن محامله؛ ثم لم يلبث أن يصير أسلوبًا في الخطأ، بعد أن كان خطأ في الأسلوب، ويتَّسع الخَرْقُ على الراقع!

وربما خَلَا الناقدُ الكبير من ذلك الحَرَج إذا كان مع نقده الكبير شاعرا كبيرا؛ فعندئذ يُجَرِّئه على غيره علمُه بحقيقةِ نفسِهِ، وأنه ربما عجز عن التحليق فأَسَفَّ، وعن الصواب فأخطأ عَفْوًا أو قَصْدًا. فأما الناقد الصغير فيتقي كِبَرَ الشعراء بالإعجاب بهم، ويتقرب إليهم بتقسيم وجوه الصواب عليهم!

وهل أَغْرَى بنقد الشعراء الكبار النابغةَ الذبيانيَّ والحطيئةَ...، وعليَّ بْنَ الجَهْم وأَبَا تَمَامٍ والمُتنبيَ والمَعَريَّ وبشّارًا وأبا نُواسٍ وابنَ الرومي

وابنَ المعتزّ...، والجُرجانيَّ والمرزوقيَّ وابنَ رشيق...، والباروديَّ والعقادَ والمازنيَّ والرافعيَّ وشاكرًا وعبدَ الله الطيّبَ ويوسفْ خُليفْ وأبا همّام... وغيرَهم- إلا أنهم كانوا شعراء كبارا!

وقد أحببتُ النقادَ الكبارَ الشعراءَ الكبارَ، حتى أطلعني حُبُّهم على دَخائِل نفوسهم. وخالطتُهم حتى دَعَاني فيهم خِلاطُهم. وزالتْ من قلبي هَيبةُ الشعراء الكبار بهَيْبة الصواب؛ فرأيتُ أن أُسَلْسِلَ في تخطيئهم سلسلةً أكون وإياها مَثَلًا شَرودًا، لا تدور كلُّ حَلَقَةٍ مُزجَّجة مَسْنونةٍ منها إلا بمَعَايبهم مَجْلُوَّةً وأَلْحِيَتِهِمْ مَلْحُوَّةً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

(٢)

قَالَ مَحْمُودْ دَرْوِيشْ (١٩٤١-٢٠٠٨):

"فِي بَيْتِ نِزَارْ قَبَّانِي

بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ بَيْتُ الدِّمَشْقِيِّ مِنْ جَرَسِ الْبَابِ حَتَّى غِطَاءِ السَّرِيرِ كَأَنَّ الْقَصِيدَةَ سُكْنَى وَهَنْدَسَةٌ لِلْغَمَامِ بِلَا مَكْتَبٍ كَانَ يَكْتُبُ يَكْتُبُ فَوْقَ الْوِسَادَةِ لَيْلًا وَتُكْمِلُ أَحْلَامُهُ ذِكْرَيَاتِ الْيَمَامِ وَيَصْحُو عَلَى نَفَسِ امْرَأَةٍ مِنْ نَخِيلِ الْعِرَاقِ تُعِدُّ لَهُ الْفُلَّ فِي الْمَزْهَرِيَّةِ كَانَ أَنِيقًا كَرِيشِ الطَّوَاوِيسِ لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ دُونْ جُوَانَ تَحُطُّ النِّسَاءُ عَلَى قَلْبِهِ خَدَمًا لِلْمَعَانِي وَيَذْهَبْنَ فِي كَلِمَاتِ الْأَغَانِي وَيَمْشِي وَحِيدًا إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ قَاطَعَهُ الْحُلْمُ فِي دَاخِلِي غُرَفٌ لَا يَمُرُّ بِهَا أَحَدٌ

لِلتَّحِيَّةِ مُنْذُ تَرَكْتُ دِمَشْقَ تَدَفَّقَ فِي لُغَتِي بَرَدَى وَاتَّسَعْتُ أَنَا شَاعِرُ الضَّوْءِ وَالْفُلِّ لَا ظِلَّ لَا ظِلَّ فِي لُغَتِي كُلُّ شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى مَا هُوَ الْيَاسَمِينُ أَنَا الْعَفَوِيُّ الْبَهِيُّ أُرَقِّصُ خَيْلَ الْحَمَاسَةِ فَوْقَ سُطُوحِ الْغِنَاءِ وَتَكْسِرُنِي غَيْمَةٌ صُورَتِي كَتَبَتْ سِيرَتِي وَنَفَتْنِي إِلَى الْغُرَفِ السَّاحِلِيَّةِ بَيْتُ الدِّمَشْقِيِّ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ أَرْضُ الْعِبَارَةِ زَرْقَاءُ شَفَّافَةٌ لَيْلُهُ أَزْرَقٌ مِثْلُ عَيْنَيْهِ آنِيَةُ الزَّهْرِ زَرْقَاءُ وَالسَّتَائِرُ زَرْقَاءُ سَجَّادُ غُرْفَتِهِ أَزْرَقٌ دَمْعُهُ حِينَ يَبْكِي رَحِيلُ ابْنِهِ فِي الْمَمَرَّاتِ أَزْرَقُ آثَارُ زَوْجَتِهِ فِي الْخِزَانَةِ زَرْقَاءُ لَمْ تَعُدِ الْأَرْضُ فِي حَاجَةٍ لِسَمَاءٍ فَإِنَّ قَلِيلًا مِنَ الْبَحْرِ فِي الشِّعْرِ يَكْفِي لِيَنْتَشِرَ الْأَزْرَقُ الْأَبَدِيُّ عَلَى الْأَبْجَدِيَّةِ قُلْتُ لَهُ حِينَ مِتْنَا مَعًا وَعَلَى حِدَةٍ أَنْتَ فِي حَاجَةٍ لِهَوَاءِ دِمَشْقَ فَقَالَ سَأَقْفِزُ بَعْدَ قَلِيلٍ لِأَرْقُدَ فِي حُفْرَةٍ فِي سَمَاءِ دِمَشْقَ فَقُلْتُ انْتَظِرْ رَيْثَمَا أَتَعَافَى لِأَحْمِلَ عَنْكَ الْكَلَامَ الْأَخِيرَ انْتَظِرْنِي وَلَا تَذْهَبِ الْآنَ لَا تَمْتَحِنِّي وَلَا تَشْكُلِ الْآسَ وَحْدَكَ قَالَ انْتَظِرْ أَنْتَ عِشْ أَنْتَ بَعْدِي فَلَابُدَّ مِنْ شَاعِرٍ يَنْتَظِرْ فَانْتَظَرْتُ وَأَرْجَأْتُ مَوْتِي".

ما أَنفسَ هذا النص، وما أَلطفَه، وما أَخفَّه!

أما نَفاستُه فمِن أنه لمحمود درويش في نزار قباني (١٩٢٣–١٩٩٨)، وهما أشهر شعراء العرب المعاصرين الكبار، ولا يستغني طلاب الشعر عن الاطلاع على مساجلات الشعراء، ولاسيما إذا كانت من شعر بعضهم في بعض؛ إذ يستمتعون عندئذ ويستفيدون. وما زال على

بالهم طَوالَ مئتي العام والألف السابقة شعرُ أبي تمام في عليّ بن الجهم، الذي اتخذوه شِعارَ قرابة الأدب التي تُعارض قرابة النسب.

وأما لَطافةُ هذا النص فمن أنه مثال القصيدة المتحققة بحقيقة الشعر الحُرّ الخارج من سعي الشاعر المعاصر على أثر بنية العمل الموسيقي السيمفوني الطويل المركب المتلاحم الذي ترتفع حركاته وتتموَّج غيرَ منقطعة ثم تنخفض أخيرا مرة واحدة، وإن حَرَصَ درويش على توزيع نصه توزيعا يُخفِي صنعته فيه، ولم أَعبأ بما أَظْهَرَ حرصًا على ما أَبْطَنَ؛ فرسمتُه على ما يستحقه.

ربما كان هذا النص أكثر من غيره تمثيلا موسيقيا مباشرا؛ ففيه أربع حركات على عدد حركات السيمفونية التقليدي:

- الحركة الأولى:

"بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ بَيْتُ الدِّمَشْقِي (...) غُرَفٌ لَا يَمُرُّ بِهَا أَحَدٌ لِلتَّحِيَّة"،

- والحركة الثانية:

"مُنْذُ تَرَكْتُ دِمَشْقَ تَدَفَّقَ فِي لُغَتِي بَرَدَى (...) وَنَفَتْنِي إِلَى الْغُرَفِ السَّاحِلِيَّة"،

- والحركة الثالثة:

"بَيْتُ الدِّمَشْقِيِّ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْر (...) يَكْفِي لِيَنْتَشِرَ الْأَزْرَقُ الْأَبَدِيُّ عَلَى الْأَبْجَدِيَّةِ"،

- والحركة الرابعة:

"قُلْتُ لَهُ حِينَ مِتْنَا مَعًا وَعَلَى حِدَة (...)

فَانْتَظَرْتُ وَأَرْجَأْتُ مَوْتِي".

تَحرَّكَ بالحركة الأولى تعبيرُ درويش عن بيت نزار الذي يعيش فيه، كيف تَكوَّن مثلما يَتكوّن بيت شعره الذي ينظمه. وتحرّكَ بالحركة الثالثة تعبيرُه عن بيت الشعر الذي ينظمه، كيف تَكوَّن مثلما يَتكوّن بيته الذي يعيش فيه. وتَحرّك بالحركة الرابعة تعليقُه على تعبير الحركة الثالثة، مثلما تَحرَّك بالحركة الثانية تعليقُه على تعبير الحركة الأولى.

ولقد حرص في الحركة الثانية على أن تطابق الأولى بالتعبير عن أسلوب نظم شعره؛ فتوقعتُ أن تكون الحركة الرابعة في التعبير عن أسلوب سُكْنَى بيته، فكانت كما توقعت، ولكن عن أسلوب سُكْنَى بيت مَثْوَاه الأخير الذي جهَّزه هو نفسه لنفسه!

ولم يستطع درويش ألا يشارك نزارا في الحركة الرابعة؛ إذ ربما كان حافزه إلى نصه هذا من أصله أنه رأى فيه نفسه، ولو لم يفعل لخانها! ولكنه لم ينج من تناقض مشاعره الطبيعي؛ فاجتمع له في هذه الحركة الرابعة نفسها تعبيرُه عن رغبته في مشاركة نزار في سكنى بيت مثواه الأخير، وتعبيرُه عن رغبته في حمل رسالته بعده إلى الناس، ثم غلب الانتظار على الذهاب، وإن دَلَّ سكونُ آخِرِ "يَنْتَظِرْ" من غير جازم، على أنه انتظار المقهور، وإن زعم أنه هو الذي أرجأ موته!

وأما خِفَّةُ هذا النص فمن أنه من وزن بحر المتقارب الحر (دَدَنْ دَنْ×...=فَعُولُنْ×...)، لا يَؤُودُه خَرْمُ تفعيلته الأولى (بَيْتٌ=دَنْ دَنْ=عُولُنْ)، اعتمادًا على نَبْرِ مقطعها الأول الباقي من وتدها المجموع (بَيْ=دَنْ). ولكنه يؤوده نطق "يَكُنْ دُونْ جُوَانَ"، من طرفيه، إلا أن أُقدِّر من أوله اختلاس المد قبل النون الساكنة -ولم أر أن أحرف النص، ولو جاز لي لرسمته "يَكُنْ دُنْ"، لتستقيم التفعيلة "دَدَنْ دَنْ=فَعُولُنْ"!- وقد عالجته له من آخره بفتح النون -ولم يَشْكُلْ درويش من نصه شيئا- لكيلا يتعثر الإيقاع (جُوَانَ=دَدَنْ دَ=فَعُولُ). وكذلك يَؤُودُهُ نُطقُ "فَلَابُدَّ مِنْ شَاعِرٍ يَنْتَظِرْ فَانْتَظَرْتُ" من وسطه إذا ارتفعَ الفعلُ المضارع، وقد عالجته له بجزمه دون جازم انتفاعا بسكون رائه وزنا ومعنى؛ فأما الانتفاع بمعنى سكونها فقد سبق قريبا، وأما الانتفاع بوزن هذا السكون فمن حيث تستقيم به التفعيلة "تَظِرْ فَانْـ=دَدَنْ دَنْ=فَعُولُنْ".

ومن خفة هذا النص اصطناعُه هذه اللغة القريبة الخصيبة، التي تشبه لغة نزار كثيرا، حتى لَأَظُنُّ أن عبارته المفتاحية (بَيْتُ الدِّمَشْقِيِّ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْر)، من كلام نزار نفسه، سَمِعَهَا منه درويش، وحفظها له، حتى ردَّها إليه! ولكنه تصرف في ترتيب شطريها (بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ بَيْتُ الدِّمَشْقِي)، لِيَرَى الخبرَ من مَنظَر المبتدأ، كما رأى المبتدأَ من مَنظَر الخبر. وربما كان من تَنَسُّم النِّزاريَّة كذلك إقحام ضمير الغائب في قوله: "مَا هُوَ

الْيَاسَمِينُ"، ولا قوة له غير تمثيل هوى نزار الذي كانت منه الركاكةُ نفسُها على بالٍ، يؤثرها على الجزالة عمدا؛ عسى أن تنتقم له بلينها من قسوتها!

(٣)

قَالَ عَبْدُ اللهِ الْبَرَدُّونِيُّ (١٩٢٩-١٩٩٩):

"مُغَنٍّ تَحْتَ السَّكَاكِينِ

بِعَيْنَيْهِ حُلْمُ الصَّبَايَا وَفِي حَنَايَاهُ مَقْبَرَةٌ مُسْتَرِيحَهْ

لِنَيْسَانَ يَشْدُو وَفِي صَدْرِهِ شِتَاءٌ عَنِيفٌ طُيُورٌ جَرِيحَهْ

بِلَادٌ تَهُمُّ بِمِيلَادِهَا بِلَادٌ تَمُوتُ وَتَمْشِي ذَبِيحَهْ

بِلَادَانِ دَاخِلَهُ هَذِهِ جَنِينٌ وَهَذِي عَجُوزٌ طَرِيحَهْ

وَآتٍ إِلَى مَهْدِهِ يَشْرَئِبُّ وَمَاضٍ يَئِنُّ كَثَكْلَى كَسِيحَهْ

زَمَانَانِ دَاخِلَهُ يَغْتَلِي دُجًى كَالْأَفَاعِي وَتَنْدَى صَبِيحَهْ

وَرَغْمَ صَرِيرِ السَّكَاكِينِ فِيهِ يُغَنِّي يُغَنِّي وَيَنْسَى النَّصِيحَهْ

فَتَخْضَرُّ عَافِيَةُ الْفَنِّ فِيهِ وَأَوْجَاعُهُ وَحْدَهُنَّ الصَّحِيحَهْ

أَيَا شَمْعَةَ الْعُمْرِ ذُوبِي يُلِحُّ فَتَسْخُو وَتُومِي أَأَبْدُو شَحِيحَهْ

فَيُولَدُ فِي قَلْبِهِ كُلَّ يَوْمٍ وَيَحْمِلُ فِي شَفَتَيْهِ ضَرِيحَهْ

يُوَالِي فَيَرْفُضُ نِصْفَ الْوَلَاءِ وَيُبْدِي الْعَدَاوَاتِ جَلْوَى صَرِيحَهْ

لَه وَجْهُهُ الْفَرْدُ لَا يَرْتَدِي وُجُوهًا تُغَطِّي الْوُجُوهَ الْقَبِيحَهْ

يُعَرِّي فَضَائِحَ هَذَا الزَّمَانِ وَيَعْرَى فَيَبْدُو كَأَنْقَى فَضِيحَهْ

تَرَى وَجْهَهَا الشَّمْسُ فِيهِ كَمَا تَرَى وَجْهَهَا فِي الْمَرَايَا الْمَلِيحَهْ".

وعلى كثرة أمثلة المغنين تحت السكاكين لِلمُتمثِّلين من كل مكان وزمان، أرى أن البردوني في هذه القصيدة إنما امْتاحَ من ينبوع نفسه وتَمَثَّلَ بمثالها؛ فقد رُزق الطموحَ إلى التغيُّر والتغيِير، حتى ابتُلي بالسجن على ضَرارته، فكابد من شأن قصيدته هذه ما رَفَدَهُ فيها بدقائق المشاعر.

وسكاكينُ مثل هذا المغني مُضاعفةٌ؛ فطائفةٌ منها تَجْرَحُهُ من داخله، وطائفةٌ تَجْرَحُهُ من خارجه جميعا معا؛ إذ كيف يطمح إلى تغيير ما جَمَدَ من حوله قبل تغيير ما جَمَدَ في نفسه؛ وفاقد الشيء لا يعرفه فضلا عن أن يعطيه. وكلتا طائفتي السكاكين فإنما شَحَذَها عليه اعتراكُ الأقطاب المتنافرة.

أما سكاكينُه الداخلية فقد شَحَذَها عليه في حاضره اعتراكُ ماضيه البَلِيِّ الخَنوعِ الجَثومِ ومستقبلِه القَشيبِ الأَبِيّ النَّفورِ. وأما سكاكينُه الخارجية فقد شَحَذَها عليه في حاضره نفسه اعتراكُ أعدائه الخَوَنَة المنافقين المفسدين وأصدقائه الوطنيين المخلصين المصلحين. ولم يخل عمل إحدى الطائفتين من أثر عمل الأخرى؛ فما أَشبهَ أعداءه بماضيه، وأصدقاءه بمستقبله! وما أَعْلَقَ تغيِيرَه بتغيُّره! بل ربما انعكست في مرآة كل منهما صورةُ الآخر؛ فإن له في موالاة أصدقائه والانطلاق بمستقبله من الحياة، مثلَ الذي عليه في موالاة أعدائه والاحتباس بماضيه من الموت!

وقد جعل لحديث كلتا الطائفتين نصف قصيدته هذه ذات الأربعة عشر بيتا (سبعة أبيات)، وفي مطلع النصف الثاني (آخر البيت الثامن)، جعل جروح أعدائه الخونة المنافقين المفسدين، هي وحدها الصحيحة- مثلما جعل جروح ماضيه البَلِيّ الخنوع الجثوم في مطلع النصف الأول (آخر البيت الأول)، مقبرةً مستريحةً، وكلتا الاستراحة والصحة -مهما اعتذر عنهما ببقاء العذاب واستمراره- فَلْتَتَان غير مقبولتين في سياق السخط على هذه الجروح!

وكذلك لا يُعتذر عن هاتين الفَلْتَتَين، بانبناء القصيدة من أصلها على التناقض، من حيث عَبَّرَ البردوني بها وهي العَموديّة العَروض (المُتقاربيّة الأوزان الوافية الصحيحة الأعاريض والضروب، الحائيةُ القوافي المفتوحة المردفة بياء المد الموصولة بالهاء الساكنة، التي التزم في إرداف قوافيها من ياء المد ما لا يلزمه)، عن طموحه إلى التغير والتغيير، وكان الأجدر به أن يعبر بقصيدة حُرّة العَروض، يأتلف فيها المبنى والمعنى؛ فلا اعتذار بخطأ -إن كان- عن خطأ، وقد اشتهر في فهم المعاصرين أن الشعرين العمودي والحر يتقاسمان حالَيِ التأثير المتكاملتين، بأن العمودي شعر إثارة، والحر شعر ثورة، غيرَ البردّوني؛ فقد أبى حياتَه إلا أن يجمع على تأثير العمودي حالَيِ الإثارة والثورة المتكاملتين جميعا معا، بما استقام له في فهم الإصلاح الأصيل!

(٤)

قَالَ نِزَارْ قَبَّانِي (١٩٢٣–١٩٩٨):

"رِسَالَةٌ مِنْ سَيِّدَةٍ حَاقِدَةٍ

لَا تَدْخُلِي وَسَدَدْتَ فِي وَجْهِي الطَّرِيقَ بِمِرْفَقَيْكْ وَزَعَمْتَ لِي أَنَّ الرِّفَاقَ أَتَوْا إِلَيْكْ أَهُمُ الرِّفَاقُ أَتَوْا إِلَيْكْ أَمْ أَنَّ سَيِّدَةً لَدَيْكْ تَحْتَلُّ بَعْدِيَ سَاعِدَيْكْ وَصَرَخْتَ مُحْتَدِمًا قِفِي وَالرِّيحُ تَمْضُغُ مِعْطَفِي وَالذُّلُّ يَكْسُو مَوْقِفِي لَا تَعْتَذِرْ يَا نَذْلُ لَا تَتَأَسَّفِ أَنَا لَسْتُ آسِفَةً عَلَيْكْ لَكِنْ عَلَى قَلْبِي الْوَفِي قَلْبِي الَّذِي لَمْ تَعْرِفِ مَاذَا لَوَ انَّكَ يَا دَنِي أَخْبَرْتَنِي أَنِّي انْتَهَى أَمْرِي لَدَيْكْ فَجَمِيعُ مَا وَشْوَشْتَنِي أَيَّامَ كُنْتَ تُحِبُّنِي مِنْ أَنَّنِي بَيْتُ الْفَرَاشَةِ مَسْكَنِي وَغَدِي انْفِرَاطُ السَّوْسَنِ أَنْكَرْتَهُ أَصْلًا كَمَا أَنْكَرْتَنِي لَا تَعْتَذِر فَالْإِثْمُ يَحْصُدُ حَاجِبَيْكْ وَخُطُوطُ أَحْمَرِهَا تَصِيحُ بِوَجْنَتَيْكْ وَرِبَاطُكَ الْمَشْدُوهُ يَفْضَحُ مَا لَدَيْكَ وَمَنْ لَدَيْكْ يَا مَنْ وَقَفْتُ دَمِي عَلَيْكْ وَذَلَلْتَنِي وَنَفَضْتَنِي كَذُبَابَةٍ عَنْ عَارِضَيْكْ وَدَعَوْتَ سَيِّدَةً إِلَيْكْ وَأَهَنْتَنِي مِنْ بَعْدِ أَنْ كُنْتُ الضِّيَاءَ بِنَاظِرَيْكْ إِنِّي أَرَاهَا فِي جِوَارِ الْمَوْقِدِ أَخَذَتْ هُنَالِكَ مَقْعَدِي فِي الرُّكْنِ ذَاتَ الْمَقْعَدِ وَأَرَاكَ تَمْنَحُهَا يَدًا مَثْلُوجَةً ذَاتَ الْيَدِ سَتُرَدِّدُ الْقِصَصَ الَّتِي أَسْمَعْتَنِي وَلَسَوْفَ تُخْبِرُهَا بِمَا أَخْبَرْتَنِي وَسَتَرْفَعُ الْكَأْسَ الَّتِي جَرَّعْتَنِي كَأْسًا بِهَا سَمَّمْتَنِي حَتَّى

إِذَا عَادَتْ إِلَيْكْ لِتَزُودَ مَوْعِدَهَا الْهَنِي أَخْبَرْتَهَا أَنَّ الرِّفَاقَ أَتَوْا إِلَيْكْ
وَأَضَعْتَ رَوْنَقَهَا كَمَا ضَيَّعْتَنِي".

لقد احتشدت لنزار بهذا النص الجيد، مواهبه الفنية المختلفة (الرسم والموسيقى والشعر)، جميعا معا، وحَاطَتْها خبرتُه السياسية، وكان أعلم بذلك من غيره؛ فضمّنَه كتابه "أحلى قصائدي"، وغنَّتْه له فايزة أحمد بَلَدِيَّتُه السورية المصرية، بتلحين محمد سلطان زوجها المصري، وإن كان أقل كثيرا مما يتحمله النص ويستحقه، فضلا عن تغيير بعض ما لا غنى عنه من الكلمات!

لقد ادعى نزار في عنوان نصه أنه رسالة من سيدة حاقدة، ليوحي بأن صاحبته قد تركته مكتوبا لصاحبها وذهبت عنه، من حيث لم تستطع أن تواجهه بما حدث بعدما كان وهي السيدة الآن لا الفتاة، وأنها ربما احتقرت نفسها، واستهانت بحياتها. وقد جعلها حاقدة فأَلَّبَنا عليها من حيث الحقدُ إمساكُ العداوة في القلب والتربُّص لفرصة الانتقام، وما زال كريها إلينا منذ قال الْمُقَنَّعُ الكِنْدِيُّ المتوفى سنة ٧٠ الهجرية -وأَحْسَنَ-:

وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُ وَلَيْسَ كَرِيمُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا

حتى إذا ما مضينا في النص تَأَلَّبْنَا على الشاعر نفسه لا السيدة؛ وهذا أسلوب السياسي الماهر الذي تعنيه النتائج أكثر من المقدمات!

إن النص قصيدة حُرَّة العروض (كامليَّة الأوزان متعدِّدة القوافي)، ذات اثنين وأربعين جُزْءًا بيتيًّا (شبيها بالبيت العمودي، في

قصيدة حرة متصلة الأجزاء، ينبغي ألا تنقسم على أبيات)، متفاوتة الأطوال، في أربعة فصول مختلفة الألوان متداخلة الحدود:

- الفصل الأول أَصْفَرُ (١٦ جزءا بيتيًّا): ١-٥، ١٠، ١٥، ٢٢-٢٥، ٢٧-٢٨، ٣٠، ٣٩، ٤١.
- والفصل الثاني أَزْرَقُ (٦ أجزاء بيتيَّة): ٦-٩، ١١-١٢.
- والفصل الثالث أَحْمَرُ (١٦ جزءا بيتيًّا): ١٣-١٤، ١٦-٢١، ٢٦، ٢٩، ٣٥-٣٨، ٤٠، ٤٢.
- والفصل الرابع أَغْبَرُ (٤ أجزاء بيتيَّة): ٣١-٣٤.

لقد اصفرَّ في نظري حديثُ الفصل الأول عن الحبيب الخبيث الخائن المعتذر بالكذب المفضوح، على رغم اختصاصه بقافية العَوِيل الكافيَّة الساكنة المُرْدَفَة بياء اللين؛ إذ التبس فيها بكاءُ الحبيبة عليه، بما ينبغي له في رأيها من بكائه على نفسه!

وازرقَّ في نظري حديثُ الفصل الثاني عن الحبيبة المحترقة بهَوانها على حبيبها في موقف الافتقار إليه، على رغم اختصاصه بقافية الرَّفِيف الفائيَّة المكسورة المجردة الموصولة بالياء؛ إذ التبس فيها انكسارُ القلب باحتقار الوفاء!

واحمرَّ في نظري حديثُ الفصل الثالث عن الحبيبة المقهورة بانتكاس أحلامها وانكشاف أوهامها وابتذال أيامها، على رغم اختصاصه بقافية الامْتِنان النونيَّة المكسورة المجردة الموصولة بالياء؛ إذ

التبس فيها انعطافُ الحَنْي (الثَّنْي) الواهن، بانقلاب الحَيْن (الهَلَاك) الحائن!

واغبرَّ في نظري حديثُ الفصل الرابع عن البَدِيلة الجَدِيدة باستسلامها المنتظر لألاعيب الحبيب الخبيث الخائن وأكاذيبه نفسها، على رغم اختصاصه بقافية الانْفِجَار الداليَّة المكسورة المجردة الموصولة بالياء؛ إذ التبس فيها إيقاعُ التَّدَهْوُر بإيقاع الاندفاع!

وألطفُ ما في تفصيل هذه الفصول بعدَ تَداخُلِها الدّالِّ على مبلغ تَعقُّد الأزمة، استواءُ عَدَدَيْ أبيات الفصلين الأول الأصفر والثالث الأحمر، دلالةً خَفيَّةً على أَلَّا حِقْدَ بالسيدة المظلومة، بل رَغبةٌ كامنة في أن يعيدها حبيبها إلى جنته، فيراجعا نعيمها الزائل!

ولا ريب لديَّ في أن هذه القصيدة مِنْ زمانِ ما قبل اعتقاد الركاكة -ولا تَتَناقَضُ عندي السهولةُ والجزالةُ كما استفاض مقالٌ سابق- فقد ازْدَهَتْ بإِحكام أصواتها ومقاطعها وكلمها وتعابيرها وجملها وفقرها وفصولها، مبانيَ ومعانيَ، إلا أربعةَ مواضع:

- أما أولها فقوله في الجزء البيتيّ الرابع من الفصل الأول الأصفر: "أَمْ أَنَّ سَيِّدَةً لَدَيْكْ"؛ فإن المعطوف أو المستأنف بـ"أَمْ" هذه المنقطعة، لا يكون بعضَ جملة، ولو كان قال: "أَمْ إنَّ سَيِّدَةً لَدَيْكْ"، بـ"إنَّ" المتصدرة جملتها الكاملة- لاستقام؛ فإن المصدر

المؤول "أَنَّ سَيِّدَةً لَدَيْكْ"، بـ"أَن" المصدرية، بمنزلة بعضِ جملة لا يتحمَّل فائدة الجملة الكاملة إلا بتكلُّف مَقِيتٍ.

- وأما الموضع الثاني فقوله في الجزء البيتيّ ٢٦ من الفصل الثالث الأحمر: "وَذَلَلْتَنِي"؛ فـ"ذَلَّ" فعلٌ لازمٌ لا يتعدى، ولو كان قال: "أَذْلَلْتَنِي"، لاستقام، ولكنه آثر وجهه العامي تَشَوُّفًا كامنًا إلى الرَّكاكة التي سينتهجها في شعره بَعْدُ، وحَرَصَ على مثل إيقاع "وَأَهَنْتَنِي"، الجزء البيتي ٢٩ من هذا الفصل الثالث الأحمر نفسه، وكلاهما على "دَدَدَنْ دَدَنْ=مُتَفَاعِلُنْ=سَالِمَة"، على حين "أَذْلَلْتَنِي"، إنما هي على "دَنْ دَنْ دَدَنْ=مُتْفَاعِلُنْ=مُضْمَرَة".

- وأما الموضعان الثالث والرابع فقوله في الجزأين البيتيَّين ٣٣ و٣٤ من الفصل الرابع الأغبر: "ذَاتَ الْمَقْعَدِ"، و"ذَاتَ الْيَدِ"؛ فـ"ذَات" بمعنى "صاحبة" لا تكون بمعنى "نَفْس" عند الْمُجْزِلِينَ من الشعراء، ولو كان قال: "نَفْسَ الْمَقْعَدِ"، و"نَفْسَ الْيَدِ"، لاستقامَا، ولكنه آثَرَ الوجه المبتذل ضَجَرًا كامنا بالجزالة التي سيطَّرِحُها عن شعره بَعْدُ، وكلُّ شيءٍ بمِقْدار!

تَكَامُلُ الْفُنُونِ وَالْعُلُومِ وَالْمَهَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَغَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ

منذ سبع سنوات (٢٠٠٧)، حضرت ندوة اتحاد مدرسي اللغة العربية بمدينة باندونج الإندونيسية، ثم لم ألبث بعدما أُبْتُ أن كتبت فيها كُتيِّبًا من أدب الرحلة (مؤتمر باندونج بلا جمال عبد الناصر)، وكان أهمَّ ما فيه نصُّ كلمة فضيلة أستاذنا هداية نور وحيد رئيس مجلس الشورى الإندونيسي عندئذ، التي ارتجلها في مفتتح الندوة.

ومن أهم ما ورد في كلمته هذه، قوله:

"نحن كلنا أمة إنسانية أمة إسلامية، كُرِّمْنا بهذه اللغة العربية، كُرِّمْنا كذلك بهذا الوحي القرآني المحمدي، وإذا ظهر ذلك فإن الله -عز وجل!- قد سهل لنا طريق العقيدة، من أجل تفهم القرآن، واللغة العربية، من أجل تطبيقها في مجالات الحياة المتعددة؛ وعلى ذلك أنا أرى أننا إذا أردنا أن نحيا بالفكر الإسلامي الوسطي، أو بالفكر الإنساني الوسطي، فاللغة العربية هي من الأبواب الرئيسية التي عن طريقها ندخل إلى تفهم حقيقة الحياة وحقيقة الوسطية" [صقر، ٢٠٠٧].

وفي هذه الفقرة من كلمته، تنبيه واضح على ثلاثة الأفكار الآتية:

١ أصالة اللغة العربية في فهم الإسلام.

فمن لم يعرف اللغة العربية لم يتجاوز في الإسلام منزلة المقلِّد، والمقلِّدُ إِمَّعَةٌ، والمسلم مَنهيٌّ عن أن يكون إِمَّعَةً يحسن إحسانَ الناس ويسيء إساءَتهم، مأمورٌ بأن يتحرر من قيد التقليد، لينطلق محسنًا غير مسيء.

٢ أصالة اللغة العربية في ممارسة الحياة.

فمن لم يعرف اللغة العربية لم يفكر بنظام التفكير الذي يجمع بين القرآن الكريم والنثر الشريف والشعر النفيس؛ فلم يتخلَّق بمكارم الأخلاق التي تدعو إليها، ولم يَحْيَ بنور الهدى والخير والرشاد والسعادة الذي يشع منها.

٣ أصالة اللغة العربية في ضمان الوسطية.

فمن لم يعرف اللغة العربية لم يأمن أن ينحرف بخواطر الجهل إلى أطراف التَّديُّن، ولا أن ينجرف بدواعي الغفلة إلى مهاوي الإفراط أو التفريط؛ فيسيء من حيث ظن أنه يحسن، ويصير من الأخسرين أعمالا "الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا" [سورة الكهف، من الآية: ١٠٣]!

إن كل فكرة من تلك الأفكار الثلاثة، دليلُ مَفْصِلٍ من مفاصل علاقة اللغة العربية بالثقافة الإسلامية؛ فإن اللغة العربية فنون (آداب) وعلوم (ضوابط) ومهارات (أداءات)، تفكيرية تعبيرية، متدفقة في جسم الثقافة الإسلامية تدفق الدماء في جسم الإنسان، تحمل له أصول العقيدة

والشريعة والأخلاق -فتكفل له الإيمان والمعاملة والعبادة- مثلما تحمل الدماءُ الماء والغذاء والدواء، حتى إذا ما احْتَبَسَتْ أو تَلَوَّثت أو سالت -لا قدر الله!- جَفَّ وذوى وهلك أو كاد؛ فكل ما يظهر على فنون اللغة العربية وعلومها ومهاراتها من ظواهر الاستقامة أو الاعوجاج، والاتزان أو الاضطراب، والائتلاف أو الاختلاف، والتوفيق أو الإخفاق- ظاهرٌ حتمًا على الثقافة الإسلامية.

وليس أعجب في علاج ما يظهر على الثقافة الإسلامية من أدواءٍ، من دعوة الداعي إلى التحول عن فنون اللغة العربية وعلومها ومهاراتها إلى غيرها ولاسيما الإنجليزية -وكنت قديما أظن هذا عبثا من عبث تلامذتنا الجامعيين وحدهم- حتى ينتظم أهلها في رَكْب المتقدِّمين [مهدي، ٢٠١٤]؛ فقد اعتبر ما بين الثقافة الإسلامية واللغة العربية من ترابط حيوي، من حيث أراد أن يهمله، وأثبته من حيث أراد أن ينفيه، ولكنه انطوى من عداوة الثقافة الإسلامية وهو المسلم، على ما لم يتحرَّج منه قديما أبو بشر متى بن يونس القُنَّائيُّ النصراني (٣٢٨هـ)، الذي أفرط في تقدير الثقافة اليونانية حتى حكم عليه أبو سعيد السيرافي (٣٦٨هـ)، بأنه يدعوه إلى اللغة اليونانية [التوحيدي: ١/١٠٩-١٢٨]؛ فاعتبر كذلك ما بين الثقافة اليونانية واللغة اليونانية -وإن عَكَسَ الجهة!- وتآزرت على الزمان الأدلة.

لقد كان الأحرى بالحريص على الثقافة الإسلامية أن يحرص على اللغة العربية، لا أن يُفرِّط فيها؛ فبمثل رأيه تزول من العالم اللغات والثقافات شيئا فشيئا، مثلما يزول الذين يُعاش في أَكْنافهم، ويُعمَّر المُبتَلَى وحده إلى أرذل العمر، ويُنَكَّس، فيندم، ولات ساعة مندم!

ومِن سنن الحياة نَقْصُ ما لم يَزِدْ، المستفادُ من مثل قول أبي البقاء الرُّنْدِيّ المعروف:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

فلا زيادة بعد التمام؛ وقديما بكى سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه!- لقول الحق -سبحانه، وتعالى!-: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" [سورة المائدة: من الآية ٣]؛ فقال له النبي -صلى الله عليه، وسلم!-: مَا يُبْكِيكَ؟ قال: أَبْكَانِي أَنَّا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَأَمَّا إِذْ كَمَلَ فَإِنَّه لَمْ يَكْمُلْ شَيْءٌ إِلَّا نَقَصَ! فقال: صَدَقْتَ [الطبري: ٩/ ٥١٩]. قال محمود محمد شاكر محققه العلامة -رحمه الله!- في حاشيته عليه: "إنما عَنى بنقصانِ الدين أهلَ الدين؛ فإنهم إذا تطاول عليهم الأمد قست قلوبهم، وقَلَّ تمسُّك بعضهم بما أُمر به. ومعاذ الله أن يعني عمرُ نقصانَ الدين نفسِه! ومثله قوله -صلى الله عليه، وسلم!-: بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَباءِ".

فمن استطاع ألا تُؤتَى الثقافة الإسلامية مِن قِبَلِه فمن العجز ألا يفعل، ولن يفعل حتى تزيد به اللغة العربية كل يوم على كانت قبله فنا

وعلما ومهارة -وهذا لب التنمية الثقافية- وليس أَزْيَدَ لها من تكامل فنونها وعلومها ومهاراتها -ففي تكاملها تلقيحُها وتوليدُها وتَرْبِيَتُها- والإفساحِ لها منفردةً ومجتمعةً، في كل مجال من مجالات اللغة العربية.

تَكَامُلُ الْفُنُونِ اللُّغَوِيَّةِ فِي نَفْسِهَا

إنه إذا كان في الفنون اللغوية الغنائية (الشعر وما أشبهه)، ما يثير الحنين، وفي الفنون اللغوية السردية (القصة وما أشبهها)، ما يثير الحركة، وفي الفنون اللغوية الحوارية (المسرحية وما أشبهها)، ما يثير المشاركة- فإن في الجمع بينها ما يكفل اجتماع الحنين والحركة والمشاركة التي تكتمل بها دائرة المشاعر الفَعَّالة، وسواء أكان هذا الجمع في الإبداع أم كان في التمثيل.

أما في الإبداع فإن الفنان المتحقق بحقيقة الفن، إذا آمَنَ باحتشاد المشاعر الإنسانية المختلفة في كل موقف، ورأى امتزاجها فيه امتزاج عناصر الماء، وصَدَقَ نفسَه- تآلفَتْ في كل عمل من أعماله الفنونُ المتخالفة، وتَضافرَتْ على الوفاء بطبيعة المشاعر الإنسانية.

وأما التمثيل فإن المؤدِّي الحريص على انتباه المتلقين جميعا وإمتاعهم أو إقناعهم، ينبغي أن يأتيَهم من كل سبيل ويحتجَّ عليهم بكل دليل؛ فلا يقتصرَ على أمثلة بعض الفنون اللغوية دون بعض؛ فيُمِلَّ بعضا ويُنفِّر بعضا؛ فلا خير في فِقْدان مَنْ ربما حَمَلَ هو دون غيره فيما بعدُ، عبءَ الإصلاح والتنمية!

تَكَامُلُ الْعُلُومِ اللُّغَوِيَّةِ فِي نَفسِهَا

إنه إذا كان في العلوم اللغوية الفنية (العروض والبديع والبيان والمعاني والنقد)، ما يصف اللغة في حال حركتها، وفي العلوم اللغوية العرفية (الأصوات والصرف والدِّلالة والنحو)، ما يصف اللغة في حال ثباتها- فإن في الجمع بينها ما يكفل اتِّزان الحركة بالثبات وانطلاق الثبات بالحركة، وسواء أكان هذا الجمع في البحث أم كان في التدريس.

أما في البحث فإن الباحث المتحقق بحقيقة العلم، إذا آمن بضرورة التأصيل والتحديث والتنمية، لم يستغن عن إضافة الظواهر اللغوية الفنية المتحركة في مادة بحثه إلى الظواهر اللغوية العرفية الثابتة، ولا عن إضافة نظريات بحثهما العلمية بعضها إلى بعض في تحرير رأيه، حتى يستوعب الماضي ويتمكن من الحاضر ويتقدم إلى المستقبل.

وأما في التدريس فلا غنى بالمدرس عن عرض الظواهر اللغوية العرفية الثابتة، حتى يتعلم الطالبُ منه التحليلَ والتركيبَ والتقويمَ- ولا عن عرض الظواهر اللغوية الفنية المتحركة، حتى يتعلم الطالبُ منه التتبُّعَ والتثبُّتَ والتقبُّلَ.

تَكَامُلُ الْمَهَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ فِي نَفْسِهَا

إنه إذا كان في المهارتين اللغويتين الشِّفاهيتين (الاستماع والتحدث)، ما يُؤَلِّف بين الحاضرين ثقافةً وراحةً ومتعةً وقوةً وقدرةً وفضلًا، وفي المهارتين اللغويتين الكِتابيتين (القراءة والكتابة)، ما يُؤَلِّف

بين الغائبين- فإن في الجمع بينها ما يؤلف بين الناس كلهم أجمعين، المنقسمين أبدا على حاضرين وغائبين، وسواء أكان هذا الجمع بينها جميعا معا، أم كان بين بعضها دون بعض.

أما الجمع بينها جميعا ففيما يحدث كثيرا من ممارستها كلها ممارساتٍ متوازيةً؛ فربما تفاوتت درجتا ممارسة كلِّ مهارتين، فعوَّضت زيادة درجة ممارسة المهارتين الكتابيتين نقص درجة ممارسة المهارتين الشفاهيتين، والعكسُ بالعكس.

وأما الجمع بين بعضها دون بعض ففيما يحدث قليلا من موازاة ممارسة مهارة الاستماع بممارسة مهارة الكتابة، وموازاة ممارسة مهارة القراءة بممارسة مهارة التحدث؛ فليس لوجود مثل هذه الأحوال الخاصة من تفسير سوى تكامل المهارات.

تَكَامُلُ الْفُنُونِ وَالْعُلُومِ وَالْمَهَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ فِي نَفْسِهَا

إنه إذا كان في الفنون اللغوية (الغنائية والسردية والحوارية)، انطلاقٌ وارتيادٌ واقتحامٌ، وفي العلوم اللغوية (الفنية والعرفية)، متابعةٌ وتفسيرٌ وتأصيلٌ، وفي المهارات اللغوية (الشفاهية والكتابية)، توصيلٌ وتمكينٌ وتخليدٌ- فإن في الجمع بينها ما يكفل تنمية اللغة العربية، وسواء أكان هذا الجمع في وعي شخص واحد أم كان في وعي شُخوص مؤتلفين.

أما الجمع بينها في وعي شخص واحد فهو عين اليقين وأمنية المتمنِّين وينبوع التنمية؛ إذ في مَصْهَر الوعي الحقيقي العميق الواحد، تتجمع مَوادُّ التَّحْصِيل كلُّها؛ فتتضح آفاق الرؤية، وتتصل مفاصلُ الرسالة، وتستقيم مرامي الأهداف.

وأما الجمع بينها في وعي شخوص مؤتلفين فهو عين الحكمة ورجاء المضطرين ومظنة التنمية؛ إذ في ائتلاف الوُعاة المُتعدِّدين، ما يكفل بينهم تضافرَ آفاق الرؤية -فتتضحُ مِنْ خفاء- ومفاصلَ الرسالة -فتتصلُ مِنِ انقطاع- ومراميَ الأهداف؛ فتستقيمُ مِنِ اعوجاج.

تَكَامُلُ الْفُنُونِ وَالْعُلُومِ وَالْمُهَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَغَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ

يتخيل الإنسان كل شيء ماديٍّ يريده، ثم يعمله، ولا اعتبار لما لا يريده؛ فليس مِن همِّه تخيُّلُه ولا عملُه. أما في أثناء تخيله ما يريده فاللغة من أمامه، ترتاد له المجاهل، وتؤنسه بها. وأما في أثناء عمله ما تخيله فاللغة من خلفه تقوم عليه، وتعتني به، وترعاه. فإذا وفَّاها حقها في أثناء التخيل، انتفع بها في أثناء العمل، وإلا فاجأه ما أشكل عليه فخَبَطَ في عِلاجه خَبْطَ عَشْوَاءَ؛ فأخطأ أو أصاب؛ وأحسن أو أساء.

أما تقدُّمُ اللغة في أثناء التخيل ورِيادتُها، فمن حيث يتوجَّه فيها التفكيرُ بالتعبير؛ فكُلَّما خَطَرَ تعبيرٌ أو تكوَّن خَطَرَتْ فكرةٌ أو تكوَّنت، ولا تقوم للخواطر غيرِ اللغوية قيمةٌ كبيرة مؤثرة، حتى تتحول إلى خواطر

لغوية، وكأن العقل مَكْتَبِيٌّ يُفهرِس الكتبَ بكلمات وعبارات مِفتاحيَّةٍ، ثم يستغني بها عنها!

وأما عنايةُ اللغة في أثناء العمل ورِعايتُها، فمن حيث يجتمع فيها التفكير والتعبير؛ فتصير مُركَّباتها كنموذج الصنعة الذي يضعه الصانع أمامه ليقلده، ولا يفتأ يُراجِعُه ويُقايِسُه ويُطابِقُه.

مَنْ تَكَامَلَتْ لَدَيْهِمُ الْفُنُونُ وَالْعُلُومُ وَالْمَهَارَاتُ اللُّغَوِيَّةُ وَغَيْرُ اللُّغَوِيَّةِ

طَوال مُزْدَهَر الحضارة العربية الإسلامية تكاملت في وعي بُناتها الفنونُ والعلوم والمهارات اللغوية وغير اللغوية، فلاسفةً كانوا أو أطباءَ أو كيميائيين أو مهندسين أو جغرافيين أو مؤرخين أو أدباءَ أو لغويين...- وعرفوا حقيقة الأمر واجتهدوا في سبيلها ودَلُّوا عليها.

ثم لما خَبَتْ جذوة الحضارة العربية الإسلامية انفرد المستمسكون بها الحريصون عليها، بمعرفة تلك الحقيقة والاجتهاد في سبيلها والدلالة عليها -مهما استثقلهم الناس، واستغربوهم، وأعرضوا عنهم!- وصارت هذه المعالم شِعارَهم الذي به يتميزون ويُعرفون.

الْأُسْتَاذُ مَحْمُودْ مُحَمَّدْ شَاكِرْ

فمِمَّن تكاملت لديهم الفنونُ والعلوم والمهارات اللغوية وغير اللغوية، في هذا العصر الذي عَصَرَنِي ثماني وأربعين مرة- الأستاذ محمود محمد شاكر (١٩٠٩-١٩٩٧) -رحمه الله!- الكاتب الأديب الفذ، الذي لم يدخل إلى جامعة القاهرة إلا بعد أن ائتلفت في وعيه أصول اللغة العربية

والرياضيات العليا، ووقف منها على مبادئ أَوَّليَّة قوية استند إليها في التأمل والتفكير واعتمد عليها. ولولا الدكتور طه حسين الذي صرفه إلى دراسة اللغة العربية بكلية الآداب لربما تخصص لدراسة الرياضيات بكلية العلوم.

في مفتتح دراسته الجامعية فوجئ شاكر بأستاذه الدكتور طه حسين يُشكِّك طلاب السنة الدراسية الأولى من قسم اللغة العربية بكلية الآداب من جامعة القاهرة، في مصادر اللغة العربية، وميز في كلامه أفكار مرجليوث المستشرق الإنجليزي قد ادعاها لنفسه؛ فسأله فيها، وحاوره، وناقشه، وأعاد، وزاد، وكرر، وأنكر؛ فلما وجده استكبر أن يعود إلى الحق أعرض عنه وعن القسم والكلية والجامعة ومصر كلها!

نعم؛ هاجر إلى الحجاز، ثم عاد بعد عامين، فاعتزل الناس، وانقطع سنين طويلة للفنون والعلوم والمهارات اللغوية العربية والعربية غير اللغوية، يُسائِلُها عن حقيقة الحضارة العربية الإسلامية، حتى استقرت لديه أصولها، وميَّزَ منها ما لا يُميِّزه غيره، واهتدى إلى ما لم يهتد إليه، حتى أبدع بعض الأعمال الفنية اللغوية العميقة الباهرة (القوسَ العذراء، واعصفي يا رياح)، وانتهج بعض المناهج العلمية الخاصة (التَّذَوُّقَ)، ووضع بعض النظريات الأصيلة (التَّشْعِيثَ) [مصلوح، ١٩٩١، ١٦٢]، وكتب في ذلك، وحَقَّقَ، واستقبل ببيته طلاب حقيقة الحضارة العربية الإسلامية الغائبة عن الجامعات البحثية والتدريسية –

وكنتُ أحدهم- وبذل لهم من نفسه وماله، حتى استوى بيتُه واستمر حتى وفاته -رحمه الله!- جامعةً أخرى صحيحةً واعيةً!

الدُّكْتُورُ جَمَالْ مَحْمُودْ حَمْدَانْ

ومن تكاملت لديهم الفنون والعلوم والمهارات اللغوية وغير اللغوية، في عصرنا هذا كذلك- الدكتور جمال محمود حمدان (١٩٢٨-١٩٩٣) -رحمه الله!- الجغرافي الأديب الفذ، الذي كان هو وأساتذة قسم الجغرافيا بكلية الآداب من جامعة القاهرة، كما حدثني زميله الدكتور يوسف فايد الذي صار فيما بعد رئيس قسم البحوث والدراسات الجغرافية بمعهد البحوث والدراسات العربية من جامعة الدول العربية -وقد عملتُ فيه مدةً بقسم البحوث والدراسات التراثية- يصطفون أمام الخريطة يتأملون معالمها، ويتفكرون فيها، ثم يحللونها، ويركبونها بما لا يخفى على أحد منهم، إلا الدكتور جمال حمدان؛ فقد كان يبهرهم من نتائج نظره العميق المؤيَّد الثاقب، بما لم يخطر لأحد منهم ببال!

والدكتور جمال حمدان المعروف بحصيلته اللغوية العربية الصحيحة الواعية، وحصيلته الجغرافية الأصيلة الطامحة، "لم تكن الجغرافيا لديه إلا رؤية إستراتيجية متكاملة للمقومات الكلية لكل تكوين جغرافي وبشري وحضاري، ورؤية للتكوينات وعوامل قوتها وضعفها. وهو لم يتوقف عند تحليل الأحداث الآنية أو الظواهر الجزئية، وإنما -هكذا، والأدق "بل"- سعى إلى وضعها في سياقٍ أعم وأشمل وذو بُعْدٍ -

هكذا، والصواب "وذي بُعْدٍ"- مستقبلي أيضا؛ ولذا فإن جمال حمدان عانَى مثلَ أنداده من كبار المفكرين الإستراتيجيين في العالم، من عدم قدرة المجتمع المحيط بهم على استيعاب ما ينتجونه؛ إذ غالبا ما يُكوِّن رؤية سابقة لعصرها بسنوات، وهنا يصبح عنصر الزمن هو الفيصل للحكم على مدى عبقرية هؤلاء الإستراتيجيون -هكذا، والصواب: الإستراتيجيين-" [ويكيبيديا: الموسوعة الحرة].

فلذلك استقال من الجامعة أستاذا مساعدا، واعتزل ببيته منقطعا لأعماله التي ملأت الدنيا وشغلت الناس. ولّما لم يرتح إلى فتح بيته لطلاب حقيقة الحضارة العربية الإسلامية كما فعل شاكر، اضطُرُّوا إلى تتبع أعماله والامتناع بها من أوهام الجامعات البحثية والتدريسية كذلك، ولاسيما كتابه الكبير "شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان"، ذو ثلاثة الأجزاء (شخصية مصر الطبيعية، وشخصية مصر البشرية، وشخصية مصر التكاملية)، الذي تجلَّى فيه وعيُه التكامليُّ الفَذُّ [ويكيبيديا].

هِجْرَانُ الْجَامِعَاتِ

كلا الأستاذين الجليلين أفضى به تكامل الفنون والعلوم والمهارات اللغوية وغير اللغوية في وعيه، إلى هجران جامعته التي كانت مُنْتَمَى حُلُمِه ومُنْتَهَى أَمَلِه، والاستهانةِ بالعمل الجامعي البحثي والتدريسي، والاشتغالِ بما يراه أصدق وأمكن وأكرم وأنفع؛ وليس أشدَّ

من حالهما تنبيها على ضرورة التوقف في أحوال هذه الجامعات المهجورة وأعمالها المستهان بها:

١ فإما أن نغيرها تغييرا كاملا، وموطن المخافة في هذا الرأي أن هذه الجامعات المهجورة قد اسْتَشْرَتْ فيها أَدْواءُ الفَصْل بين الفنون والعلوم والمهارات اللغوية وغير اللغوية، حتى اسْتَعْصَتْ على التغيير!

٢ وإما أن نستبدل بها استبدالا قاطعا، وموطن المخافة في هذا الرأي أن هذه الجامعات المهجورة قائمة لا يُزيلها التَّعامي عنها!

٣ وإما أن نغيرها ونستبدل بها جميعا معا، وموطن المخافة في هذا الرأي أن تتفاوت بين الجامعات المعمورة والمهجورة، الفُرَصُ منحا ومنعا؛ فيرتدّ ظلمٌ، ويضطرب حقدٌ، وينتشر فسادٌ.

والرأي هو الثالث، على أن يتاح لأهل الجامعات المهجورة الفاصلة بين الفنون والعلوم والمهارات اللغوية وغير اللغوية المتكاملات -إذا غَيَّروا ما بأنفسهم- أن ينتقلوا إلى الجامعات المعمورة الواصلة بين هذه المتكاملات، فتزول المهجورة بانتقالهم عنها قليلا قليلا.

وربما ظُنَّ هذا هو ما تفعله الآن هيئاتُ الجودة والاعتماد، وليس به؛ فلا علاقة لهيئات الجودة والاعتماد بغير التجهيزات الأَوَّليَّة الظاهرة على المستويات التأسيسية والتكميلية فقط، ولا اعتبار عندها لمقام تكامل الفنون والعلوم والمهارات اللغوية وغير اللغوية، الحضاري الراسخ

العالي، الذي تنسلك في سِلْكه المستوياتُ كلُّها عُليا وتكميليةً وتأسيسيةً، وترتوي من معينه، وتستظل بظله.

المُرَاجِعُ

- التوحيدي (أبو حيان): " كتاب الإمتاع والمؤانسة"، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة، والمكتبة العصرية ببيروت،
- صقر (الدكتور محمد جمال): "مؤتمر باندونج بلا جمال عبد الناصر": http://mogasaqr.com/?p=٢٩٩
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، ونشرة مؤسسة الرسالة، وطبعة ١٤٢٠= ٢٠٠٠، الأولى.
- مصلوح (الدكتور سعد): "نحو آجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية"، مجلة فصول يوليو ١٩٩١ (١٠/ ١).
- مهدي (وليد): " الثقافة والحضارة والتاريخ: المسيرة الإنسانية نحو التكامل العضوي"، مقال بمجلة الحوار المتمدن (٤٣٨٠): http://www.ahewar.org/search/Dsearch.asp?nr=٤٣٨٠
- (ويكيبيديا: الموسوعة الحرة):

%٨http://ar.wikipedia.org/wiki/%D
%٨_%D٨٤%٩D%٧A%٨D%٨٥%٩AC%D
٨٦%٩D%٧A%٨AF%D%٨D%٨٥%٩AD%D